

تفسير الفاسي
المسكت

مخازن التلاويك

تأليف علامه الشكام

محمد جمال الدين الفاسي

ونف على طبعه وتصحيحه ، ورقه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(تادم الكتاب والسنة)

بمجددنا عبد الباقا

كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لَّيْدَبَّرُوْا ءَايَاتِهِ ۖ وَلَيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ
[٢٩ / ص / ٣٨]

تفسير الفاسمي المسكبي

محاضر التاويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤ م

المجلد السادس عشر

ويبتدى بتفسير : ٥٦ - سورة الواقعة ، وينتهى بتفسير ٧٥ - سورة القيامة

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

محمد زكي عبد الحفيظ

عيسى البباني الحلبي وشيركا

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأخير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة

الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع

فهماً ترتاح إليه ضمائرهما ، وتنعقد عليه

خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة

تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد النار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيتام ،

والمجدد لعلوم الإسلام ، محي السنة

بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب

والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال

بين هدى السلف ، والارتقاء المدنى

الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بركة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء

مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جداً أن ترى كتاباً ، فى خزائنه

الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول

الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل . »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٦ - سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

سميت بها لأنها مملوءة بوقائع القيامة ، التي هي الواقعة العظمى ، لوقوعها في أشد الأحوال - قاله المهايى - .

وهي مكية . وآياتها ست وتسعون .

وعن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ! قد شئت ! قال : شيتنى هود والواقعة والمرسلات ، وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت - رواه الترمذى^(١) وقال : حسن غريب .

وعن جابر بن سمرة قال : كان رسول الله ﷺ يصلى الصلوات كنجو من صلاتكم التي تصلون اليوم ، ولكنه كان يخفف ، كانت صلاته أخف من صلاتكم . وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور .

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٥٦ - سورة الواقعة ، ٦ - حدثنا أبو كريب . حدثنا معاوية بن هشام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ)

[٢] (لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ)

[٣] (خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

« إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ » أى نزلت وجاءت . و(الواقعة) علم بالغلبة على القيامة، أو منقول، سميت بذلك لتحقيق وقوعها ، وكأنه قيل : إذا وقعت التى لا بد من وقوعها . واختيار (إذا) مع صيغة المضى ، للدلالة على ما ذكر . « لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » أى كذب أو تكذيب . وقد جاء المصدر على زنة (فاعلة) كالعاقبة ، والعافية . واللام للاختصاص . أو المعنى : ليس حين وقعها نفس كاذبة ، أى تكذب على الله ، أو تكذب فى نفيها . واللام للتوقيت . قال الشهاب : و(الواقعة) السقطة القوية ، وشاعت فى وقوع الأمر العظيم . وقد تخص بالحرب ، ولذا عبر بها هنا . « خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ » أى تخفض الأشقياء إلى الدركات ، وترفع السعداء إلى الدرجات . وقيل ، الجملة مقررة لعظمة الواقعة على طريق الكناية ، لأن من شأن الوقائع العظام أنها تخفض قوماً وترفع آخرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا)

[٥] (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا)

[٦] (فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا)

« إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا » أى زلزلت زلزلاً شديداً « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا »

أى فتت، أو سيقت وأذهبت، كقوله^(١) (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ) «فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا»
أى متفرقاً . قال قتادة : الهباء ما تذرّوه الريح من حطام الشجر . وقال غيره : هو ما يرى من
الكوة كهياة الغبار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً)

[٨] (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ)

[٩] (وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ)

[١٠] (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)

[١١] (أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

[١٢] (فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ)

« وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا » أى أصنافاً « ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ *
وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ » تقسيم وتنويع للأزواج الثلاثة ، مع الإشارة
الإجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها . وإطلاق (الميمنة) و (المشأمة) اللتين هما الجهتان المعروفتان ،
على منزلة السعداء الذين هم الأبرار والمصلحون من الناس ، وعلى دركة الأشقياء الذين هم الأشرار
والمفسدون من الناس - أصله من تيمّن العرب باليمين ، وتشاؤمهم بالشمال ، كما فى السائح
والبسارح ، وقولهم للرفيع : هو منى باليمين ، وللوضيع : هو منى بالشمال ، تجوزاً به ،
أو كناية به عما ذكر .

وقيل : الميمنة والمشأمة بمعنى اليمن والشؤم ، فليس بمعنى الجهة ، بل بمعنى البركة وضدها ،

(١) [٧٨ / النبأ / ٢٠] .

لما عاد عليهم من أنفسهم وأفعالهم . وفي جملة الاستفهام إشارة إلى ترقى أحوالهما في الخير والشر ، تعجباً منه .

« وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ » أى الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة ، بعد ظهور الحق ، وأوذوا لأجله ، وصبروا على ما أصابهم ، وكانوا الدعاة إليه .

فإن قيل : لم خولف بين المذكورين في السابقين ، وفي أصحاب اليمين ، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتهويل لحال المذكورين ؟

فنقول : التعظيم المؤدى بقوله (السَّابِقُونَ) أبلغ من قرينه . وذلك أن مؤدى هذا أن أمر السابقين ، وعظمة شأنه ، مالا يكاد يخفى . وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور . وأما المذكور في قوله (وَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) فإنه تعظيم على السامع بما ليس عنده منه علم سابق . ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله (أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) فجمع بين اسم الإشارة المشار به إلى معروف ، وبين الإخبار عنه بقوله (الْمُقَرَّبُونَ) معرفاً بالآلف واللام العهدية ؟ وليس مثل هذا مذكوراً في بسط حال أصحاب اليمين ، فإنه مصدر بقوله (فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ) - أفاده الناصر - .

و (السَّابِقُونَ) الثانى إما خبر ، أى الذين عرفت حالهم ، واشتهرت أوصافهم على حدٍّ (وشعرى شعرى) ، أو تأكيد ، والخبر قوله :

« أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ » أى الذين يقربهم الله منه بإعلاء منازلهم « فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ)

[١٤] (وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ)

« ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ » أى هم جماعة كثيرة من الذين سبقوا ، لرسوخ إيمانهم ، وظهور أثره فى أعمالهم من العمل الصالح ، والدعوة إلى الله ، والصبر على الجهاد فى سبيله ،

إلى غير ذلك من المناقب التي كانت ملكات لهم. « وَقَلِيلٌ مِّنَ الْأَخْيَرِينَ » أي الذين جاءوا من بعدهم في الأزمنة التي حدثت فيها الغير، وتبرجت الدنيا لخطاياها، ونسى معها سر البعثة، وحكمة الدعوة. فما أقول الماشين على قدم النبي صلوات الله عليه وصحابه ! لا جرم أنهم وقتئذ الغرباء ، لقلتهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ)

[١٦] (مُتَكِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ)

[١٧] (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ)

[١٨] (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ)

[١٩] (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ)

[٢٠] (وَفِيكِهِ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ)

[٢١] (وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)

[٢٢] (وَخُورٍ عَيْنٍ)

[٢٣] (كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوءِ الْمُكْنُونِ)

[٢٤] (جَزَاءً مِّمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[٢٥] (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا)

[٢٦] (إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا)

« عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ » أي مصفوفة، أو مشبكة بالدر والياقوت أو الذهب. و(الْوَضْنُ)

التشبيك والنسج . « مُتَّكِبِينَ عَلَيْهَا مُتَّقِلِينَ » أى بوجوههم ، متساوين فى الرتب ، لا حجاب بينهم أصلاً . « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ » أى للخدمة « وَلَدَانُ مُخَلَّدُونَ » أى مَبْقُونَ على سنّ واحدة لا يموتون . « بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ » أى حال الشرب . و (الكوب) إناء لا عروة ولا خرطوم له . و (الإبريق) إناء له ذلك . « وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ » أى خمر جارية . ثم أشار إلى أنها لَذَّةٌ كلها ، لا ألم معها ولا خمار « لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا » أى لا يصدر عنها صداعهم لأجل الخمار ، كخمر الدنيا . والصداع : وجع الرأس . وقرئ بالتشديد من التفعل . أى لا يتفرقون . « وَلَا يُنْزِفُونَ » بكسر الزاى وفتحها . أى لا تذهب عقولهم بسكرها . « وَفَلَكِهَةٌ مِّمَّا يَتَخَيَّرونَ » أى يختارون ويرتضون . وأصله أخذ الخيار والخير .

قال ابن كثير : وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيّر لها ، ثم استشهد له بحديث عكراش لما أتى النبي ﷺ بثيرد ، وأقبل عكراش يخبط بيده فى جوانبه ، فقبض النبي ﷺ بيده وقال : يا عكراش ! كل من موضع واحد ، فإنه طعام واحد . ثم أتى بطبق فيه تمر أو رطب ، فجعل عكراش يأكل من بين يديه ، وجالت يد رسول الله ﷺ فى الطبق فقال : يا عكراش ! كل من حيث شئت ، فإنه غير لون واحد - رواه الترمذى ^(١) واستغربه - .

« وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى يتمنون . « وَحُورٌ عِينٌ » أى أزواج بيض واسعة الأعين . عطف على (وَلَدَانُ) أو مبتدأ محذوف الخبر . أى وفيها ، أو ولهم حور . وقرئ بالجرّ عطف على (بِأَكْوَابٍ) . قال الشهاب : وحينئذ إما أن يقال (يَطُوفُ) بمعنى ينعمون مجازاً أو كناية ، على حدّ قوله ^(٢) :

* وَزَجَجْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعِيُونَا *

(١) أخرجه فى : ٢٣ - كتاب الأطعمة ، ٤١ - باب ما جاء فى التسمية فى الطعام .

(٢) صدره : * إِذَا مَا الْعَايِنَاتُ بَرَزْنَ يَوْمَ مَا *

استشهد به فى اللسان ، وقال : إنما أراد (وكحلن العيون) .

أو يبق على حقيقته وظاهره ، وأن الولدان تطوف عليهم بالخور أيضاً ، لعرض أنواع اللذات عليهم من المأكول والمشروب والمنسكوح ، كإتاقى الخدام بالسرارى للملوك ويعرضونهم عليهم . وإلى هذا ذهب أبو عمرو وقطرب وجوز جعله من الجر الجوارى . قيل : والفصل يأباه ويضعفه . وأما عطفه على (جَنَّتِ) بتقدير مضاف . أى هم فى جنات ، ومصاحبة حور - فقال أبو حيان : هو فهم أعجمى ، فيه بُعد وتفكيك للكلام المرتبط ، وهو ظاهر . ومن عصبه فقد تعصب .

« كَأَمْثَلِ اللَّوْثِ الْمَكْنُونِ » أى صفاؤه كصفاء الدرّ فى الأصداف الذى لاتمسّه الأبدى . وأصل (الْمَكْنُونِ) الذى صِينَ فى كِنٍّ . « جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى من الصالحات . « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا » أى هذياناً وكلاماً غير مفيد ، باطلاً من القول . « وَلَا تَأْتِيَا » أى ما يؤثم من الفحش والكذب والغيبة وأمثالها . « إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » قال القاشانى : أى قولاً هو سلام فى نفسه منزّه عن النقائص ، مبرأ عن الفضول والزوائد . أو قولاً يفيد سلامة السامع من العيوب والنقائص ، ويوجب سروره وكرامته ، ويبين كماله وبهجته ، لكون كلامهم كله معارف وحقائق ، وتحايا ولطائف ، على اختلاف وجهى الإعراب ، أى من كون (سَلَامًا) بدلا من (قِيلًا) ، أو مفعوله . والتكرير للدلالة على فشوّ السلام بينهم وكثرته ، لأن المراد : سلاماً بعد سلام ، كقراءات النحو باباً باباً ، فيدل على تكرّره وكثرته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ)

[٢٨] (فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ)

[٢٩] (وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ)

[٣٠] (وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا)

[٣١] (وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ)

[٣٢] (وَفِكْهَةٌ كَثِيرَةٌ)

[٣٣] (لَّا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ)

[٣٤] (وَقُرْشٌ مَّرْفُوعَةٌ)

[٣٥] (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً)

[٣٦] (فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا)

[٣٧] (عُرُبًا أَتْرَابًا)

[٣٨] (لِلأَصْحَبِ الْيَمِينِ)

[٣٩] (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ)

[٤٠] (وِثْلَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ)

« وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ » أى: أى شيء هم! أى هم شرفاء ، عطاء كرماء ،
يتعجب من أوصافهم فى السعادة « فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ » أى لا شك له . أو موقر بالثمار
« وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ » يعنى شجر الموز الذى نضد ثمره من أسفله إلى أعلاه . قال مجاهد : كانوا
يمجبون بوج ، من طلحه وسدره . وشجرة الموز ثمرتها حلوة دسمة لذيدة لانوى لها « وَظِلِّ
مَمْدُودٍ » أى متمد منبسط لا يتقلص « وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ » أى مصبوب دائم الجريان « وَفِكْهَةٌ
كَثِيرَةٌ * لَّا مَقْطُوعَةٌ » أى لا تنقطع عنهم متى أرادوها ، لكونها غير متناهية ، « وَلَا مَمْنُوعَةٌ
أى لا تمنع عن طالبها . والقصد مباينتها لفاكهة الدنيا ، فإنها تنقطع أحياناً ، كفاكهة
الصيف فى الشتاء ، وتمتنع أحياناً لعزتها أو جذبها « وَقُرْشٌ مَّرْفُوعَةٌ » أى مرتفعة فى
منازلها ، أو على الأرائك للرقود والمضاجعة . وقد يؤيده تأثره بوصف من يضاعفهن

فيها . وهو قوله تعالى « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً » أى بديعا فائق الوصف . فالضمير يعود على ما فهم من السياق والسباق . وقيل : قد يكنى عن الحور بالفرش ، كما يكنى عنهن باللباس . فالضمير للمذكور على طريق الاستخدام ، إذ عاد إلى الفرش بمعنى النساء ، بعد إرادة معناها المعروف منها . وقيل : على طريق الحقيقة . أى مرفوعة على الأرائك ، كآية^(١) (هُمُ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ) « فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا » أى لم يطمئن . « عُرُبًا » جمع عروب ، وهى المتجسبة إلى زوجها ، المحبوبة لتبعها « أترابًا » أى على سن واحدة « لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ » متعلق بـ (أَنْشَأْنَا) أو (جَعَلْنَا) أو صفة لـ (أَبْكَارًا) أو خبر لمحذوف ، مثل هن . « ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » أى جماعة وأمة من المتقدمين فى الإيمان ، ومن جاء بعدهم من التابعين لهم بإحسان من هذه الأمة . والكثرة ظاهرة لوفرة أصحاب اليمين فى أواخرهم دون السابقين ، كما بينا أولاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا أَصْحَابُ الشِّمَالِ)

[٤٢] (فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ)

[٤٣] (وَوَيْلٌ مِّن يَّحْمُومٍ)

[٤٤] (لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ)

[٤٥] (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ)

[٤٦] (وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ)

[٤٧] (وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

[٤٨] (أَوَّابًا وَأَنَا الْأَوَّلُونَ)

(١) [٣٦ / يس / ٥٦] .

« وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سُمُومٍ » أى حر نار ينفذ في السام
« وَحَمِيمٍ » أى ماء متناهى الحرارة « وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ » أى من دخان أسود ، طبق
أهويتهم المردية ، وعقائدهم الفاسدة ، وهيات نفوسهم المسودة ، بالصفات المظلمة ، والهيات
السود الرديئة « لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ » أى ليس له صفتا الظل الذى يأوى إليه الناس من
الروح ، ونقع من يأوى إليه بالراحة ، بل له إيذاء وإيلام وضرر ، بإيصال التعب واللهب والكرب
« إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ » أى منهمكين في اللذات والشهوات ، منغمسين في الأمور
الطبيعية ، والغواشى البدنية ، فبذلك اكتسبوا هذه الهيات الموبقة ، والتبعات المهلكة .
« وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ » أى الذنب العظيم ، من الأقاويل الباطلة ،
والعقائد الفاسدة ، التى استحقوا بها العذاب المخلد ، والعقاب المؤبد . وفسره (السبكي)
بالقسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله تعالى (١) « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ
لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ » . قال الشهاب : وهو تفسير حسن ، لأن الحنث ، وإن فسر
بالذنب مطلقاً أو الذنب العظيم ، فالمعروف استعماله في عدم البر بالقسم . ولذا تأثره بما كانوا
يعتقدونه من إنكار البعث بقوله « وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدًا مِّنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَمًا
أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ)

[٥٠] (لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)

[٥١] (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الْضَالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ)

[٥٢] (لَا تَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ)

(١) [١٦ / النحل / ٣٨] .

[٥٣] (فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)

[٥٤] (فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ)

[٥٥] (فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ)

[٥٦] (هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)

« قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » أى معين عنده تعالى ، وهو يوم القيامة « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ » أى الجاهلون المصرون على جهالاتهم ، والجاحدون للبعث . « لَا تَكُونَنَّ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ » وهو من أخبث شجر البادية فى الماردة ، وبشاعة المنظر ، وثن الریح « فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ » أى من ثمراتها الوبيثة البشعة المحرقة « فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ » أى الماء الذى انتهى حرمه وغليانه . قال الزمخشري : وأنت ضمير الشجر على المعنى ، وذكره على اللفظ فى قوله (مِنْهَا) و (عَلَيْهِ) « فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ » أى الإبل التى بها الهيام . وهو داء لا رى معه ، لشدة الشغف والكلب بها « هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ » أى جزاؤهم فى الآخرة . وفيه مبالغة بديعة ، لأن النزل ما يبعد للقادم عاجلاً إذا نزل ، ثم يؤتى بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة ، فلما جعل هذا ، مع أنه أمر مهول ، كالنزل ، دل على أن بعده ما لا يطيق البيان شرحه . وجعله نزلاً ، مع أنه ما يكرم به النازل ، متهمكاً ، كما فى قوله :

وكنا إذا الجبارُ بالجيش ضافناً جعلنا القنأ والمرهفات له نُزلاً

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ)

[٥٨] (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ)

[٥٩] (إِنَّمَا تَخَلَقُونَهُ وَآمَنَّا بِأَنَّا خَلَقْنَاهُ قَدْ كُنَّا خَلَقُونَ)

[٦٠] (نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)

[٦١] (عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَ لَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[٦٢] (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ)

« نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ » أى معشر قريش ، والمكذبين بالبعث ، فأوجدناكم بشراً ، ولم تكونوا شيئاً « فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ » أى بالخلق . وهم ، وإن كانوا مقرين به لقوله ^(١) (وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) إلا أنه نزل منزلة العدم والإنكار ، لأنه إذا لم يقترن بالطاعة ، والأعمال الصالحة ، لا يمد تصديقاً . أو المعنى : فلولا تصدقون بالبعث ، فإن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ » أى ماتقدفونه فى الرحم من النطف . « أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ » أى يجعله بشراً سويّاً « أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ » أى بإفاضة الصورة الإنسانية عليه . « نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ » أى كتبنا على كل نفس ذوقه . أى : ومن كان سبيله ذلك ، فشأنه أن يرهب من نزوله ، ويتأهب لما يخوف به من بعده . والجملة مقررة لما قبلها بإيدان أنهم فى قبضة القدرة ، فلا يغترون بالإمهال ، بدليل ما قدره عليهم من الموت . وفى قوله تعالى (بينكم) زيادة تنبيه ، كأنه بين ظهرانهم ، ثم أكد ما قرره بقوله تعالى « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمنغلوبين « عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ » أى بعدمهلككم ، فنجى بآخرين من جنسكم « وَنُنشِئَ لَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ » من صور وأشكال أخرى ، فكيف نعجز عن إعادتكم ؟

قال الشهاب : والظاهر أن قوله (وَنُنشِئَ لَكُمْ) المراد به إذا بدلناكم بغيركم ، لافى الدار الآخرة ، كما توهم . وهذا كقوله تعالى ^(٢) (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَوْ يُبَدِّلْكُمْ) (بِأَخْرَيْنَ) « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ » أى أنه أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . « فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة ، وهى البداءة ، قادر على النشأة الأخرى ، وهى الإعادة ، وأنها أهون عليه .

(١) [٣١ / لقمان / ٢٥] و [٣٩ / الزمر / ٣٨] . (٢) [٤ / النساء / ١٣٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ)

[٦٤] (ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ وَأَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَزْرَعُونَ)

[٦٥] (لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ)

[٦٦] (إِنَّا لَمَغْرُمُونَ)

[٦٧] (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ » أى ما تحرثون الأرض لأجله ، وهو الحب . و (الحرث) : شق الأرض للزراعة ، وإثارتها ، وإلقاء البذر فيها . « ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ » أى تلبثونه « أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَزْرَعُونَ » أى الملبثون . وعن بعض السلف أنه كان إذا قرأ هذه الآية وأمثالها يقول : بل أنت يارب ! « لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا » أى أيسناؤه قبل استوائه واستحصاده . وأصل (الحطام) ما تحطم وتفتت لشدة يسه « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ » أى تعجبون من هلاكه وبسه بعد خضرته . أو تندمون على اجتهدكم فيه الذى ضاع وخسر . أو (تفكّهون) على ما أصبتم لأجله من المعاصي ، فتحدثون فيه . و (التفكه) التنقل بصنوف الفاكهة ، وقد استعير للتنقل بالحديث ، لأنه ذو شجون . وقوله تعالى « إِنَّا لَمَغْرُمُونَ » مقول قول مقدّر ، هو حال . أى قائلين ، أو يقولون : إنا لمغرمون . أى ملزمون غرامة ما أنفقنا ، أو مهلكون لهلاك رزقنا . من (الغرام) بمعنى الهلاك ، قال (١) :

إِنْ يَمْدُبْ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يَمِطْ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يَبَالِي
« بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » أى حرمنّا رزقنا .

(١) هذا هو البيت الخامس والأربعون من القصيدة رقم ١ من ديوان الأعشى ، ومطلعهما :

ما بكاء الكبير بالأطلالِ وسؤالى ! فهل تردّ سؤالى ؟

والرواية فى الديوان (إن يعاقب) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ)

[٦٩] (أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ)

[٧٠] (لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)

« أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ » يعني العذب الصالح للشرب. « أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ » أى السحاب المعبر عنه بالسما في غير ما آية « أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ » أى لكم إلى قرار الأرض ، ومسلكوه يبايع فيها . « لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا » أى ملحاً لا يصلح لشراب ولا زرع « فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » أى نعمة الله عليكم في جملة عذاباً فرائناً ، لشرابكم ووزرعكم ، وصلاح معاشكم ومنافعكم .

الطيفة :

قال الإمام ابن الأثير في (المنهل السائر) في النوع الحادى عشر من المقالة الثانية ، في بحث ورود لام التوكيد في الكلام ، وأنها لا تجىء إلا لضرب من المبالغة ، في سر مجىء اللام في قوله تعالى (لَجَعَلْنَاهُ حُطُومًا) دون قوله (جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا) ما مثاله :

أدخلت اللام في آية الطعوم ، دون آية المشروب . وإنما جاءت كذلك ، لأن جعل الماء العذب ملحاً ، أسهل إمكاناً في العرف والعادة . والموجود من الماء الملح ، أكثر من الماء العذب . وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة ، أحوالها إلى الملوحة . فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً ، إلى زيادة تأكيد . فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق . وأما الطعوم فإن جملة حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد ، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد ، فلذلك قرن بلام التأكيد ، زيادة في تحقيق أمره ، وتقرير إيجاده . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧١] (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)

[٧٢] (ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ)

[٧٣] (نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَعْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٧٤] (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

« أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ » أى تقدحون. أى تستخرجونها من الزند، وهو العود الذى تقدح منه . « ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ » أى بل نحن جعلناها مودعة فى موضعها . وللعرب شجرتان : إحداها المرخ ، والأخرى العفار ، إذا أخذ منها غصنان أخضران فحكَّ أحدهما بالآخر ، تباين من بينهما شرر النار. وقد تقدم بيانه فى آخر سورة يس . « نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً » أى جعلنا نار الزناد تبصرة فى أمر البعث ، لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضاد لها ، قادر على إعادة ماتفرقت مواده . أو تذكيراً لنار جهنم . « وَنَعْمَةً » أى منفعة « لِلْمُؤْمِنِينَ » أى المسافرين الذين ينزلون القواء ، وهى القفر . يقال : أقوى إذا نزل القواء ، كأصح إذا دخل الصحراء ، فإن الإفعال يكون للدخول فى معنى مصدر مجرده .

وعن مجاهد : (المؤمن) المستمتعين ، المسافر والحاضر .

وعن ابن زيد : هم الجائعون . تقول العرب : أقوى منه كذا وكذا ، أى : ما أكلت منه . وأقوت الدار : خلت من ساكنيها وانتفاعهم بها ، لأنهم يطبخون بها . ولشدة احتياجهم لها ، خصوا بالذكر مع انتفاع غيرهم بها .

« فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » أى سبح اسمه. قال الزمخشري : بأن تقول: سبحان الله ، إما تنزيها له عما يقول الظالمون الذين يحقدون وحدانيته ، ويكفرون نعمته .

وإما تعجباً من أمرهم في غط آلائه وأياديه الظاهرة . وإما شكراً لله على النعم التي عدها
وبه عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[٧٦] (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[٧٧] (إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ)

[٧٨] (فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ)

[٧٩] (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ » أى منازل الكواكب ومراكزها البهيجة في
السماء . أو بمساقطها ومغاريبها ، وهى أوقات غيبتها عن الحواس . أو بمساقطها وانتشارها يوم
القيامة . و (لا) فى (لا أقسم) إما مزيدة للتأكيد ، وتقوية الكلام ، وقد عهدت زيادتها
فى كلامهم ، كما أوضحه فى (فقه اللغة) . وإما (لا أقسم) بتامها صيغة من صيغ القسم ، على
ما ارتضاه بعض المحققين . « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » أى لما فى القسم من الدلالة على
عظيم القدرة ، وكمال الحكمة . « إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ » أى له كرم ومرف وقد رُفِعَ ،
لاشتماله على أمهات الحكم والأحكام ، وما تنطبق عليه حاجات الأنام على الدوام « فِي كِتَابٍ
مَّكْنُونٍ » أى محفوظ مصون ، لا يتغير ولا يتبدل . أو محفوظ عن تردد الأيدى عليه ،
كغيره من الكتب ، بل هو كالدر المصون إلا عن أهله ، كما قال « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ »
اعلم أن فى الآية أقوالاً عديدة ، مرجعها إلى أن المس مجاز أو حقيقة ، وأن الضمير عائد
للكتاب بمعنى الوحي المتلقى ، أو المصحف ، وأن (المطهرون) هم الملائكة ، أو المتقون ،
أو المتطهرون من الأحداث والأخبار . وذلك لاتساع ألفاظها الكريمة ، لما ذكر بطريق
الاشتراك أو الحقيقة والمجاز . وهالك ملخص ذلك ولبابه :

فأما أكثر المفسرين ، فعلى أنه عني بالآية الملائكة . فنفيُ مسّه كناية عن لازمه ، وهو نفي الاطلاع عليه ، وعلى ما فيه . والمراد بـ (المطهرين) حينئذ إما جنس الملائكة ، أو من نزل به وهو روح القدس . وطهارتهم نقاء ذواتهم عن كدورات الأجسام ، وندس الهيمولي ، أو عن المخالفة والعصيان .

وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هذا القرآن نزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه (لَا يَمَسُّهُ - إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) كما قال (١) (وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَبْغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ) انتهى . قال ابن كثير : وهذا القول قول جيد .

وقال الفراء : لا يجذ طعمه ونفعه إلا من آمن به . ومثله قول محمد بن الفضل : لا يقرؤه إلا الموحدون .

فنفيُ مسّه كناية عن ترك تقبله ، والاهتداء به ، والعناية به ، فإن مسّ الشيء سبب حب الملموس ، وأثر الإقبال عليه ، ورائد الانصياع له . والطهارة حينئذ هي نظافة القلب من دنس الشرك والنفاق ، والملكات الرديئة ، والغرائز الفاسدة .

وقال آخرون : عني بـ (المطهرين) المتطهرون من الجفابة والحدث . قالوا : ولفظ الآية خبر ، ومعناها النهي ، إشارة إلى أن تلك الصفة طبيعة من طبائمه ، ولازم من لوازمه ، لشرفه وعظم شأنه .

قالوا : والمراد بـ (الكتاب) المصحف ، واحتجوا بما رواه الإمام مالك في موطنه عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ؛ أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم ، أن لا يمس القرآن إلا طاهر . وبما روى الدارقطني في قصة إسلام عمر ؛ أن أخته قالت له قبل أن يسلم : إنه رجس و (لَا يَمَسُّهُ - إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) إلا أن فيهما مقالا

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٠ - ٢١٢] .

بيّنه الحافظ ابن حجر في (تلخيص الحبير) وأشار له ابن كثير أيضاً . ومع ذلك فالدلالة ليست قطعية . وقد أوضح ذلك الشوكاني في (نيل الأوطار) وعبارته :

(الطاهر) يطلق بالاشتراك على المؤمن - والطاهر من الحدث الأكبر والأصغر - ومن ليس على بدنه نجاسة . ويدل لإطلاقه على الأول قول الله تعالى ^(١) : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) وقوله ﷺ لأبي هريرة ^(٢) : المؤمن لا ينجس . وعلى الثاني ^(٣) (وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا) وعلى الثالث : قوله ﷺ ^(٤) في المسح على الخفين : دعهما فإنني أدخلتهما طاهرتين . وعلى الرابع : الإجماع على أن الشيء الذي ليس عليه نجاسة حسية ولا حكمية يسمى طاهراً . وقد ورد إطلاق ذلك في كثير . فنأجاز حمل المشترك على جميع معانيه ، حملة عليها هنا . والمسألة مدونة في الأصول ، وفيها مذاهب . والذي يترجح أن المشترك يحمل فيها ، فلا يعمل به حتى يبين . وقد وقع الإجماع على أنه لا يجوز للمحدث حدثاً أكبر أن يمس المصحف . وخالف في ذلك داود . استدلل المانعون للجنب بقوله تعالى : (لَا يَمَسُّهُوَ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) وهو لا يتم إلا بعد جعل الضمير راجعاً إلى القرآن ، والظاهر رجوعه إلى الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، لأنه الأقرب . و (المطهرون) الملائكة . ولو سلم عدم الظهور ، فلا أقل من الاحتمال ، فيمتنع العمل بأحد الأمرين ، ويتوجه الرجوع إلى البراءة الأصلية . ولو سلم رجوعه إلى القرآن على التعيين ، لكانت دلالاته على المطلوب ، وهو منع الجنب من مسه ، غير مسلمة . لأن المطهر من ليس بنجس ، والمؤمن ليس بنجس دائماً ، لحديث : المؤمن لا ينجس . وهو متفق عليه . فلا يصح حمل المطهر على من ليس بجنب أو حائض أو محدث أو متنجس بنجاسة عينية ، بل يتعين حملة على من ليس بمشرك ، كما في قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) لهذا الحديث ، ولحديث النهي عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو . ولو

(١) [٩ / التوبة / ٢٨] . (٢) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الغسل ، ٢٣ - باب عرق الجنب وأن المؤمن لا ينجس ، حديث ٢٠٤ . (٣) [٥ / المائدة / ٦] . (٤) أخرجه البخاري في : ٤ - كتاب الوضوء ، ٤٩ - باب إذا أدخل رجله وما طاهرتان ، حديث رقم ١٤٥ ، عن المغيرة .

سلم صدق اسم (الطاهر) على من ليس بمحدث حدثاً أكبر أو أصغر . فقد عرفت أن الراجح كون المشترك مجملًا في معانيه ، فلا يعين حتى يبين . وقد دل الدليل ههنا أن المراد به غيره ، لحديث (المؤمن لا ينجس) . ولو سلم عدم وجود دليل يمنع من إرادته ، لكان تعيينه لحل النزاع ترجيحاً بلا مرجح ، وتعيينه لجميعها استعمالاً للمشارك في جميع معانيه ، وفيه الخلاف . ولو سلم رجحان القول بجواز الاستعمال للمشارك في جميع معانيه ، لما صح ، لوجود المانع ، وهو حديث : المؤمن لا ينجس . واستدلوا أيضاً بحديث عمرو بن حزم المتقدم ، وأجيب بأنه غير صالح للاحتجاج . لأنه من صحيفة غير مسموعة ، وفي رجال إسناده خلاف شديد ، ولو سلم صلاحيته للاحتجاج ، لعاد البحث السابق في لفظ (طاهر) وقد عرفته .

قال السيد العلامة محمد بن إبراهيم الوزير : إن إطلاق اسم النجس على المؤمن الذي ليس بطاهر من الجنابة أو الحيض أو الحدث الأصغر ، لا يصح لاحقية ولا مجازاً ولا لغة . صرح بذلك في جواب سؤال ورد عليه . فإن ثبت هذا فالؤمن طاهر دائماً ، فلا يتناوله الحديث ، سواء كان جنباً أو حائضاً أو محدثاً ، أو على بدنه نجاسة .

فإن قلت : إذا تم ما تريد من حمل (الطاهر) على من ليس بمشرك ، فما جوابك فيما ثبت في المتفق عليه من حديث ابن عباس ^(١) أنه ﷺ كتب إلى هرقل عظيم الروم : أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين . و ^(٢) (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ ..) إلى قوله : (مُسْلِمُونَ) مع كونهم جامعين بين نجاستي الشرك والاجتناب ووقوع اللبس منهم له معلوم ؟

قلت : أجعله خاصاً بمثل الآية والآيتين ، فإنه يجوز تمكين المشرك من مس ذلك المقدار ، لمصلحة ، كدعائه إلى الإسلام . ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنه قد صار باختلاطه بغيره

(١) أخرجه البخاري في : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - حدثنا أبو اليمان الحكم

ابن نافع ، حديث رقم ٧ . (٢) [٣ / آل عمران / ٦٤] .

لا يحرم لسه ، ككتب التفسير ، فلا تخصص به الآية والحديث . إذا تقرر لك هذا ، عرفت عدم انتهاض الدليل على منع من عدا المشرك . وقد عرفت الخلاف في الجنب . وأما المحدث حدثاً أصغر ، فذهب ابن عباس والشعبي والضحاك وزيد بن عليّ والمؤيد بالله والهادوية وقاضى القضاة وداود إلى أنه يجوز له مس المصحف . وقال القاسم وأكثر الفقهاء والإمام يحيى : لا يجوز . واستدلوا بما سلف ، وقد سلف ما فيه . انتهى كلام الشوكاني .

تنبيه :

في لطف دلالة هذه الآية وما تشير إليه من العلم المكنون قال الإمام ابن القيم في (أعلام الموقعين) في مباحث أمثال القرآن الكريم ، ما مثاله : الواجب فيما علق عليه الشارع الأحكام من الألفاظ والمعاني ، أن لا يتجاوز بالفاظها ومعانيها ، ولا يقصّر بها ، ويعطى اللفظ حقه ، والمعنى وقد مدح الله تعالى أهل الاستنباط في كتابه ، وأخبر أنهم أهل العلم . ومعلوم أن الاستنباط إنما هو استنباط المعاني ، والعلل ، ونسبة بعضها إلى بعض ، فيعتبر ما يصح منها بصحة مثله وشبهه ونظيره ، ويلغى ما لا يصح ، هذا الذي يعقله الناس من الاستنباط .

قال الجوهري : الاستنباط كالاستخراج . ومعلوم أن ذلك قدر زائد على مجرد فهم اللفظ ، فإن ذلك ليس طريقة الاستنباط ، إذ موضوعات الألفاظ لا تنال بالاستنباط ، وإنما تنال به العلل والمعاني والأشباه والنظائر ، ومقاصد التسكيم . والله سبحانه ذم من سمع ظاهراً مجرداً فأذاعه وأفشاه ، وحمد من استنبط من أولى العلم حقيقته ومعناه . يوضحه أن الاستنباط استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفى على غير مستنبطه . ومنه استنباط الماء من أرض البئر والعين . ومن هذا قول^(١) عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد سئل : هل خصم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس ؟ فقال : لا ، والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا فهماً

(١) أخرجه البخاري في : ٥٦- كتاب الجهاد، ١٧١- باب فكك الأسير، حديث ٩٥

يؤتيه الله عبداً في كتابه ! ومعلوم أن هذا الفهم قدر زائد على معرفة موضوع اللفظ وعمومه أو خصوصه ، فإن هذا قدر مشترك بين سائر من يعرف لغة العرب ، وإنما هذا فهم لوازم المعنى ونظائره ، ومراد المتكلم بكلامه ، ومعرفة حدود كلامه ، بحيث لا يدخل فيها غير المراد ولا يخرج منها شيء من المراد . وأنت إذا تأملت قوله تعالى ^(١) : (إِنَّهُ وَقَرُّهُ أَنْ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي ﷺ ، وأن القرآن جاء من عند الله وأن الذي جاء به روح مطهرة ، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل ، ووجدت الآية أخت قوله ^(٢) (وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر ، ووجدتها دالة أيضاً بالطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به ، وعمل به ، كما فهمه البخاري من الآية ، فقال في صحيحه في باب ^(٣) (قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا) : (لَا يَمَسُّهُ وَ) لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ، ولا يحمله بحقه إلا المؤمن لقوله ^(٤) (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) وتجد تحته أيضاً : لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغي ، إلا القلوب الطاهرة ، وإن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه ، مصروفة عنه . فتأمل هذا السبب القريب ، وعقد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية ، واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه . فهذا من الفهم الذي أشار إليه على رضي الله عنه . انتهى .

(١) [٥٦ / الواقعة / ٧٧ - ٧٩] . (٢) [٢٦ الشعراء / ٢١٠] .

(٣) [٣ / آل عمران / ٩٣] . (٤) [٦٢ / الجمعة / ٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

[٨١] (أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ)

[٨٢] (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ)

« تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ » أى الذى رباهم بالكمالات ، وهداهم إليها بتزيلها منه .
« أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ » يعنى القرآن الذى قص عليكم نخامة شأنه ، وعظمة مقداره .
« أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ » . قال ابن جرير^(١) : أى تليمنون القول للكذابين ، ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر . وأصل (الإدهان) - كما قال الشهاب - جعل الأديم ونحوه مدهوناً بشيء من الدهن . ولما كان ذلك مليناً له محسوساً ، أريد به اللين المعنوى . على أنه تجوز به عن مطلق اللين ، أو استعير له . ولذا سميت المداراة والملاينة ، مدهانة . وهذا مجاز معروف ، ولشهرته صار حقيقة عرفية ، فلذا تجوز به هنا عن التهاون أيضاً ، لأن التهاون بالأمر ، لا يتصلب فيه . « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكر رزقكم إياه تكذيبكم به ، كفرًا لنعمته ، وجحدًا لمنته .

قال ابن جرير^(١) : أى وتجعلون شكر الله على رزقه إياكم ، التكذيب . وذلك كقول القائل لآخر : جعلت إحسانى إليك إساءة منك إلىّ ، بمعنى جعلت شكر إحسانى ، أو ثواب إحسانى إليك ، إساءة منك إلىّ .

وقد ذكر عن الهيثم بن عدى : أن من لغة أزدشنوءة (مارزق فلان) بمعنى ما شكر .

انتهى .

وقد حمل بعضهم (الرزق) هنا على النعمة مطلقاً ، والأظهر أنه نعمة القرآن ، للسياق .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠٧ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال القاشاني : أى وتعملون قوتكم القلبيّ ورزقكم الحقيقى ، تكذيبه ، لاحتجابكم بعلومكم ، وإنكاركم ما ليس من جنسه ، كإنكار رجل جاهل ما يخالف اعتقاده ، كأن علمه نفس تكذيبه . أو رزقكم الصورى . أى لداومتكم على التكذيب ، كأنكم تعملون التكذيب غذاءكم . كما تقول للمواظب على الكذب : الكذب غذاءه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ)

[٨٤] (وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ)

[٨٥] (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ)

« فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ » أى النفس ، لدلالة الكلام عليها « الْحُلُقُومَ * » وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ » أى حالة نزعه ، أو تنتظرون لفظه النفس الأخير . والخطاب لمن حول المحتضر . « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ » قال جمهور السلف : يعنى ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . أو لا تدركون كنه ما يقاسيه . وبعضهم فسر القرب بالعلم والقدرة . وتقدم بسط الأقوال ، وترجيح الأول فى تفسير آية (١) (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) فى سورة (ق) فأرجع إليه فإنه مهم . وهذه الجملة معترضة ، أو حالية كالتى قبلها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ)

[٨٧] (تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(١) [٥٠ / ق / ١٦] .

[٨٨] (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

[٨٩] (فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ)

[٩٠] (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)

[٩١] (فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)

[٩٢] (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ)

[٩٣] (فَنُزِّلُ مِنْ هَمِيمٍ)

[٩٤] (وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ)

[٩٥] (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ)

[٩٦] (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

« فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ » أى غير مجزيين يوم القيامة . أو مملوكين مقهورين . من (دانه) أذله واستعبده . « تَرَجُّعُونَهَا » أى تردون النفس إلى مقرها عند بلوغها الحلقوم « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنكم غير مسوسين ، مربوبين مقهورين . يعنى أنكم مجبرون عاجزون تحت قهر الربوبية ، وإلا لا مكنكم دفع ماتكرهون أشد الكراهية ، وهو الموت . « فَأَمَّا إِنْ كَانَ » أى الميت « مِنَ الْمُقَرَّبِينَ » أى السابقين من الأصناف الثلاثة المذكورة فى أول السورة « فَرَوْحٌ » أى فله راحة « وَرَيْحَانٌ » أى رزق طيب ، أو شجر ناضر يتفيا ظلاله « وَجَنَّتُ نَعِيمٍ » أى يتفعم فيها مما تشبیهه الأنفس ، وتلذ الأعين « وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » .

قال ابن كثير : أى تبشرهم الملائكة بذلك . تقول لأحدهم : سلام لك ، أى لا بأس عليك أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين .

وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله ، وسلّمت عليه ملائكة الله ، كما قال عكرمة :
سلم عليه الملائكة ، وتجبره أنه من أصحاب اليمين . وهذا معنى حسن . ويكون ذلك كقول
الله تعالى (١) «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . . .» (الآيات . انتهى .

وقال الرازي : في السلام وجوه :

أولها - يسلم به صاحب اليمين ، على صاحب اليمين كما قال تعالى (٢) من قبل : (لَا يَسْمَعُونَ
فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) .

ثانيها - (فَسَلِّمُ لَكَ) أى سلامة لك من أمرٍ خاف قلبك منه ، فإنه في أعلى المراتب .
وهذا كما يقال لمن تعلق قلبه بولده الغائب عنه ، إذا كان يخدم عند كريم : كن فارغاً من
جانب ولدك ، فإنه في راحة .

ثالثها - أن هذه الجملة تفيد عظمة حالهم ، كما يقال : فلان ناهيك به ، وحسبك أنه فلان .
إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد الفضل . انتهى .

ثم قال الرازي : والخطاب بقوله (لَكَ) يحتمل أن يكون للنبي ﷺ ، وحينذ فيه وجه ،
وهو ما ذكرنا أن ذلك تسليّة لقلب النبي ﷺ ، فإنهم غير محتاجين إلى شيء من الشفاعة
وغيرها . فسلام لك يا محمد منهم ، فإنهم في سلامة وعافية ، لا يهكم أمرهم . أو فسلام لك يا محمد
منهم ، وكونهم ممن يسلم على محمد صلى الله عليه وسلم دليل العظمة ، فإن العظيم لا يسلم عليه
إلا عظيم . انتهى .

«وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ» أى بآيات الله «الضَّالِّينَ» أى الجائرين عن سبيله .
«فَزُلْ مِنْ حِمِيمٍ» أى ماء انتهى حرّه ، فهو شرابه «وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ» أى إحراق
بالنار «إِنَّ هَذَا» أى المذكور من أحوال الفرق الثلاثة وعواقبهم «لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ»

أى حقيقة الأمر ، وجلية الحال ، لا لبس فيه ولا ارتياب . والإضافة إما من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أى الحق اليقين، كما يقال : دار الآخرة ، والدار الآخرة ؛ أو بالعكس ، أى اليقين الحق . أو من إضافة العام للخاص ، أى كعلم الأمر اليقين . فالإضافة حينئذ لامية ، أو بمعنى (من) .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدلل بالآيات هذه على أن الروح بعد مفارقة البدن، منعمة أو معذبة، وعلى أن مقر أرواح المؤمنين فى الجنة ، وأرواح الكافرين فى النار .
« فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » أى نزهه عما يصفونه به من الأباطيل ، وما يتفهون به من الأضاليل ، قولاً وعملاً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٧ - سُورَةُ الْحَدِيدِ

سميت به لأنه ناصر لله ولرسوله في الجهاد ، فنزل منزلة الآيات الناصرة لله ولرسوله ، على أنه سبب لإقامة العدل ، كالقرآن . وأيضاً أنه جامع للمنافع ، فأشبهه أيضاً ، فسميت سورة ذكر فيه ، بذلك - أفاده المهايى - .

وهي مدنية على الأصح ، بل قال النقاش : إنها مدنية بإجماع المفسرين ، ونظم آياتها ، وما تشير إليه ، يؤيده قطعاً .

وأيها تسع وعشرون .

روى الإمام أحمد^(١) عن عرياض بن سارية ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد . وقال : إن فيهن آية أفضل من ألف آية . وهكذا رواه أبو داود والترمذى والنسائي . قال ابن كثير : والآية المشار إليها في الحديث هي - والله أعلم - قوله تعالى (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ...) الآية ، لما سيأتى بيانه - والله أعلم - .

(١) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى أظهر كل موجود تنزيهه عن الشريك والولد، وكل ما لا يليق به، وأذن بانقراده في ألوهيته، وتدبيره وعلمه وقدرته. فإن من شاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها، على حال من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقض عجائبه، ولا تنتهى غاياته - فبالضرورة يقضى بأن هذا الترتيب المحكم هو أثر خالق واحد، مدبر لنظامه، مريد لسيره في سننه، كما بسطناه في (دلائل التوحيد). « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى القوى الذى يقهر كل ما في السموات والأرض « الْحَكِيمُ » أى الذى رتب نظام كل موجود على ترتيب حكيم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى سلطانهما، وتفوذ الأمر فيهما « يُحْيِي وَيُمِيتُ » أى يوجد ما يشاء من الحيوان والنبات كيفما شاء، ويعيته بعد بلوغه أجله فيقنيه « وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى تام القدرة، فلا يتعذر عليه شيء أراده من إحياء وإماتة وغيرها.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« هُوَ الْأَوَّلُ » أى السابق على كل موجود، من حيث إنه موجد ومحدث « وَالْآخِرُ »

أى الباقي بمعدنائه كل شىء « وَالظَّهِرُ » أى وجوده بالأدلة الدالة عليه. وقال ابن جرير^(١).
أى الظاهر على كل شىء دونه ، وهو العالى فوق كل شىء ، فلا شىء أعلى منه « وَالْبَاطِنُ »
أى باحتجابه بذاته وماهيته . أو العالم بباطن كل شىء . قال ابن جرير^(٢) : أى الباطن
جميع الأشياء ، فلا شىء أقرب إلى شىء منه ، كما قال^(٣) (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلٍ
أَنْزَلْنَاهُ) « وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى تام العلم ، فلا يخفى عليه شىء .
وقد روى الإمام أحمد^(٤) عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم :
اللهم ! رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة
والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت
أخذ بناصيته . أنت الأول فليس قبلك شىء . وأنت الآخر فليس بعدك شىء . وأنت الظاهر
فليس فوقك شىء وأنت الباطن ليس دونك شىء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر
- ورواه مسلم^(٥) وغيره . -

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)
« هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » قال القاشانى : أى من الأيام
الإلهية ، وقيل : المهدودة - والله أعلم - . « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » قال ابن جرير^(٥) :

(١) انظر الصفحة رقم ٢١٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٥٠ / ق / ١٦] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٨١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

(٤) أخرجه فى : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٦١ (طبعتنا) .

(٥) انظر الصفحة رقم ٢١٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أى هو الذى أنشأ السموات السبع والأرضين ، فدبرهن وما فيهن ، ثم استوى على عرشه ، فارتفع عليه وعلا . « يَعلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ » أى من خلقه كالأموات والبذور والحيوانات « وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا » أى كالزروع « وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ » أى من الأمطار والثلوج والبرد والأقذار والأحكام « وَمَا يَعْرِجُ فِيهَا » أى من الملائكة والأعمال وغيرها . « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ » قال ابن جرير^(١) : أى وهو شاهد لكم ، أينما كنتم ، يعلمكم أعمالكم ومتقلبكم ومثواكم ، وهو على عرشه فوق سماواته السبع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى (شرح حديث النزول) : لفظ المعية فى سورة الحديد والمجادلة ، فى آيتينهما ، ثبت تفسيره عن السلف بالعلم . قالوا : هو معهم بعلمه . وقد ذكر الإمام ابن عبد البر وغيره ؛ أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولم يخالفهم أحد يعتد بقوله . وهو مأثور عن ابن عباس والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثورى وأحمد بن حنبل وغيرهم . قال ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية : هو على العرش وعلمه معهم ، وهكذا عمن ذكر معه . وقد بسط الإمام أحمد الكلام على المعية فى (الرد على الجهمية) . ولفظ المعية فى كتاب الله جاء عاماً كما فى هاتين الآيتين ، وجاء خاصاً كما فى قوله تعالى^(٢) (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) وقوله^(٣) (إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى) وقوله^(٤) (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) فلو كان المراد بذاته مع كل شىء ، لكان التعميم يناقض التخصص ، فإنه قد علم أن قوله (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) أراد به تخصيصه وأبا بكر ، دون عدوهم من الكفار . وكذلك قوله (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) ، خصهم بذلك دون الظالمين والفجار . وأيضاً ، فلفظ المعية ، ليست فى لغة العرب ، ولا شىء من

(١) انظر الصفحة رقم ٢١٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] . (٣) [٢٠ / طه / ٤٦] .

(٤) [٩ / التوبة / ٤٠] .

القرآن ، أن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى ، كما في قوله ^(١) (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ) وقوله ^(٢) (فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) وقوله ^(٣) (اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) وقوله ^(٤) (وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ) ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله ^(٥) (وَهُوَ مَعَكُمْ) يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق . وأيضاً ، فإنه افتتح الآية بالعلم ، وختمها بالعلم ، فكان السياق يدل على أنه أراد أنه عالم به . وقد بسط الكلام عليه في موضع آخر ، وبيّن أن لفظ المعية في اللغة ، وإن اقتضى الجماعة والمصاحبة والمقاربة ، فهو إذا كان مع العباد ، لم يناف ذلك علوه على عرشه ، ويكون حكم معيته في كل موطن بحسبه . فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ، ويخص بعضهم بالإعانة والنصر والتأييد . انتهى .

وقال الإمام موفق الدين بن قدامة المقدسي رضي الله عنه في كتاب (ذم التأويل) :
فإن قيل : فقد تأولتم آيات وأخباراً ، فقلتم في قوله تعالى (وَهُوَ مَعَكُمْ أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ)
أى بالعلم ، ونحو هذا من الآيات والأخبار ، فيلزمكم بنا لزمننا ؟

قلنا : نحن لم نتأول شيئاً ، وحمل هذه اللفظات على هذه المعاني ليس بتأويل ، لأن التأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، وهذه المعاني هي الظاهر من هذه الألفاظ ، بدليل أنه المتبادر إلى الأفهام منها . وظاهر اللفظ هو ما يسبق إلى الفهم منه ، حقيقة كان أو مجازاً . ولذلك كان ظاهر الأسماء العرفية ، المجاز دون الحقيقة ، كاسم الراوية والظعينة وغيرهما من الأسماء العرفية ، فإن ظاهر هذا ، المجاز دون الحقيقة . وصرفها إلى الحقيقة يكون تأويلاً يحتاج إلى دليل . وكذلك الألفاظ التي لها عرف شرعي ، وحقيقة لغوية ، كالوضوء والطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج ، إنما ظاهرها العرف الشرعي دون الحقيقة اللغوية . وإذا تقرر هذا ، فالتبادر

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] . (٢) [٤ / النساء / ١٤٦] .

(٣) [٩ / التوبة / ١١٩] . (٤) [٨ / الأتقال / ٧٥] .

(٥) [٥٧ / الحديد / ٤] .

إلى الفهم من قولهم (إن الله معك) أى بالحفظ والسكاء . ولذلك قال الله تعالى فيما أخبر عن نبيه ^(١) (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ، وقال موسى ^(٢) (إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى) ، ولو أراد أنه بذاته مع كل أحد لم يكن لهم بذلك اختصاص ، لوجوده فى حق غيرهم ، كوجوده فيهم ، ولم يكن ذلك موجباً لنفى الحزن عن أبى بكر ، ولا علة له . فعلم أن ظاهر هذه الألفاظ هو ما حملت عليه ، فلم يكن تأويلاً . ثم لو كان تأويلاً فما نحن تأوليناه ، وإنما السلف رحمة الله عليهم ، الذين ثبت صوابهم ، ووجب اتباعهم ، هم الذين تأولوه . فإن ابن عباس والضحاك ومالك وسفيان وكثيراً من العلماء قالوا فى قوله (وَهُوَ مَعَكُمْ) أى علمه . ثم قد ثبت بكتاب الله ، والمتواتر عن رسول الله ﷺ وإجماع السلف ؛ أن الله تعالى فى السماء على عرشه ، وجاءت هذه اللفظة مع قرائن محفوفة بها دالة على إرادة العلم منها ، وهو قوله ^(٣) (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) ثم قال فى آخرها (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) . فبدأها بالعلم ، وختمها به ، ثم سياقها لتخويفهم بعلم الله تعالى بحالهم ، وأنه ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ويجازيهم عليه ، وهذه قرائن كلها دالة على إرادة العلم ، فقد اتفق فيها هذه القرائن ، ودلالة الأخبار على معناها ، ومقالة السلف وتأويلهم . فكيف يلحق بها ما يخالف الكتاب والأخبار ومقالات السلف ؟ فهذا لا يخفى على عاقل إن شاء الله تعالى ، وإن خفى فقد كشفناه وبينناه بحمد الله تعالى . ومع هذا لو سكت إنسان عن تفسيرها وتأويلها لم يخرج ولم يلزمه شيء ، فإنه لا يلزم أحداً الكلام فى التأويل إن شاء الله تعالى . انتهى كلام ابن قدامة رحمه الله .

« وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم عليه .

(٢) [٢٠ / طه / ٤٦] .

(١) [٩ / التوبة / ٤٠] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

[٦] (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

«لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» أى أمور جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه . «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ» أى يدخل ما نقص من ساعات أحدهما فيجمله زيادة في الآخر بحكمته وتقديره . «وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» أى بضائر صدور عباده ، وما عزمت عليه نفوسهم من خير أو شر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ، فَالَّذِينَ

ءَامِنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

«ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» أى آمنوا بالإيمان اليقيني ليظهر أثره عليكم ، فيسهل عليكم الإنفاق من مال الله الذى مولاكم إياه ، وجعلكم مستخلفين فيه ، بتمكينكم وإقداركم على التصرف فيه بحكم الشرع ، إذ الأموال كلها لله ، واختصاص نسبة التصرف إنما هو بحكمه في شريعته - أفاده القاشاني - .

وقال الشهاب : الخلافة إما عمن له التصرف الحقيقي ، وهو الله تعالى ، وهو المناسب لقوله (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ، أو عمن تصرف فيها قبلهم ممن كانت في أيديهم فانقلبت لهم . وعلى كلٍّ ، ففيه حث على الإنفاق ، وتهوين له . أما على الأول فظاهر . لأنه أذن له في الإنفاق من ملك غيره ، ومثله يسهل إخراجه وتسكيره . وعلى الثانى أيضاً ، لأن من علم أنه لم يبق لمن قبله ، علم أنه لا يدوم له أيضاً ، فيسهل عليه الإخراج .

وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعُ وَلَا بَدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ^(١)
« فَأَلَدَيْنَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » أى وما يصدكم عنه ، وقد ظهرت دواعيه ، واتضحت سبله لذويه كما قال « وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ » أى يدعوكم من طريق النظر والتفكير إلى الإيمان بالذى رباًكم بنعمه ، وصرّفكم بآلائه ، فوجب عليكم شكره .
« وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ » أى بالإيمان ، إذ ركب فيكم العقول ، ونصب الأدلة ، ومكنكم من النظر ، بل أودع فى فطركم ما يضطركم لذلك إذا نهتهم ، وقد حصل ذلك بتذكير الرسول ، فاعلموا أن تأخذوا فى سبيله . « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » قال القاشانى : أى إن بقى نور الفطرة والإيمان الأزلّى فيكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ مِّنَ الْظُلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

« هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ مِّنَ الْظُلُمَاتِ » أى حُجَجًا واضحات ، وبراهين قاطعات ،
« لِيُخْرِجَكُمْ » أى الله ، أو عبده بآياته « مِنَ الْظُلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ » أى من ظلمات

(١) قائله لبيد ، من قصيدته التى مطلعها :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَىٰ النُّجُومُ الطَّوَالِعُ وَتَبَقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ
(الشعر والشعراء ص ٢٣٦) .

الجهل والكفر والأهواء المتضادة، إلى نور الهدى واليقين، الذى تشعر به النفوس، وتطمئن به القلوب . « وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » أى فى إنزاله الكتب ، وإرساله الرسل لهدايتكم ، إزاحة للعلل ، وإزالة للشبه .

ولما كان إنزال هذه السورة للأمر بالإتفاق فى سبيل الله ، والترغيب فيه ، والحث عليه، أكثر من ذكره فى ضروب من البيان ، وفنون من الأحكام . ولذا قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا ، وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى يرث كل شئ فيها ، ولا يبق لأحد مال . وإذا كان كذلك ، فما أجدد أن ينفق المرء فى حياته ، ويتخذ ذخراً يجده بعد مماته .

قال الشهاب : هذا من أبلغ ما يكون فى الحث على الإتفاق ، لأنه قرنه بالإيمان أولاً لما أمرهم به ، ثم وبجهم على ترك الإيمان ، مع سطوع براهينه، وعلى ترك الإتفاق فى سبيل من أعطاه لهم ، مع أنهم على شرف الموت، وعدم بقائه لهم إن لم ينفقوه . وسبيل الله كل خير يوصلهم إليه ، أعم من الجهاد وغيره . وقصر بعضهم إياه على الجهاد، لأنه فرد الأكل ، وجزؤه الأفضل ، من باب قصر العام على أهم أفرادها وأشملها ، لاسيما وسبب النزول كان لذلك .

« لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ » أى من قبل فتح مكة ، أو صلح الحديبية ، وقاتل لتعلو كلمة الحق . ومن أنفق من بعد وقاتل فى حال قوة الإسلام ، وعزة

أهله . فحذف الثانی لوضوح الدلالة عليه . فإن الاستواء لا يتم إلا بذكر شيئين . على أنه أشير إليه بقوله مستأنفاً عنهم ، زيادة في التنبؤ بهم : « أَوْ لَسِيكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْتَقَوْا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا » أى لعظم موقع نصرته الرسول ، صلوات الله عليه ، بالنفس ، وإتفاق المال في تلك الحال ، وفي المسلمين قلة ، وفي الكافرين شوكة وكثرة عدد . فكانت الحاجة إلى النصرة والمعاونة أشد ، بخلاف ما بعد الفتح ، فإن الإسلام صار في ذلك الوقت قوياً ، والكفر ضعيفاً . ويدل عليه قوله تعالى (١) « وَالسَّيْقُونِ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ » وقوله عليه الصلاة والسلام (٢) : لا تسبوا أصحابي ، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه . وهذه الآية دالة على فضل من سبق إلى الإسلام وأنفق وجاهد مع الرسول ﷺ - أفاده الرازي - .

وفي (الإكليل) : في الآية دليل على أن الصحابة مراتب ، وأن الفضل للسابق ، وعلى تنزيل الناس منازلهم ، وعلى أن أفضلية العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين ، لأن الأجر على قدر النصب . انتهى .

« وَكُلًّا » أى وكل واحد من الفريقين « وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى » أى المثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، لا الأولين فقط ، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء .

قال ابن كثير : وإنما نبه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر ، فيمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه .

« وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى من النفقة في سبيله ، وجهاد أعدائه ، وغير ذلك فيجازيكم على جميع ذلك .

قال ابن كثير : ولخبرته تعالى ، قاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك . وماذا لك إلا لعلمه بقصد الأول ، وإخلاصه التام ، وإتقافه في حال الجهد

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٢١ (طبعنا) .

عن أبي هريرة .

والقلة والضيقة . وفي الحديث ^(١) : سبق درهم مائة ألف . ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر رضى الله عنه ، له الحظّ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

« مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » قال أبو السعود : ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق فى سبيله ، بعد الأمر به ، والتوبيخ على تركه ، وبيان درجات المنفقين . أى : من ذا الذى ينفق ماله فى سبيله تعالى رجاء أن يعوضه ، فإنه كمن يقرضه . وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه ، وتحرى أكرم المال ، وأفضل الجهات له . فالقرض مجاز عن حسن إنفاقه مخلصاً فى أفضل جهات الإنفاق . وذلك إما بالتجوز فى الفعل ، فيكون استعارة تبعية تصرّحية ، أو فى مجموع الجملة ، فيكون استعارة تمثيلية . وقد زعم بعضهم أنها مقصورة على النفقة فى القتال ، وآخرون على نفقة العيال . قال ابن كثير : والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكلّ من أنفق فى سبيل الله بنية خالصة ، وعزيمة صادقة ، دخل فى عموم هذه الآية .

وهو جليّ ، وقد أسلفنا بيانه مراراً .

وقوله تعالى « فَيُضَاعِفُهُ لَهُ » أى يعطيه ثوابه أضعافاً مضاعفة ، « وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » أى جزاء شريف جميل . والجملة حالية ، أو معطوفة مشيرة إلى أن الأجر كما زاد كَمَهُ ، زاد كَيْفَهُ .

أخرجه النسائيّ فى : ٢٣ - كتاب الزكاة ، ٤٩ - باب جهد المقلّ ، عن أبي هريرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ » أى : لكونهم على الصراط المستقيم ، متوجهين إليه تعالى . و (النور) إما حقيقى حسى ، على ما روى عن ابن مسعود : أن نورهم على قدر أعمالهم ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، فدون ذلك . قيل : وإنما خصصت تلك الجهات ، لأن منها أخذت صحف الأعمال ، فجعل الله معها نوراً يعرف به أنهم من أصحاب اليمين وإما مجازى معنوى مراد به ما يكون سبباً للنجاة ، واختاره ابن جرير^(١) ، وأيده بقوله : لوعنى بذلك النور ، الضوء المعروف ، لم يخص عنه الخبر بالسعى بين الأيدي والأيمان ، دون الشامل ، لأن ضياء المؤمنين الذين يؤتونه فى الآخرة يضئ لهم جميع ماحولهم ، وفى تخصيص الخبر عن سعيه بين أيديهم وبأيمنهم ، دون الشامل ، ما يدل على أنه معنى به غير الضياء وإن كانوا لا يخلون من الضياء . فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا : وكلاً وعد الله الحسنى يوم ترون المؤمنين والمؤمنات يسعين ثواب إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم وفى أيمنهم كتب أعمالهم تطاير^٢ . ويعنى بقوله (يسعى) يعصى والباء فى قوله (وبأيمنهم) بمعنى (فى) وكان بعض نحوي البصرة يقول : الباء فى قوله (وبأيمنهم) بمعنى (على أيمنهم) وقوله « يوم ترى » من صلة (وعد) . انتهى .

« بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ » أى : يقول لهم من يتلقاهم من الملائكة : بشراكم أى :

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

المبشر به جنات أو بشرًا كم دخول جنات . وقد قيل : إن البشارة تكون بالأعيان فلا حاجة لتقدير مضاف تصحيحاً للحمل .

« تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ)

« يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » أى : نُسَبِّ منه . يقال : اقتبس ، أى : أخذ قبساً ، وهو الشعلة . و (انظرونا) بمعنى انظروا إلينا ، على الحذف والإيصال ، لأن الظر بمعنى مجرد الرؤية ، يتعدى : (إلى) فإن أريد التأمل تعدى : (فى) . وقولهم ذلك ، إما حينما يساق المؤمنون إلى الجنة زمراً ، والمنافقون فى العرصات شاخصون إليهم ، أو حينما يشرفون من الغرف على المنافقين ، وهم فى ضوضائهم وجلبتهم فى جهنم ، كقوله تعالى (١) « وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ... » الآية . وقيل : (انظرونا) بمعنى انتظرونا ، وهو الذى عول عليه ابن جرير (٢) . والمراد حينئذ من الانتظار للاقتباس ، هو رجاء شفاعتهم لهم ، أو دخولهم الجنة معهم طمعاً فى غير مطمع ، يقولون لهم ذلك حينما يسرع بهم إلى الجنة .

« قِيلَ » أى : قالت الملائكة أو المؤمنون ، « ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا » قال الزمخشري : طرد لهم ، وتهكم بهم . أى : ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور

(١) [٧ / الأعراف / ٥٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فالتمسوه هناك ، فمن ثم يقتبس . أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه ، وهو الإيمان . أو ارجعوا خائبين ، وتنجحوا عنا ، فالتمسوا نوراً آخر ، فلا سبيل لكم إلى هذا النور وقد علموا أن لا نور وراءهم ، وإنما هو تخيب وإقناط لهم . وكلامه يدل على حمل النور على حقيقته . ولا مانع من أنه كفى به عن الإيمان والعمل الصالح . أى : ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا إيماناً وعملاً طيباً يهديكم إلى النجاة ، كما أن النور يهdy في الظلمات ، على طريق الاستعارة . والأمر للتخسير والتنديم . وهذا ، مع ما ذكره الزمخشري رحمه الله ، وجه رابع .

ونقل الرازى عن أبي مسلم : أن المراد من قول المؤمنين (ارجعوا) منع المنافقين عن الاستضاءة . كقول الرجل لمن يريد القرب منه : وراءك أوسع لك . قال الرازى : فعلى هذا القول ، المقصود من قوله (ارجعوا) أن يقطعوا بأنه لا سبيل لهم إلى وجدان هذا المطلوب ، لأنه أمرهم بالرجوع . انتهى . وهذا وجه خامس .

ثم أشار إلى امتياز الفريقين فى المنازل وتباينهما فيها ، بقوله سبحانه : « فَضْرَبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ » أى : بين المؤمنين والمنافقين بحائط متين ، يحجزهم عن أنوار المؤمنين ، لقم ظلمتهم « لَهُ » أى : لذلك السور « بَابٌ » أى : لأهل الجنة يدخلون منه ، ويرى به المنافقون المؤمنين ليكلموهم « بَاطْنُهُ » وهو الجانب الذى يلى المؤمنين « فِيهِ الرَّحْمَةُ » يعنى : الجنة وما فيها من رضوان الله والنعيم المقيم . « وَظَهْرُهُ » وهو الذى يلى المنافقين ، « مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » أى : من عنده ، ومن جهته الظلمة والنار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ)

[١٥] (فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَاؤَلَكُمُ النَّارُ ، هِيَ مَوْلَاكُمْ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

«يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ» يريدون موافقتهم في الظاهر «قَالُوا بَلَىٰ وَ لَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ» أي محتتموها بالنفاق وأهلكتموها «وَتَرَبَّصْتُمْ» أي بالمؤمنين الدوائر، ليظهر الكفر فتظهروا ما في أنفسكم «وَأَرَبَّصْتُمْ» أي في توحيد الله ، ونبوة نبيه ، أوفي البعث بعد الموت ، أوفي قوله ^(١) (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) ووعده بنصر المؤمنين، أوفي جميع ذلك . «وَعَرَّيْتُمْ الْأُمَانِيَّ» أي طول الآمال ، والطمع في امتداد الأعمار. أوقولهم: (سيغفر لنا) . «حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ» يعني: الموت، أومصداق وعده بنصره رسوله، وإظهاره دينه ، أو عذاب النار «وَعَرَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ» أي الشيطان ، فأطعكم بالنجاة والفوز والغلبة . وقرئ (الغُرور) بالضم . «فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ» هذا من تنمة قول المؤمنين للمنافقين ، بعد أن ميز بينهم . أي فالיום لا يقبل منكم ما يفقدى به ، بدلاً من عذابكم ، وعوضاً من عقابكم «وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» يعني المجاهرين بالكفر من المحادين لله ورسوله «مَاؤَلَكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ» أي أولى بكم ، أو تتولاكم كما توليتم موجباتها في الدنيا «وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» أي النار .

ثم نعى عليهم رخاوة عقدهم فيما ندبوا إليه من التصديق في سبيل الله، بأن ذلك من أثر قلة العناية بالخضوع لذكره وتنزيله ، تعريضاً بالمنافقين ، وسوقاً للمؤمنين إلى الكمال ، فقال سبحانه :

(١) [٩ / التوبة / ٣٣] و [٤٨ / الفتح / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)

« أَلَمْ يَأْنِ » أى ألم يحن . من (أنى الأمر) يأنى ، إذا جاء إناءه ، أى وقته « لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ » أى أن تلين وترق وتخلص قلوبهم لذكر اسمه الكريم وما يوجهه من الوجبل منه والخشية ، أو لذكر وعده ووعيده . « وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » يعنى القرآن الذى لو أنزل على جبل لتصدع . قال أبو السعود : ومعنى الخشوع له ، الانقياد التام لأوامره ونواهيهِ ، والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام ، التى من جملتها ما سبق وما لحق من الإتفاق فى سبيل الله تعالى . وقد قيل : إن عطفه على الذكر عطف أحد الوصفين على الآخر ، وأن ذكر الله ككلام الله ، بمعنى القرآن . وكذا ما نزل من الحق ، فالعطف لتغاير العنوانين ، فإنه ذكر وموعظة ، كما أنه حق نازل . « وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ » أى الأجل والإمهال والاستدراج « فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » أى لزوال الخشية والروعة التى كانت تأتتهم من الكتابين « وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ » أى خارجون عن دينهم ، نابذون لما فى كتابهم .

تنبيه :

قال ابن كثير : فى الآية نهى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، فإنهم لما تطاول عليهم الأمد ، وبدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، وبندوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فقسّت قلوبهم ، وصار من سجيّتهم تحريف الكلام عن مواضعه . ولهذا نهى المؤمنون أن يتشبهوا بهم فى شئ من

الأمور الأصلية والفرعية . ونظير الآية قوله تعالى^(١) (فَمَا تَقْضِيهِمْ مِّمَّنْهُمْ ...) إلى آخرها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ يَتَنَبَّأُ لَكُمْ الْأَلَايَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

«أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» أى فهو يحييكم بعد مماتكم ومحاسبكم ، فلا منتدح لكم عن الجزاء . أى فاحذروا مغبة القسوة والفسق . «قَدْ يَتَنَبَّأُ لَكُمْ الْأَلَايَاتِ» أى الحجج وضروب الأمثال «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أى لتثوبوا إلى عقولكم ومراشدكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَعْفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[١٩] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

«إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ» أى المتصدقين والمتصدقات فى سبيل الله «وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَعْفُ لَهُمْ» أى المتصدقين والمتصدقات فى سبيل الله «وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَعْفُ لَهُمْ» أى المتصدقين والمتصدقات فى سبيل الله * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ» أى لتصدقهم بجميع أخبار الله وأحكامه ، وشهادتهم بحقيقة جميع ذلك . وقد جوز فى الشهداء وجهان :

(١) [٤ / النساء / ١٥٥] و [٥ / المائدة / ١٣] .

أحدهما - أن يكون معطوفاً على ما قبله ، أخبر عن الذين آمنوا أنهم صديقون شهداء ، وهو الظاهر ، لأن الأصل الوصل لا التفكيك .

والثاني - أن يكون مبتدأ ، خبره (لَهُمْ أَجْرُهُمْ) . و (الشُّهَدَاءُ) حينئذ إما الأنبياء الذين يشهدون على قومهم بالتبليغ أو الذين يشهدون للأنبياء على قومهم ، أو الذين قتلوا في سبيل الله . واختار الوجه الثاني ابن جرير^(١) ، قال : لأن الإيمان غير موجب في المتعارف للمؤمن اسم (شهيد) لا بمعنى غيره ، إلا أن يراد به شهيد على ما آمن به وصدقه ، فيكون ذلك وجهاً ، وإن كان فيه بعض البعد ، لأن ذلك ليس بالمعروف من معانيه إذا أطلق بغير وصل^(٢) فتأويل قوله (وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ) إذن ، والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ، أو هللكوا في سبيله ، عند ربهم ، لهم ثواب الله في الآخرة ونورهم . انتهى .

ثم رأيت لابن القيم في (طريق الهجرتين) بسطاً لهذه الوجهين في بحث الصديقية . ننقله لففاسته . قال رحمه الله في مراتب المكلفين في الآخرة وطبقاتهم :

الطبقة الرابعة - ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم ، وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ، ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم . وهذه أفضل مراتب الخلق ، بعد الرسالة والنبوة ، وهي مرتبة الصديقية . ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء ، فقال تعالى^(٣) (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا) . فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة . وهؤلاء هم الربانيون ، وهم الراسخون في العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأمته . فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وجملة دينه . وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على

انظر الصفحة رقم ٢٣١ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) قوله : بغير وصل ، أي كقوله : (شهداء على الناس) .

(٣) [٤ / النساء / ٦٩] .

الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . وقال تعالى ^(١) (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) قيل : إن الوقف على قوله (هُمُ الصَّادِقُونَ) ثم يبتدئ (وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ) فيكون الكلام جملة ، أخبر في إحداها عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون ، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل ، والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه . وأخبر في الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين ، هنا ، وفي سورة النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء في كلام النبي ^(٢) في قوله : (اثبت أحدُ فإنما عليك نبئٌ و صديق وشهيد) ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق . ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له رضى الله عنه .

وقيل : إن الكلام جملة واحدة ، أخبر عن المؤمنين أنهم هم الصديقون والشهداء عند ربهم . وعلى هذا ، فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة ، وهى قوله ^(٣) : (لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) وهم المؤمنون ، فوصفهم بأنهم صديقون في الدنيا ، وشهداء على الناس يوم القيامة ، ويكون الشهداء وصفاً لجملة (المؤمنين الصديقين) .

وقيل : الشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله . وعلى هذا القول يرجح أن يكون الكلام جملة ، ويكون قوله (وَالشَّهَدَاءُ) مبتدأ خبره ما بعده ، لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً في سبيل الله . ويرجح أيضاً أنه لو كان (الشهداء) داخلاً في جملة الخبر ، لكان قوله (لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) داخلاً أيضاً في جملة الخبر عنهم ، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء :

(١) [٥٧ / الحديد / ١٩] .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٥ - باب قول النبي ﷺ : لو كنت متخذاً خليلاً ، حديث ١٧٢٨ ، عن أنس .

(٣) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

أحدها - أنهم هم الصديقون .

والثاني - أنهم هم الشهداء .

والثالث - أن لهم أجرهم ونورهم .

وذلك يتضمن عطف الخبر الثاني على الأول ، ثم ذكر الخبر الثالث مجرداً عن العطف . وهذا كما تقول : زيد كريم وعالم له مال . والأحسن في هذا تناسب الأخبار ، بأن تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعاً ، فتقول . زيد كريم عالم له مال ؛ أو كريم وعالم وله مال ، فتأمل ! ويرجح أيضاً أن الكلام يصير جملاً مستقلة قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء ، وهم الصديقون والشهداء والصالحون ، وهم المذكورون في الآية ، وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً . فهؤلاء ثلاثة أصناف . ثم ذكر الرسل في قوله تعالى ^(١) (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بَاطِلَ بَيِّنَاتٍ) فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة في سورة النساء فهؤلاء هم السعداء ، ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان : كفار ومنافقون ، فقال ^(٢) (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا ..) الآية . وذكر المنافقين في قوله ^(٣) (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ) الآية فهؤلاء أصناف العالم كلهم . وترك سبحانه ذكر الخلط صاحب الشائبتين ، على طريق القرآن في ذكر السعداء والأشقياء ، دون الخلطين غالباً ، لسر اقتضاه حكمته . فليحذر صاحب التخليط ، فإنه لاضمان له على الله ، فلا هو من أهل وعده المطلق ، ولا يئأس من روح الله ، فإنه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالمذاب ، ولكنه بين الجنة والنار ، واقف بين الوعد والوعيد ، كل منهما يدعو إلى موجهه لأنه أتى بسببه . وهذا هو الذي لحظه القائلون بالنزلة بين المنزلتين ، ولكن غلطوا في تخليده في النار ، ولو نزله بين المنزلتين ، ووكلاه إلى المشيئة لأصابوا . انتهى كلام ابن القيم ، وفيه موافقة لما اختاره ابن جرير في الآية .

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] . (٢) [٥٧ / الحديد / ١٩] .

(٣) [٥٧ / الحديد / ١٣] .

ولما ذكر تعالى السعداء وما لهم ، عطف بذكر الأشقياء ، وبين حالهم بقوله : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» .

ثم حقر تعالى أمر الدنيا ، وبين حاصل أمرها عند أهلها ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ يَنبَنُكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

«أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ» أى تفريح نفس «وَلَهُمْ» أى باطل «زِينَةٌ» أى منظر حسن «وَتَفَاخُرٌ يَنبَنُكُمْ» أى فى الحسب والنسب «وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ» أى مطر «أَعْجَبَ الْكُفَّارَ» أى الزراع «نَبَاتُهُ وَثُمَّ يَهِيجُ» أى يجف بعد خضرته ونضرتة «فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا» أى من اليبس «ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا» أى هشيأ متكسراً ، وكذلك الدنيا لا تبقى كما لا يبقى النبات «وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ» أى لمن ترك طاعة الله ، ومنع حق الله «وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ» أى فى الآخرة لمن أطاع الله ، وأدى حق الله من ماله . «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» قال المهايى : يأخذ صاحبها ملاعب الدنيا بدل ملاعب الحور العين . ولهوها بملاد الجنة . وزينتها بزينة الجنة . والتفاخر بدل التفاخر بجوار الله والقرب ، والتكاثر بالأموال والأولاد بدل نعم الله والولدان المخلدين فى الجنة .

ولما حقر الحياة الحسية النفسية الفانية ، وصورها فى صورة الخضراء السريعة الانقضاء ، دعاهم إلى الحياة الباقية ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ » أى بادروا بالتوبة من ذنوبكم ، إلى نيل مغفرة وتجاوز عن خطيئاتكم من ربكم « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » أى الإيمان اليقيني . « ذَلِكَ » أى المغفرة والجنة « فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ » أى ممن كان أهلاً له « وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » قال ابن جرير (١) أى بما بسط خلقه من الرزق فى الدنيا ، وهب لهم من النعم ، وعرفهم موضع الشكر ، ثم جزاهم فى الآخرة على الطاعة ، ما وصف أنه أعدّه لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَن نَّبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[٢٣] (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[٢٤] (الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

« مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ » أى من قحط وجذب ووباء وغلاء « وَلَا فِي

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أَنْتَفِسِكُمْ « أى من خوف ومرض وموت أهل وولد ، وذهاب مال » إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ
 أَنْ نَبْرَأَهُآ « أى إلا فى علم أزلّى من قبل خلق المصيبة أو الأنفس . وما علم الله كونه فلا بد
 من حصوله » إِنْ ذَلِكَ « أى حفظه وتقديره على الأنفس المبروءة ما قدر ، « عَلَى اللَّهِ
 يَسِيرٌ » أى لسهمة علمه وإحاطته » لِكَيْلَا تَأْسَوْا « أى تحزنوا « عَلَى مَا فَاتَكُمْ » أى
 من عافية ورزق ونحوها « وَلَا تَفْرَحُوا » أى تبطروا « بِمَا آتَاكُمْ » أى من نعم الدنيا .
 والمعنى : أعلمناكم بأننا قد فرغنا من التقدير ، فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا
 تغيير ، فلا الحزن يدفعه ، ولا السرور يجلبه ويجمعه . قال القاشانى : أى لتعلموا علماً يقينياً
 أن ليس لكسبكم وحفظكم وحذركم وحراستكم فيما آتاكم ، مدخل وتأثير . ولا لعجزكم
 وإهلاككم وغفلتكم وقلة حيلتكم ، وعدم احترازكم واحتفاظكم فيما فاتكم مدخل . فلا
 تحزنوا على فوات خير ، ونزول شر ، ولا تفرحوا بوصول خير . وزوال شر ، إذ كلها مقدرة
 « وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ » أى متبختر من شدة الفرح بما آتاه « فَخُورٍ » أى به على
 الناس ، لعدم يقينه ، وبمده عن الحق ، بحب الدنيا ، واحتجابه بالظلمات عن النور « الَّذِينَ
 يَبْخُلُونَ » أى بالإتفاق فى سبيل الله ، لشدة محبة المال « وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ » أى
 لاستيلاء الرذيلة عليهم . والموصول إما مبتدأ وخبره محذوف ، أى لهم وعيد شديد ، أو خبر
 ومبتدؤه محذوف ، أى هم الذين ، أو بدل من (كل) . « وَمَنْ يَقُولْ » أى يمرض عن ذكر الله ،
 وما أمر به « فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ » أى عنه ، لاستغنائاه بذاته « الْحَمِيدُ » أى لاستقلاله
 بكمال . وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإتفاق لمصلحة المنفق ، لا لما يعود عليه تعالى ، فإنه
 الغنى المطلق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ» أى بالحجج والبراهين القاطعة على صحة ما يدعون إليه «وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ» أى التام فى الحكم والأحكام «وَالْمِيزَانَ» أى العدل - قاله مجاهد وقتادة وغيرهما - قال ابن كثير : وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة ، المخالفة للآراء السقيمة «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» أى بالحق والعدل ، وهو اتباع الرسل فيما أمروا به ، وتصديقهم فيما أخبروا عنه . فإن الذى جاءوا به هو الحق الذى ليس وراءه حق ، كما قال ^(١) (وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) أى صدقاً فى الأخبار ، وعدلاً فى الأوامر والنواهي ، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوأوا غرف الجنات ^(٢) (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» يعنى القتال به ، فإن آلات الحروب متخذة منه «وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ» أى فى مصالحهم ومعايشهم ، فإى صناعة إلا وللحديد يد فيها .

فإن قيل : لجل المتعاطفة لابد فيها من المناسبة ، وأين هى فى إنزال الحديد مع ما قبله ؟ فالجواب : أن بينهما مناسبة تامة ، لأن المقصود ذكر ما يتم به انتظام أمور العالم فى الدنيا ، حتى ينالوا السعادة فى الآخرة . ومن هده الله من الخواص العقلاء ينتظم حاله فى الدارين بالكتب والشرائع المطهرة . ومن أطاعهم وقلدهم من العامة بإجراء قوانين الشرع العادلة بينهم . ومن تمرد وطغا وقسا يضرب بالحديد ، الراد لكل مريد . وإلى الأولين أشار بقوله ^(٣)

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] . (٢) [٧ / الأعراف / ٤٣] .

(٣) [٥٧ / الحديد / ٢٥] .

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) فجمعهم وأتباعهم في جملة واحدة . وإلى الثالث أشار بقوله ^(١) (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ) فكأنه قال : أنزلنا ما يهتدى به الخواص ، وما يهتدى به أتباعهم ، وما يهتدى به من لم يتبعهم ، فهي حينئذ معطوفة ، لامعترضة لتقوية الكلام كما توهم ، إذ لا داعي له ، وليس في الكلام ما يقتضيه ، بل فيه ما ينافيه .

قال العتيبي في أول (تاريخه) : كان يخلج في صدرى أن في الجمع بين الكتاب والميزان والحديد تنافراً ، وسألت عنه فلم أحصل على ما يريح العلة وينفع الغلة ، حتى أعملت التفكير ، فوجدت (الكتاب) قانون الشريعة ، ودستور الأحكام الدينية ، يتضمن جوامع الأحكام والحدود ، وقد حظر فيه التعادى والتظالم ، ودفع التباغى والتخاصم ، وأمر بالتناصف والتعادل ، ولم يكن يتم إلا بهذه الآلة ، فلذا جمع (الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) وإنما تحفظه العامة على اتباعها بالسيف ، وجذوة عقابه ، وعذب عذابه ، وهو (الحديد) الذى وصفه الله بالبأس الشديد . فجمع بالقول الوجيز ، معانى كثيرة الشعوب ، متدانية الجنوب ، محكمة المطالع ، مقومة المبادئ والمقاطع - نقله الشهاب - .

وأول القاشانى (البيانات) بالمعارف والحكم ، و (الكتاب) بالكتابة ، و (الميزان) بالعدل ، لأنه آله ، و (الحديد) بالسيف ، لأنه مادته . قال : وهى الأمور التى بها يتم الكمال النوعى ، وينضبط النظام الكلى ، المؤدى إلى صلاح المعاش والمعاد ، إذ الأصل المعتبر والمبدأ الأول ، هو العلم والحكمة . والأصل المعول عليه فى العمل ، والاستقامة فى طريق الكمال ، هو العدل . ثم لا ينضبط النظام ، ولا يتمشى صلاح الكل إلا بالسيف والقلم اللذين يتم بهما أمر السياسة . فالأربعة هى أركان كمال النوع ، وصلاح الجمهور . ويجوز أن تكون (البيانات) إشارة إلى المعارف والحقائق النظرية و (الكتاب) إشارة إلى الشريعة والحكم العملية و (الميزان) إلى العمل بالعدل والسوية و (الحديد) إلى القهر ودفع شرور

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] .

البرية . وقيل : (البينات) العلوم الحقيقية ، والثلاثة الباقية هي النواميس الثلاثة المشهورة المذكورة في الكتب الحكيمة . أى الشرع ، والدينار المعدل للأشياء في المعاضات ، والملك . وأياً ما كان فهي الأمور المتضمنة للكمال الشخصى والنوعى في الدارين ، إذ لا يحصل كمال الشخص إلا بالعلم والعمل ، ولا كمال النوع إلا بالسيف والقلم . أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلأن الإنسان مدنى بالطبع ، محتاج إلى التعامل والتعاون ، لا تمكن معيشته إلا بالاجتماع . والنفوس إما خيرة أحرار بالطبع ، منقادة للشرع ، وإما شريرة عبيد بالطبع آبية للشرع . فالأولى يكفيتها في السلوك طريق الكمال والعمل بالعدل واللفظ وسياسة الشرع . والثانية لا بد لها من القهر وسياسة الملك . انتهى .

تنبيه :

لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة في معنى نزول القرآن ولفظ النزول ، حيث ذكر في كتاب الله تعالى ، بين فيها أن كثيراً من الناس فسروا النزول في مواضع من القرآن بغير ما هو معناه المعروف ، لاشتباه المعنى في تلك المواضع . وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع . وحقق رحمه الله أن ليس في القرآن ولا في السنة لفظ (نزول) إلا فيه معنى النزول المعروف . قال : وهو اللائق بالقرآن ، فإنه نزل بلغة العرب ، ولا تعرف العرب منزولاً إلا بهذا المعنى . ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لفظها . ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى ، في معنى آخر بلا بيان ، وهذا لا يجوز بما ذكرنا . قال : وقد ذكر سبحانه إنزال الحديد ، والحديد يخلق في المعادن . وما يذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ أن آدم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان والكلبتان والميعة والمطرقة والإبرة - فهو كذب لا يثبت مثله . وكذلك الحديث الذى رواه الثعلبى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ ؛ أن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض ، فأنزل الحديد والماء والنار والملح - حديث موضوع مكذوب والناس يشهدون أن هذه الأمة تصنع من حديد المعادن ما يريدون .

فإن قيل : إن آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات ، فهذه مكابرة للبيان .
وإن قيل : بل نزل معه آلة واحدة ، وتلك لا تعرف ، فأى فائدة في هذا لسائر الناس ؟
ثم ما يصنع بهذه الآلات إذا لم يكن ثم حديد موجود بطرق بهذه الآلات ؟ وإذا خلق الله
الحديد صنعت منه هذه الآلات .

ثم أخبر أنه أنزل الحديد ، فكان المقصود الأكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد
منه ، الذى به ينصر الله ورسوله ﷺ . وهذا لم ينزل من السماء .

فإن قيل : نزلت الآلة التى يطبع بها . قيل : فالله أخبر أنه أنزل الحديد لهذه المعانى المتقدمة ،
والآلة وحدها لا تكفى ، بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد .

ثم قال : وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق ، لأنه أخرجهم من المعادن ، وعلمهم
صنعتهم ، فإن الحديد إنما يخلق فى المعادن ، والمعادن إنما تكون فى الجبال . فالحديد ينزله الله
من معادنه التى فى الجبال ، لينتفع به بنو آدم . انتهى كلامه رحمه الله .

وقوله تعالى « وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ » أى باستعمال الحديد فى
مجاهدة أعدائه . عطف على محذوف دل عليه ما قبله . أى لينتفعوا به ويستعملوه فى الجهاد ،
وليعلم الله . . . الخ . وحذف المعطوف عليه إيماء إلى أنه مقدمة لما ذكر ، وهذا المقصود منه .
أو اللام متعلقة بمحذوف . أى أنزله ليعلم . . . الخ والجملة معطوفة على ما قبلها . فحذف المعطوف ،
وأقيم متعلقه مقامه . وقيل عطف على (لَيَقُومَنَّ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) . قال الشهاب : وهو قريب
بحسب اللفظ ، بعيد بحسب المعنى .

« إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ » أى على إهلاك من أراد إهلاكه « عَزِيزٌ » أى غالب قاهر
لمن شاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ،
فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

[٢٧] (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ
الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَئِيلَ أَتَدْعُوهَا
مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ،
فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ » أى
من الذرية « مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » أى خارجون عن طاعته ، بترك نصوص كتبه
وتحريفها ، وإيثار آراء الأخبار والرهبان عليها ، واحترام ما نهوا عنه « ثُمَّ قَفَّيْنَا » أى أتبعنا
« عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ
الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً » أى حناناً ورقةً على الخلق ، لكثرة ما وصى به عيسى عليه
السلام ، من الشفقة وهضم النفس والمحبة . وكان في عهده أمتان عظيمتا القسوة والشدة :
اليهود والرومان . وهؤلاء أشد قسوة ، وأعظم بطشاً ، لاسيما في العقوبات . فقد كان لهم أفانين
في تعذيب النوع البشرى بها . ومنها تسليط الوحوش المفترسة عليه ، وتريتها لذلك ،
مما جاءت البعثة المسيحية على أثرها ، وجاهدت في مطاردتها ، وصبرت على منازلها ، حتى
ظهرت عليها بتأييده تعالى ونصره - كما بينه آخر سورة الصف - . « وَرَهَابَئِيلَ أَتَدْعُوهَا
مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » أى ما فرضناها عليهم ، وإنما هم التزموها من عند أنفسهم . « إِلَّا
ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ » استثناء منقطع . أى ولكنهم ابتدعوها طلب مرضاة الله عنهم .
« فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » أى ما قاموا بما التزموه منها حق القيام من التزهد ، والتخلل

للعباد ءعلم الڪتاب؁ بل آخذوها آله للترؤس والسؤدد؁ وإخضاع الشعب لأهوائهم .
« قَاتِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ » يعنى الذين آمنوا بالإيمان الخالص عن شوائب الشرك
والابتداع . ومنه الإيمان بمحمد صلوات الله عليه؁ البشر به عندهم . « وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ
فَسِقُونَ » أى خارجون عن مواجب الإيمان ومقاصده .

تنبيهات

الأول - (الرهبانية) هى المبالغة فى العباد ء والرياضة؁ والانتقطاع عن الناس؁ وإيثار
العزلة والتبتل . وأصلها الفعل ءة المنسوبة إلى الرهبان؁ وهو الخائف . (فعلان) من رهب؁
كـ (خشيان) من خشى .

الثانى - قال ابن كثير فى قوله تعالى : (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) : ذمُّ لهم من وجهين :
أحدها - فى الابتداع فى دين الله مالم يأمر به الله .

والثانى - فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة يقربهم إلى الله عز وجل .

الثالث - رأيت فى كثير من مؤلفات علماء المسيحيين المتأخرين ذم بدعة (الرهبنة)
وما كان لتأثيرها فى النفوس والأخلاق من المفسد والأضرار . فقد قال صاحب (ريحانة النفوس)
منهم؁ فى الباب السابع عشر؁ فى الرهبنة :

إن الرهبنة قد نشأت من التوهم بأن الانفراد عن معاشرة الناس؁ واستعمال التقشفات
والتأملات الدينية؁ هى ذات شأن عظيم . ولكن لا يوجد سند لهذا الوهم فى الكتب المقدسة
لأن مثال المسيح؁ ومثال رسله يضادانه باستقامة؁ فإنهم لم يمتثلوا عن الاختلاط بالناس؁
لكى يعيشوا بالانفراد؁ بل إنما كانوا دائماً مختلطين بالعالم؁ يعلمون وينصحون . ونحن نقول
بكل جراءة : إنه لا يوجد فى جميع الكتب المقدس مثال للرهبنة؁ ولا يوجد أمر من أوامره
يلزم بها . بل بالعكس؁ فإن روح الكتاب وفخواه يضاد كل دعوى مبنية على العيشة المفردة
المقرونة بالتقشفات . ولكن مع أن الكتاب المقدس لا يمدح العيشة الانفرادية؁ فقد

ظهر الميل الشديد إليها في الكنيسة ، في أواخر الجيل الثاني وأوائل الجيل الثالث . وأيد بعض الباحثين المقاومين لها وقتئذ ، أنها عادة سرت للمسيحيين من الهنود الوثنيين السمانين . فإن لهم أنواعا كثيرة من عبادات تأمر كهنتها بالبتولية والامتناع عن أكل اللحم وأمورا أخرى مقرونة بمخرافات .

ثم قال : ومع أن الرهبنة حصل عليها مقاومة من العقلاء ، امتدت وانتشرت في المسكونة . وكان ابتداءؤها في مصر في الجيل الرابع ، على أثر اشتهاه أحد الرهبان وممارسته التقشفات ، بسبب الاضطهاد الذي أصابه ، وآثر لأجله الطواف في البراري ، فراراً من أيادي مضطهديه . ثم عكف على الوحدة ، وعاش بها ، وذلك في الجيل الثالث . ثم امتدت من مصر إلى فلسطين وسورية إلى أكثر الجهات . توها بأن رسم المسيحية الكاملة لا يوجد إلا في العيشة الضيقة القسفة ، فدعا ذلك كثيرين إلى ترك العيشة المألوفة بالاعتزال في الأديرة . مع أن ذلك الوهم باطل ، ومضاد للكتب المقدسة . ولما أكثر عدد الرهبان كثرة هائلة ، ونجم عن حالهم أضرار عظيمة للمجتمع ، أصدر كثير من الملوك أوامر بمنع هذه العادة ، إلا أنها لم تنجح كثيراً .

وأما بدعة العزوبة والتبتل ، فنشأت من حَصّ بولس عليها ، وترغيبهم فيها ، كما أفصح عنه كلامه في آخر الفصل السابع من رسالته الأولى .

وقد قال صاحب (ربحانة النفوس) أيضاً : إن هذه العادة لا يوجد لها برهان في الكتاب المقدس . وإنما دخلت بالتدريج ، لما خامرهم من توهم أفضلية البتولية ، وظنهم أنها أزكى من الزواج ، ومدح من جاء على أثرهم لها مدحاً بالغاً النهاية في الإطراء ، فحسبوا من الواجبات الأدبية الأمور بها ، ووضع نظام وقوانين لوجوبها في الجيل الثالث ، حتى قاومتها كنائس أخرى ، ورفضت بدعة البتولية وقوانينها ، لمغايرتها للطبيعة ، ومضادتها لنص الكتب الإلهية ، واستقرائها أديرة الراهبات ، بأنها في بعض الأماكن كانت بيوتاً للفواحش والفساد .

وفى كتاب (البراهين الإنجيلية ضد الأباطيل البابوية) إن ذم الزيجة خطأ لأنها عمل الأفضل ، لأن الرسول أخبر بأن الزواج خير من التوقد بنار الشهوة ، وإن الأكثرين من رسل المسيح كانوا ذوى نساء ، تجول معهم . ومن المعلوم أن الطبيعة البشرية تغصب الإنسان على استيفاء حقها ، ومن العدل أن تستوفيه ، وليس بمحرم عليها استيفاءه حسب الشريعة ، ولا استطاعة لجميع البشر على حفظ البتولية . ولذلك نرى كثيرين من الأساقفة والقسوس والشمامسة ، لابل من الباباوات المدعين بالعصمة ، قد تكرر دسوا في هوة الزنا ، لعدم تحصنهم بالزواج الشرعى . هذا وإن ذات النذر بالامتناع عن الزواج هو غير عادل ، لتضمنه سلب حقوق الطبيعة ، وكونه يضع الإنسان تحت خطر السقوط في الزنا ، ويفتح باباً واسعاً لدخول الشيطان . وكأن الراهب يندر على نفسه مقاومة أمر الله ، ويعدم وجود ألوف ألوف ، ربما كانت تتولد من ذريته ، فكأنه قد قتلها . وهذا النذر لم تأمر به الشريعة الإنجيلية قط . فالطريقة الرهبانية هى اختراع شيطاني قبيح ، لم يكن له رسم في الكتب المقدسة ، ولا في أجيال الكنيسة الأولى ، وهو مضر على أنفس الرهبان ، وعلى الشعب ، فن يقاومه يقاوم الشيطان . وهؤلاء الرهبان لا تنفع منهم للرعية ، إنما هم كالأمراء الذين يتخذون لأنفسهم قصوراً خارج العمران ، فيتنعمون وحدهم في أديرتهم ، ويسلبون أموال الشعب بالحيل والمخادعات وهم كسالى بطلون ، يعيشون من أنعاب غيرهم ، خلافاً لسلوك رسل المسيح ، والمبشرين القدماء ، الذين لم نر واحداً منهم انفرّد عن العالم في مكان نزهته ، واحتال بأن يعيش من أنعاب الشعب . إن بولس كان يخدم الكنائس ، ويعيش من شغل يديه ، وهو يوصى بأن الذى لا يعمل ، فلا يطعم . ولا تتسع الصحف لشرح جميع الأضرار التى وقعت على العالم بسبب الرهبنات . انتهى ، وهو حجة عليهم ، منهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۲۸] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ» قال ابن كثير: حمل ابن عباس هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما في الآية التي في (الفصص) وكما في حديث^(١) الشعبي عن أبي بردة، عن أبيه أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، فله أجران. وعبد مملوك أدى حق الله وحق مولاه، فله أجران. ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران - أخرجاه في الصحيحين - ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك وعتبة بن أبي حكيم وغيرهما. وهو اختيار ابن جرير^(٢).

وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى هذه الآية في حق هذه الأمة. والظاهر أن لفظها أعم، وأن المقصود بها حث كل من آمن بالنبي ﷺ على الثبات في الإيمان والرسوخ فيه، والانصياع لأوامره. ومنه ما حرض عليه في الآيات قبلها من الاتفاق في سبيله، وسخاوة النفس فيه. وأن لهم في مقابلة ذلك أجرًا وافرًا، كما قال في أول السورة: (فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) فآخر السورة، فيه رجوع لأوائلها بتذكير ما أمرت به، وماسبق نزولها لأجله.

(١) أخرجه البخاري في: ٣ - كتاب العلم، ٣١ - باب تعليم الرجل أمته وأهله،

حديث رقم ٨٢.

وأخرجه مسلم في: ١ - كتاب الإيمان، حديث ٢٤١ (طبعنا).

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية).

وأصل (الكفل) الحظ . وأصله ما يكتفل به الراكب فيجبسه ويحفظه عن السقوط .
والثنية في مثله إما على حقيقتها ، أو هي كناية عن المضاعفة . و (النور) هو ما يبصر
من عمى الجهالة والضلالة ، ويكشف الحق لقاصده ، كما قال سبحانه ^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (لَيْسَ لَكَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْقَهُوا عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ
وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« لَيْسَ لَكَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْقَهُوا عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ
بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » متعلق بمضمون الجملة الطلبية
المتضمنة لمعنى الشرط . والتقدير : إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم ما ذكر ، ليعلم
أهل الكتاب الذين لم يسلموا عدم قدرتهم على شيء من فضل الله ، وثبوت أن الفضل
بيد الله . والمراد بالفضل ما آتاه المسلمين وخصهم به . لأنهم كانوا يرون أن الله فضلهم
على جميع الخلق ، فأعلمهم الله جل ثناؤه أنه قد آتى أمة محمد ﷺ من الفضل والكرامة
ما لم يؤتهم ، ليعلموا أنهم لا يقدرُونَ على شيء من فضل الله ، فضلاً عن أن يتصرفوا
في أعظمه ، وهو النبوة ، فيخصوا بها من أرادوا ، وأن الفضل بيد الله دونهم ، ودون
غيرهم من الخلق ، يؤتيه من يشاء من عباده .

و (لا) في (لئلا) صلة . قال السمين : وهو حرف شاعت زيادته .

(١) [٨ / الأقال / ٢٩] .

وقال ابن جرير^(١) : وذكر أن في قراءة عبد الله (لكي يعلم) . قال : لأن العرب تجعل (لا) صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح كقوله في الجحد السابق الذي لم يصرح به^(٢) : (مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ) وقوله^(٣) : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) . وقوله^(٤) : (وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ...) الآية . ومعنى ذلك : أهلكناها أنهم يرجعون . انتهى .

ونقل الثعالبي في (فقه اللغة) زيادتها في عدة شواهد . في فصل الزوائد والصلات التي هي من سنن العرب . فانظره ، تردد علماً .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٤٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٢] . (٣) [٦ / الأنعام / ١٠٩] .

(٤) [٢١ / الأنبياء / ٩٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٨ - سورة المجادلة

سميت بها ، لأنها لما كانت لطلب الحق والصواب ، أشبهت مجادلة الأنبياء والقرآن ،
ولذلك سمع الله لصاحبها - قاله المهايى - .
وهى مدنية ، وآيها اثنتان وعشرون .

يَسْمِعُ اللَّهُ الْحَمْدَ الْخَيْرَ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كُمَا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

«قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» روى الإمام أحمد^(١) عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تسكلمه ، وأنا فى ناحية البيت ، ما سمع ما تقول ! فأنزل الله عز وجل (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ...) إلى آخر الآية . ورواه البخارى معلقاً . وفى رواية لابن أبى حاتم عن عائشة أنها قالت : تبارك الذى أوعى سمعه كل شيء . إني أسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول : يا رسول الله ! أكل شبابى ، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى ! اللهم إني أشكو إليك . قالت : فما برحت ، حتى نزل جبريل بهذه الآية (قَدْ سَمِعَ ...) الخ . قال ابن كثير : ويقال فيها : خولة بنت مالك بن ثعلبة ، وقد تصغر فيقال (خويلة) . ولا منافاة بين هذه الأقوال ، فالأمر فيها قريب .

وفى (العناية) . المراد من قوله (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ) الخ قَبِلَ قولها وأجابه . كما فى : سمع الله لمن حمده ، مجازاً بمعلقة السببية أو كناية . انتهى .
وقوله : (وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ) أى تشتكى المجادلة مالدورها من الهم ، بظهار زوجها منها ، إلى الله ، وتسأله الفرج .

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٤٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

ومعنى (تَحَاوَرَكُمْ) ترجيعكم الكلام فى هذه النازلة . وذلك أن الظهار كان طلاق الرجل امرأته فى الجاهلية ، فإذا تسكلم به لم يرجع إلى امرأته أبداً . وقد طمعت المشتكية أن يكون غير قاطع علاقة النكاح ، والنبي ﷺ لم يبت لها فيه الأمر ، حتى ينزل الوحي الذى يرد التنازع إليه . ثم أنزل تعالى فيه قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ، إِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ)

« الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ » يعنى قول الرجل لامرأته إذا غضب عليها : أنت على كظهر أى ، يعنى : فى حرمة الركوب . « مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ » أى مانساؤهم اللاتي ظاهروا منهن بأمهاتهم . أى يصرن بهذا القول كأمهاتهم فى التحريم الأبدى . قال المهايى : ماهن أمهاتهم بالحقيقة ، ولا فى حكمهن بالمجاز ، إذ لا يقتضى المجاز أن يكون فى حكم الحقيقة ، إلا بقلب الحقائق ، لكنها لا تنقلب .

« إِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ » أى فلا يشبه بهن فى الحرمة الأزواج « وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ » أى قولاً تنكره العقلاء ، وتتجافاه الكرماء . « وَزُورًا » أى باطلاً لاحقيقة له ، لأنه يتضمن إلحاقها بالآم النافى لمقتضى الزوجية . « وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ » أى لذنوب عباده ، إذا تابوا منها وآنابوا ، فلا يعاقبهم عليها بعد التوبة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسَّ ، ذَلِكَ كُمْ تَوْعَظُونَ بِهِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)
[٤] (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ، فَمَنْ لَمْ
يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ، ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ،
وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » أى يرجعون إلى لفظ
الظهار ثانية ، فالقول على حقيقته ، أو يعزمون على غشيانهن ووطئن رغبة في تحليلهن ،
بعد تحريمهن ، فالقول بمعنى المقول فيه « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ كُمْ تَوْعَظُونَ
بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ
حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » روى الإمام أحمد^(١) عن يوسف بن عبد الله بن سلام
عن خويلة بنت ثعلبة قالت : فى والله! وفى أوس بن صامت أنزل الله صدر سورة المجادلة قالت :
كنت عنده ، وكان شيخاً كبيراً ، قد ساء خلقه وضجر . فدخل على يوماً فراجعت به شىء ،
فغضب فقال : أنت على كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ثم دخل
على ، فإذا هو يريدنى على نفسى . قالت : قلت : والذى نفس خويلة بيده ! لا تخلص إلى
وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكم . قالت : فوائبنى ، فامتعت منه ، فقلبت
بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فالقيته عنى . قالت : ثم خرجت إلى بعض جارأتى ،

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٤١٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

فاستعرت منها ثيابها ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ ، فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : يا خويلة ! ابن عمك شيوخ كبير ، فاتق الله فيه . قالت : فوالله ! ما برحت حتى نزل في القرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سرى عنه ، فقال لي : يا خويلة ! قد أنزل الله فيك وفي صاحبك . ثم قرأ علي : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ..) إلى قوله تعالى : (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قالت : فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرهه فليعتق رقبة . قالت : فقلت : يا رسول الله ! ما عنده ما يعتق ! قال : فليصم شهرين متتابعين . قالت : فقلت : والله ! إنه لشيوخ كبير ، ما به من صيام . قال : فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر . قالت : فقلت : والله ! يا رسول الله ما ذاك عنده . قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإننا سنعمينه بفرق من تمر . قالت : فقلت : يا رسول الله ! وأنا سأعمينه بفرق آخر . قال : قد أصبت وأحسن ، فاذهي فتصدق به عنه ، ثم استوصي بآبن عمك خيراً . قالت : ففعلت . ورواه أبو داود : وعنده (خولة بنت ثعلبة) ، ولا منافاة كما تقدم ، فإن العرب كثيراً ما تصغر الأعلام .

وروى ابن جرير^(١) عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قل لامرأته في الجاهلية : أنت عليّ كظهر أمي ، حرمت في الإسلام . فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس ، وكانت تحتها ابنة عم له يقال لها خويلة بنت ثعلبة ، فظاهر منها ، فأسقط في يديه ، وقال : ما أراك إلا قد حرمت عليّ ، وقالت له مثل ذلك . قال : فأنطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتت رسول الله ﷺ ، فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه ، فأخبرته فقال : يا خويلة ! ما أمرنا في أمرك بشيء . فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : يا خويلة ! أبشري . قالت خيراً . قال فقرأ عليها (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ...) إلى قوله : (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا) . قالت :

(١) انظر الصفحة رقم ٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وَأَيَّ رَقَبَةٍ لَنَا؟ وَاللَّهِ! مَا نَجِدُ رَقَبَةً غَيْرِي! قَالَ: (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ) قالت: وَاللَّهِ! لَوْلَا أَنَّهُ يَشْرَبُ فِي الْيَوْمِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَذَهَبَ بِصَرِهِ. قَالَ: (فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَأَطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا). قالت: مَنْ أَيْنَ؟ مَا هِيَ إِلَّا أَكْلَةُ إِلَى مِثْلِهَا! قَالَ: فَرَعَاهُ بِشَطْرِ وَسْقٍ ثَلَاثِينَ صَاعًا، وَالْوَسْقُ سِتُونَ صَاعًا، فَقَالَ: لِيُطْعَمَ سِتِينَ مَسْكِينًا وَلِيُرَاجِعَكَ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، وَسِيَاقٌ غَرِيبٌ. وَقَدْ رَوَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ نَحْوَ هَذَا.

تنبيهات :

قال السيوطي في (الإكليل): في هذه الآية حكم الظهار، وأنه من الكبائر، وأنه خاص بالزوجات، دون الأجنبية، وأن فيه بالعود كفارة، وأنه يحرم الوطء قبلها، وأنها مرتبة: العتق، ثم صوم شهرين متتابعين، ثم إطعام ستين مسكينًا. واستدل مالك بقوله (مِنْكُمْ) على أن الكافر لا يدخل في هذا الحكم. وبقوله (مِنْ نِسَائِهِمْ) على صحته من الزوجات والسراي، اشمول النساء لهن.

واستدل ابن جرير وداود وفرقة بقوله (ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا) على أن العود الموجب للكفارة، أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرر.

واستدل بإطلاق الرقبة من جوّز في كفارة الظهار عتق الكافرة. واستدل بظاهر الآية من لم ير الظهار إلا في التشبيه بظهر الأم خاصة، دون سائر الأعضاء، ودون الاقتصار على قوله (كأخي)، وبالألم خاصة دون الجدات وسائر المحارم من النسب أو الرضاع أو المصاهرة والأب والابن ونحو ذلك. ومن قال لاحكم لظهار الزوجة من زوجها، لأنه تعالى خص الظهار بالرجل. ومن قال بصحة ظهار العبد لعوم (الَّذِينَ) له. ومن قال بإباحة الاستمتاع بناء على عدم دخولها في لفظ الماسة. ومن قال يجوز الوطء ونحوه قبل الإطعام إذا كان يكفر به، لأنه لم يذكر فيه (مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسَا).

وفي الآية ردُّ على من أوجب الكفارة بمجرد لفظ الظهار ، ولم يعتبر العود . ووجه ما قاله أنه جعل العود فعلة في الإسلام بعد تحريره .

وفيه رد على من اكتفى بإطعام مسكين واحد ، ستين يوماً . انتهى .
وقوله تعالى (ذَلِكُمْ تُوَعَّظُونَ بِهِ) أى الحكم بالكفارة العظمى المذكورة ، ترجرون به .

وقوله تعالى (ذَلِكُمْ لِيَتُوبَ مِنْكُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) أى ذلك البيان أو التعليم للأحكام ، لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ، والانهاء عن قول الزور الجاهلي .
والمراد بقوله تعالى (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) الجاحدون لفرائضه وحدوده التى بيّنها .
فالكفر على حقيقته ، أو المتعدون لها ، وعنوان (الكفر) تغليظاً لجرمهم .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ،
وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى مخالفة حدوده وفرائضه . وأصله من الحادّة ، بمعنى المعادة ، لأن كلّاً من المتعادين فى حدّ غير حدّ الآخر . « كُتِبُوا » أى أُخْزُوا « كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » يعنى كفار الأمم الماضية . « وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ » قال ابن جرير (١) : أى دلالات مفصّلات ، وعلامات محكمات ، تدلّ على حقائق حدود الله . « وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ » يعنى منكرى تلك الآيات وجاحديها .

تنبيه :

فسر بعضهم (يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) بمعنى يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودها .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال محشيّه : ففيه وعيد عظيم للملوك ، وأمراء السوء ، الذين وضعوا أموراً خلاف ما حدّه الشرع ، وسموها قانوناً .

وقال : وقد صنّف العارف بالله تعالى الشيخ بهاء الدين ، قدّس الله روحه ، رسالة في كفر من يقول : يعمل بالقانون والشرع ، إذا قابل بينهما ، وقد قال الله تعالى ^(١) (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) وقد وصل الدين إلى مرتبة من السكّال لا تقبل التكميل . وإذا جاء نهر الله ، بطل نهر معقل ^(٢) . انتهى كلامه .

ولا يخفى أن إطلاق الكفر لمجرد ذلك من غير تفصيل ، فيه نظر . لأنه من تنطع الغالين من الفقهاء ، الذين زيّف أقوالهم في التكفير كثير من العلماء النحارير ، فإن التكفير ليس بالأمر اليسير . والحق في ذلك أن القانون الذي يهدم نصوص الشرع التي لا تحتمل التأويل ويبطلها وينسخها ، فإنه كفر وضلال . لا يقول به ، ولا يعول عليه ، إلا المارقون الجاحدون . وأما غير المنصوص عليه ، أعنى ما لم يكن قطعاً في بابه ، من آية محكمة ، أو خبر متواتر ، أو إجماع من الفروع النظرية ، والمسائل الاجتهادية المدوّنة ، فخالفتها إلى قانون عادل لا يعدّ ضلالاً ولا كفراً ، لأنه ليس من مخالفة الشرع في شيء ، إذ الشرع ما شرعه الله ورسوله ، وأحكم الأمر فيه ، وبين بياناً رفع كل لبس ، لا ما تخالف فيه الفقهاء ، وكان مأخذه من الاجتهاد ، وإعمال الرأي ، فإن ذلك ، لا عصمة فيه من الخطأ ، مهما بلغ رائيّه من السكّانة ، إذ لا عصمة إلا في نص الله ورسوله ﷺ . وكثيراً ما تتشابه فروع الفقهاء بمواد القانون ، ولذا ألف بعض المتأخرين كتاباً في مطابقة المواد النظامية للفروع الفقهية . وذلك لأن مورد الجميع واحد ، وهو الرأي والاجتهاد ورعاية المصلحة .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب في هذا المعنى سماه (السياسة الشرعية) ، وكذا لتلميذه

(١) [٥ / المائدة / ٣] .

(٢) هو نهر معروف بالبصرة ، فنه عقد فم نهر الإجماع .

الإمام ابن القيم ، وهو أوسع . ولنجم الدين الطوفي أيضا رسالة في المصالح المرسلة ، جمعناها من شرحه للأربعين النووية . وقد أرجع المز بن عبد السلام فروع الفقه في قواعده إلى قاعدتين : اعتبار المصالح ، ودرء المفسد .

قال القاضي زكريا : وبحث بعضهم رجوع الجميع إلى جلب المصالح .
وقال الشاطبي في (الموافقات) : إن الشارع قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدينية ، وبأن تكون مصالح على الإطلاق ، فلا بد أن يكون وضعها على ذلك الوجه أديبا وكليا وعمما في جميع أنواع التكليف والمكافئ من جميع الأحوال .
وقال نجم الدين الطوفي : إن قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا ضرر ولا ضرار)^(١) يقتضى رعاية المصالح إثباتا ونفيا ، والمفاسد نفيا ، إذ الضرر هو المفسدة ، فإذا نقاها الشرع لزم إثبات النفع الذى هو المصلحة ، لأنهما تقيضان ، لا واسطة بينهما . ثم إن أقوى الأدلة النص والإجماع ، وهما إما أن يوافقا رعاية المصلحة ، أو يخالفها ، فإن وافقها ، فيها ونعمت ، ولا تفازع . إذ قد اتفقت الأدلة الثلاثة على الحكم ، وهى النص والإجماع ، ورعاية المصلحة المستفادة من قوله عليه السلام (لا ضرر ولا ضرار) ، وإن خالفها وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التخصيص والبيان لهما ، لا بطريق الافتئات عليهما ، والتمطيل لهما ، كما تقدم السنة على القرآن ، بطريق البيان . انتهى . وتمتة كلامه جديرة بالراجعة ، هى وتعليقاتنا عليها ، فابحث ولا تكن أسير التقليد ، بل ممن ألقى السمع وهو شهيد .

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ١٣ - كتاب الأحكام ، ١٧ - باب من بنى فى حقه ما يضر جاره ، حديث رقم ٢٣٤٠ ، عن عبادة بن الصامت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ، أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

« يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ » أى أحاط به علماً ، ولم يذهب عنه شئ . « وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » أى رقيب ، يعلمه ولا يغيب عنه . و (يَوْمَ) منصوب بـ (اذكر) مضمراً . وتقدمة الإخبار بسعة علمه سبحانه ، تمهيداً لما بعده من النهى عن النجوى بالإثم ، تحذيراً وتنفيراً . وقد أكد ذلك بتفصيل علمه عناية بالنهى عنه ، والتحذر منه ، فى قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » . (النجوى) مصدر ، معناها التحدث سرّاً ، مأخوذة من (النجوة) ، وهى ما ارتفع من الأرض ، لأن السر يبان عن الغير ، كأنه رفع من حضيض الظهور ، إلى أوج الخفاء ، على التشبيه .

قال الشهاب وأقرب منه قول الراغب، لأن المتسارين يخلوان بنجوة من الأرض . أوهو من (النجاة) وتخصيص العديدين ، إما لخصوص الواقعة ، فكان قوم من المنافقين ، على هذا العدد اجتمعوا مغايظة للمؤمنين ، أو لأن التفاجي للمشاورة ، وأقله ثلاثة ، لأن التشاور لا بد له من اثنين يكونان كالتنازعين ، وثالث يتوسط بينهما . ومناسبة ضم الخمسة للثلاثة ، كون الخمسة أول مراتب ما فوقها في الوترية ، فذكرنا ليشار بهما للأقل والأكثر . على أنه عمم الحكم بعد ذلك بقوله : (وَلَا أَذْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ) أى : كالثنتين (وَلَا أَكْثَرَ) أى : كالسبعة وما فوقها (إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) أى : يعلم ما يكون بينهم فى أى مكان حلّوا ، لأن علمه بالأشياء ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة .

روى ابن جرير^(١) عن الضحاك فى الآية قال : هو فوق العرش ، وعلمه معهم أينما كانوا . وقال ابن كثير : حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى . ولا شك فى إرادة ذلك .

قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم .

تنبيه :

استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الله تعالى فى كل مكان ، فرد عليهم الإمام ابن حزم فى (الفِصَل) بأن قول الله تعالى يجب حمله على ظاهره ، ما لم يمنع من حمله على ظاهره نص آخر ، أو إجماع ، أو ضرورة حس . وقد علمنا أن كل ما كان فى مكان ، فإنه شاغل لذلك المكان ومالى له ، ومتشکل بشكل المكان ، أو المكان متشکل بشكله . ولا بد من أحد الأمرين ضرورة . وعلمنا أن ما كان فى مكان ، فإنه متناهى متناهى مكانه ، وهو ذو جهات ست أو خمس متناهية فى مكانه . وهذه كلها صفات الجسم . فلما صح ما ذكرنا ، علمنا أن قوله تعالى^(٢) :

(١) انظر الصفحة رقم ١٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٥٠ / ق / ١٦] .

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ، (١) (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) ، وقوله تعالى (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ) إنما هو التدبير لذلك ، والإحاطة به فقط ضرورة ، لانتهاء ما عدا ذلك . وأيضاً فإن قولهم (في كل مكان) خطأ ، لأنه يلزم ، بموجب هذا القول ، أنه يملأ الأماكن كلها ، وأن يكون ما في الأماكن فيه ، تعالى الله عن ذلك ، وهذا محال . فإن قالوا : هو فيها ، بخلاف كون المتمكن في المكان . قيل لهم : هذا لا يعقل ، ولا يقوم عليه دليل . انتهى .

وقد تقدم في قوله تعالى : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) كلام في المعية لابن تيمية ، فارجع إليه في سورة الحديد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ، حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ، فَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى » قال مجاهد : هم اليهود . « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ » أي : بما هو إثم وتعدا على المؤمنين ، وتواصي بمخالفة النبي ﷺ .

قال أبو السعود : وذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهين إليه ، لزيادة تشنيعهم ، واستعظام معصيتهم .

« وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ » أي من قولهم : (السام عليك) ، أو مما نسخته الإسلام من تحايا الجاهلية ، فإن الله تعالى يقول (٢) : (وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ)

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٥] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٨١] .

« وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ » أى : من التناجى الذموم ، أو من التحريف فى التحية ، استهزاء وسخرية . أى : هلا يعجل عقوبتنا بذلك ؟ لو كان محمد رسوله ، قال تعالى : « حَسْبُهُمْ » أى : يكفى قاتلى ذلك فى تعذيبهم « جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

ثم نهى تعالى المؤمنين وحذرهم أن يجترعوا فى النجوى ما اجترمه أولئك ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ

الرَّسُولِ وَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

[١٠] (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَدَجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ

الرَّسُولِ وَتَنَدَجُوا بِالْبِرِّ » أى : بطاعة الله ، وما يقربكم منه ، « وَالتَّقْوَى » أى :

اجتناب ما يؤثم ، « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى : فيجزىكم بما اكتسبتم مما أحصاه عليكم .

ثم شجع تعالى المؤمنين فى قلة المبالاة بمناجاة أعدائهم ، وأنها لا تضرهم ماداموا مثابرين

على وصاياه ، متسكلين عليه ، بقوله « إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ » أى : النجوى

التي ذمها . فاللام للعهد . أى المزين لهذه النجوى بالشر ، والحامل عليها الشيطان .

« لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ » أى الشيطان ، أو التناجى المذكور « شَيْئًا

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى بمشيئته « وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » أى بالمضى فى سبيله ،

والاستقامة على أمره ، وانتظار النصر على أثره .

لطيفة :

قال القاشاني : إنما نهوا عن الفجوى لأن التناجى اتصال واتحاد بين اثنين في أمر يختص بهما ، لا يشاركهما فيه ثالث . وللنفوس عند الاجتماع والاتصال تعاضد وتظاهر ، يتقوى ويتأيد بعضها ببعض فيما هو سبب الاجتماع لخاصية الهياة الاجتماعية التي لا توجد في الأفراد . فإذا كانت شريرة يتناجون في الشر ، ويزاد فيهم الشر ، ويقوى فيهم المعنى الذي يتناجون به بالاتصال والاجتماع ، ولهذا ورد بعد النهى قوله : (وَيَتَنَجَّجُونَ بِالْآثِمِ) الذي هو رذيلة القوى البهيمية «وَالْعُدْوَانِ» الذي هو رذيلة القوى الغضبية ، «وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ» التي هي رذيلة القوة النطقية ، بالجهل وغلبة الشيطنة . ألا ترى كيف نهى المؤمنين بعد هذه الآية عن التناجى بهذه الرذائل المذكورة ، وأمرهم بالتناجى بالخيرات ، ليقوّوا بالهياة الاجتماعية ، ويزدادوا فيها فقال : (وَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ) أى : الفضائل التي هي أصداد تلك الرذائل ، من الصالحات والحسنات المخصوصة بكل واحدة من القوى الثلاث ، (وَالْتَقَوَى) أى : الاجتناب عن أجناس الرذائل المذكورة . انتهى .

قال ابن كثير : وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى ، حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن . روى الإمام أحمد ^(١) عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : إذا كنتم ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه - أخرجه ^(٢) - .

(١) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ٣٧٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٥٦٠ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٧٩ - كتاب الاستئذان ، ٤٦ - باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارعة والمناجاة ، حديث رقم ٢٣٨١ .

وأخرجه مسلم في : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث رقم ٣٧ (طبعتنا) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إذا كنتم ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه - انفراد بإخراجه مسلم ^(١) - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ» تعليم منه تعالى للمؤمنين بالإحسان في أدب المجالس ، وذلك بأن يفسح المرء لأخيه ويتنحى توسعة له .

قال الشهاب : وارتباطه بما قبله ظاهر . لأنه لما نهى عن التناجى والسرار ، علم منه الجلوس مع الملاء ، فذكر آدابه . ورتب على امتثالهم فسحه لهم فيما يريدون التفسح ، من المكان والرزق والصدر .

قال ابن كثير : وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء في الحديث الصحيح ^(٢) : من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة . ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . ولهذا أشباه كثيرة . قال قتادة : نزلت هذه الآية في مجالس الذكر ، وذلك أنهم إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنوا بجالسهم عند رسول الله ﷺ ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

(١) أخرجه مسلم في : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٦٥ - باب من بنى مسجداً ، حديث

رقم ٢٩٧ ، عن عثمان بن عفان .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٤ و ٢٥ (طبعنا) .

« وَإِذَا قِيلَ اُنْشُرُوا » أى انهضوا للتوسعة ، أو ارتفعوا فى المجلس ، أو انهضوا عن مجلس الرسول ، إذا أمرتم بالهوض عنه ، ولا تملوه بالارتكاز فيه . « فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » أى يرفع المؤمنين بامتثال أوامره ، وأوامر رسوله ، والعالمين بها ، الجارين على موجبها بمقتضى علمهم ، درجات دنيوية وأخروية . قال الناصر : لما علم أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم ، وعند الناس ، ارتفاع مجالسهم ، خصهم بالذكر عند الجزاء ، ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة فى المجلس ، تواضعاً لله تعالى . انتهى .

وهذا - كما قال الشهاب - من مغيبات القرآن ، لما ظهر من هؤلاء فى سائر الأعصار من التنافس فى رفعة المجالس ، ومحبة التصدير .

وفى كلام الزمخشري ما يشير إلى أنه من عطف الخاص على العام ، تعظيماً له ، بعده كأنه جنس آخر ، كما فى ^(١) (وَمَلَأْمِكْتِهٖ وَرُسُلِهٖ وَجَبْرِيلَ) ، ولذا أعاد الموصول فى النظم . المراد بالعلم علم ما لا بد منه من العقائد الحقة ، والأعمال الصالحة .

تنبيهات :

الأول - فى (الإكليل) : فى الآية استحباب التفسح فى مجالس العلم والذكر ، وكل مجالس طاعة .

الثانى - يفهم من الأمر بالتفسح النهى عن إقامة شخص ليجلس أحد مكانه . فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا - رواه الإمام أحمد والشيخان ^(٢) - .

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٤٦٥٩ (طبعة المعارف) . وأخرجه البخارى فى : ٧٩ - كتاب الاستئذان ، ٣١ - باب لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ، حديث رقم ٥٣٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٩ - كتاب السلام ، حديث رقم ٢٧ (طبعتنا) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن افسحوا يفسح الله لكم - رواه الإمام أحمد - وفي رواية بلفظ : لا يقوم الرجل للرجل من مجلسه ، لكن افسحوا يفسح الله لكم - تفرد به الإمام أحمد -

قال ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء ، على أقوال : فمنهم من رخص بذلك محتجاً ^(١) بحديث : قوموا إلى سيدكم .

ومنهم من منع ذلك محتجاً ^(٢) بحديث : من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار .

ومنهم من فصل فقال يجوز عند القدوم من سفر ، ولحاجكم في محل ولايته ، كأدل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبي صلى الله عليه وسلم حاكماً في بني قريظة ، فلما رآه مقبلاً قال للمسلمين : قوموا إلى سيدكم . وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه - والله أعلم - فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم . وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ . وكان إذا جاء لا يقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . انتهى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ، في فتاوى له في ذلك : لم يكن من عادة السلف على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، أن يعتادوا القيام ، كما يفعله ، كثير من الناس . بل قد قال أنس بن مالك رضي الله عنه : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . ولكن ربما قاموا للقدام من مغيبه ، تلقياً له ، كما روى عن النبي ﷺ أنه قام لعكرمة ، وقال للأَنْصار لما قدم سعد بن معاذ : قوموا إلى سيدكم ، وكان سعد متمرضاً بالمدينة ، وكان قد قدم إلى بني قريظة شرق المدينة .

(١) أخرجه البخاري في : ٧٩ - كتاب الاستئذان ، ٢٦ - باب قول النبي ﷺ (قوموا إلى سيدكم) ، حديث رقم ١٤٤٤ ، عن أبي سعيد .

(٢) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٥٢ - باب في قيام الرجل للرجل ، حديث رقم ٥٢٢٩ ، عن معاوية .

والذى ينبغى للناس ، أن يعتادوا اتباع السلف على ما كانوا عليه على عهد النبي ﷺ . فإنهم خير القرون . وخير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد . فلا يعدل أحد عن هدى خير الخلق ، وهدى خير القرون ، إلى ما هو دونه . وينبغى للمطاع أن يقرر ذلك مع أصحابه ، بحيث إذا رأوه لم يقوموا له ، ولا يقوم لهم ، إلا فى اللقاء المعتاد . فأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك ، تلقياً له ، فحسن . وإذا كان من عادة الناس إكرام الجائى بالقيام ، ولو ترك ذلك لاعتقد أن ذلك بحس فى حقه ، أو قصد لخفضه ، ولم يعلم العادة الموافقة للسنة - فالأصلح أن يقوم له ، لأن ذلك إصلاح لذات البين ، وإزالة للتباغض والشحناء . وأما من عرف عادة القوم الموافقة للسنة ، فليس فى ترك ذلك إيذاء له . وليس هذا القيام المذكور فى قوله ﷺ : من سره أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار . فإن ذلك أن يقوموا وهو قاعد . ليس هو أن يقوموا لمحيته إذا جاء . ولهذا فرقوا بين أن يقال (مات إليه) و (مات له) . والقائم للقادم ساواه فى القيام ، بخلاف القيام للقاعد . وقد ثبت فى صحيح مسلم^(١) أن النبي ﷺ لما صلى بهم قاعداً فى مرضه ، وصلاوا قياماً ، أمرهم بالعود ، وقال : لا تعظمونى كما يعظم الأعاجم بعضها بعضاً . فقد نهاهم عن القيام فى الصلاة وهو قاعد ، لثلاث يشبهوا الأعاجم الذين يقومون لمعظمتهم وهم قعود . وجماع ذلك أن الذى يصلح ، اتباع عادة السلف وأخلاقهم ، والاجتهاد بحسب الإمكان . فمن لم يعتقد ذلك ، أو لم يعرف أنه العادة ، وكان فى ترك معاملته بما اعتاده الناس من الاحترام مفسدة راجحة ، فإنه يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناها ، كما يجب فعل أعظم الصلاحين بتفويت أدناها . انتهى كلام شيخ الإسلام ، رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

الثالث - قال ابن كثير : روى عن ابن عباس والحسن البصرى وغيرهما ؛ أنهم قالوا فى قوله تعالى (إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا) يعنى فى مجالس الحرب . قالوا : ومعنى قوله (وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا) أى انهضوا للقتال .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٥٢ - باب قيام الرجل للرجل ،

حديث ٥٢٣٠ .

وقال قتادة : (وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا) أى إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا .

وقال مقاتل : إذا دعيتم إلى الصلاة قارتفعوا بها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عند النبي ﷺ في بيته فأرادوا الانصراف ، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده . فربما يشق ذلك عليه ، عليه السلام ، وقد تكون له الحاجة . فأمرُوا أنهم إذا أمرُوا بالانصراف أن ينصرفوا ، كقوله تعالى (١) (وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَأَرْجِعُوا) انتهى .

ولا تنافي بين هذه الأقوال ، لأن كلامها تفسير للفظ العام ببعض أفرادها . وما يصدق عليه إشارة إلى تناوله لذلك ، لأن أحدها هو المراد دون غيره ، فذلك ما لا يتوهم . وقد كثر مثل ذلك في تفاسير السلف لكثير من الآي ، وكله مما لا اختلاف فيه - كما بيناه مراراً - .
الرابع - في (الإكليل) قال قوم : معنى (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) يرفع الله المؤمنين منكم العلماء درجات على غيرهم ، فلذلك أمر بالتفشع من أجلهم ، ففيه دليل على رفع العلماء في المجالس ، والتفشع لهم عن المجالس الرفيعة . انتهى .
القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ

صَدَقَةً ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً »

أى تصدقوا قبل مناجاته ، أى مسارته في بعض شأنكم . « ذَٰلِكَ » أى التقديم . « خَيْرٌ لَّكُمْ » أى لأنفسكم ، لما فيه من مضاعفة الأجر والثواب ، والقيام بحق الإخاء ، بالعود على ذوى بالمسكنة بالمواساة والإغناء . « وَأَطْهَرُ » أى لأنفسكم من رزية البخل

والشح ، ومن حب المال وإيثاره الذى قد يكون من شعار المنافقين . وكأن الأمر بالتصدق المذكور، نزل ليميز المؤمن من المنافق ، فإن المؤمن تسخو نفسه بالإتفاق كيفما كان ، والثانى يغص به ، ولو فى أضرّ الأوقات . ومعظم أوامر السورة هو التصدق، حثاً للباخلين، وسوقاً للمؤمنين . « فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا » أى ما تصدقون به أمام مناجاتكم الرسول صلوات الله عليه . « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لمن لم يجده، إذ لم يخرجه ولم يضيق عليه، رحمةً منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ ، فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

«ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ» أى أخفتم، من تقديم الصدقات، الفاقة والفقر ؟ توبخ بأن مثله لا ينبغى أن يشفق منه ، لزوم الخلف للإتفاق ، لزوم الظل للشاخص ، بوعد الله الصدق . « فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا » أى ما ندمتم إليه من تقديم الصدقة ، وشق عليكم ، « وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ » بأن رخص لكم أن لا تفعلوا ، رفعا للخرج حسبما أشفقتم ، « فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فلا تفرطوا فى الصلاة والزكاة وسائر الطاعات ، فإن ذلك يكسبكم ملكة الخير والفضيلة . « وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى فيجزىكم بحسبه .

تنبيه :

فى (الإكليل) : قوله تعالى (إِذَا نَجَّيْتُمْ الرُّسُولَ) الآية منسوخة بالآتى بعدها، وفيه دليل على جواز النسخ بلا بدل، ووقوعه ، خلافا لمن أبى ذلك . انتهى .

والظاهر أن مستند شهرة النسخ ما رواه ابن جرير^(١) عن مجاهد قال: قال علي رضي الله عنه: إن في كتاب الله عز وجل لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدى «يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ ...» الخ قال: فرضت، ثم نسخت. وعنه أيضا قال^(٢): نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا، فلم يناجيه إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قدم ديناراً فتصدق به، ثم أنزلت الرخصة في ذلك.

وعن قتادة^(٣) أنها منسوخة، ما كانت إلا ساعة من نهار.

وعنه أيضا^(٤) قال: سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة فوعظهم الله بهذه الآية، وكان الرجل تكون له الحاجة إلى نبي الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة، فاشتد ذلك عليهم، فأُنزل الله الرخصة بعد ذلك (فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

وعن الحسن^(٥) وعكرمة قالا: (إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ ..) الآية، نسختها التي بعدها (ءَأَشْفَقْتُمْ ..) الآية.

هذه الآثار وأمثالها هي مستند مدعي النسخ، ووقفاً مع ظاهرها. وقد أسلفنا في مقدمة التفسير، ومواضع أخرى؛ أن النسخ في كلام الساف أعم منه باصطلاح الخلف، كما أن المراد من سبب النزول أعم مما يتبادر إليه الفهم. ومنه قول قتادة هنا: فأُنزل الله الرخصة بعد ذلك. فإن مراده إبانة أن الأمر ليس بمزيمة في الآية الثانية، لأن نزولها كان مترخياً عن الأولى، فإن ذلك مستحيل على رونق نظمها الكريم. والأصل في الآي المقررة لحكم ما، هو اتصال جملها، وانتظام عقدها، إذ به يكمل سحر بلاغتها وبديع بيانها، وتتام فقهها. والذين ذهبوا إلى عدم وقوع النسخ في التنزيل، لهم في الآية وجوه:

(١) انظر الصفحة رقم ٢٠ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية).

(٢) انظر الصفحة رقم ٢١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية).

أحدها - قول أبي مسلم : إن المنافقين كانوا يتمتعون من بذل الصدقات ، وأن قوماً من المنافقين تركوا النفاق ، وآمنوا ظاهراً وباطناً إيماناً حقيقياً ، فأراد الله تعالى أن يميزهم عن المنافقين ، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى ، ليميز هؤلاء الذين آمنوا إيماناً حقيقياً عن بقى على ثقافه الأصلي . وإذا كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدرة بذلك الوقت ، لا جرم يقدر هذا التكليف بذلك الوقت .

قال الرازى : وحاصل قول أبي مسلم أن ذلك التكليف كان مقدراً بغاية مخصوصة ، فوجب انتهائه عند الانتهاء إلى الغاية المخصوصة ، فلا يكون هذا نسخاً ، وهذا الكلام حسن ، ما به بأس . انتهى .

ثانيها - قول بعضهم : إن شبهة مدعى النسخ ذهابهم إلى أن الأمر بتقديم الصدقة للوجوب . وتأكد ذلك بقوله بعده : (فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وقوله : (فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) فإن ذلك لا يقال إلا فيما يفقده يزول وجوبه . والجواب : أن لاقاطع في كون الأمر للوجوب ، بل الظاهر أنه للندب : ويدل عليه أمور :
الأول - أنه تعالى قال : (ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ) وهذا إنما يستعمل في التطوع لا في الفرض .

والثاني - أنه لو كان ذلك واجباً لما أزيل وجوبه بكلام متصل به ، وهو (ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا ...) إلى آخر الآية .

والثالث - أن قوله تعالى : (فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ...) الخ معناه إن لم تفعلوا ما نذبتكم إليه من تقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول ، والحال أن الله قد رجع إليكم بالتخفيف والتسهيل فيما شرعه لكم ، فلم يعاملكم كما كان يعامل الأمم السابقة ولم يعنتكم بشيء مما أوجبه عليكم ، فلذا نذبتكم إلى هذا الأمر ، ولم يجعله عليكم فرضاً ، كما هي سنته في معاملتكم بالرفقة والرحمة ، فأقيموا الصلاة ... الخ . فقوله (وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ)

قد ورد هنا بمعنى الرجوع إلى التخفيف والتسهيل على هذه الأمة ، والعدول عن معاملتها كسابقها ، لا بمعنى التجاوز عن السيئات وغفران الذنوب. وقد ورد بذلك المعنى أيضا في آية أخرى في سورة الزمل ، وهي قوله تعالى^(١) (عَلِمَ أَنَّنِ تَحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ) أى رجع إليكم بالتخفيف ، ورفع عنكم ما يشق عليكم. وليس معناه في هاتين الآيتين العفو عن الذنوب ، إذ لا ذنب هنا صدر منهم .

هذا ملخص ماحقه من ذهب إلى امتناع النسخ . والحق لا تخفى قرته ، وسكون النفس إليه - وبالله التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» يعنى المنافقين الذين كانوا يتولَّون اليهود ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ، كما بينته آية^(٢) (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ...) الآية «مَّا هُمْ مِنْكُمْ» أى من أهل دينكم وملتكم ، معشر المسلمين «وَلَا مِنْهُمْ» أى من اليهود كقوله تعالى^(٣) (مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ) «وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ» قال ابن جرير^(٤) : وذلك قولهم لرسول الله ﷺ (نشهد أنك رسول الله) وهم كاذبون غير مصدقين به . «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أى الخلوفاً عليه كذب بحت .

(١) [٧٣ / الزمل / ٢٠] . (٢) [٥٩ / الحشر / ١١] . (٣) [٤ / النساء / ١٤٣] .

(٤) انظر الصفحة رقم ٢٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[١٦] (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

« أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً » أى وقاية وعصمة لأنفسهم « فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى خالوا بأيمانهم عن حكم الله فى أمثالهم ، وهو القتل ، إراحة للمؤمنين من فسادهم . أو فصدوا الناس فى خلال أمنهم وسلامتهم عن الإيمان وثبطوهم عنه . « فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » أى مذل لهم فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[١٨] (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ

أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ، أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ)

[١٩] (أَسْتَحْذَرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ،

أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

« لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » أى من عذابه شيئاً ما ، كما كانوا يفتقدون بذلك فى الدنيا « أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ » أى فى الدنيا كاذبين مبطلين ، إشارة إلى صراحتهم على النفاق ، ورسوخهم فيه ، حتى لدى من لا تحفى عليه خافية . « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ » أى من النفع أو من الحق « أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ » أى فيما يحلفون عليه

في الدارين « أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ » أى استولى عليهم حتى صار الكذب والفساد ملكة لهم « فَأَنسَلَمَهُمُ ذِكْرَ اللَّهِ » أى بتسويل اللذات الحسية ، والشهوات البدنية لهم ، وتزيين الدنيا وزبرجها في أعينهم . « أَوْلَايَكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ » أى أتباعه في الفساد والإفساد . « أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ » أى للسعادة في الدارين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَايَكَ فِي الْأَذَلِّينَ) « إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَايَكَ فِي الْأَذَلِّينَ » أى فى أهل الذلة ، لأن الغلبة لله ولرسوله ، كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » أى حزب الشيطان المحادين « إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » أى قوى على إهلاك من حادّه ورسله ، عزيز فلا يغلب فى قضائه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أَوْلَايَكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أَوْلَايَكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

«لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» أى شاقهما وخالف أمرهما . أى لا تجد قوماً جامعين بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، وبين موادة أعداء الله ورسوله . والمراد بنفى الوجدان نفى الموادة ، على معنى أنه لا ينبغي أن يتحقق ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ، مبالغة فى النهى عنه ، والزجر عن ملاسته ، والتوصية بالتصلب فى مجانبة أعداء الله ومباعدتهم ، والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم . وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله : «وَلَوْ كَانُوا إِبْنَاءَهُمْ» أى آباء المودّين . والضمير فى (كَانُوا) لمن حاد الله ورسوله . والجمع باعتبار معنى (مَنْ) كما أن الأفراد فيما قبله ، باعتبار لفظها . «أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ» أى فإن قضية الإيمان هجر المهادّين «أَوْ لَأَمْلِكُ» إشارة إلى الذين لا يوادونهم «كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ» أى أثبتته فيها «وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ» أى بنور وعلم ولطف حيث به قلوبهم فى الدنيا . وأشار إلى ما لهم فى الآخرة بقوله «وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» أى الفاجحون الفائزون بسعادة الدارين .

تنبيهات :

الأول - من أشباه هذه الآية قوله تعالى (١) «لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ» الآية . وقال تعالى (٢) «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» .

(١) [٣ / آل عمران / ٢٨] . (٢) [٩ / التوبة / ٢٤] .

الثاني - قال ابن كثير : قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية (لَا تَجِدُ قَوْمًا ...) إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر . وفي أبي بكر الصديق ، هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن . وفي مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير . وفي عمر قتل قريباً له من عشيرته يومئذ أيضاً . وفي حمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث ، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ . انتهى .

وقد بينا مراراً ؛ أن المراد بسبب النزول في مثل ذلك ، صدق الآية على هؤلاء ، وما أتوا به من التصلب في دين الله ، في مقابلة المفسدين ، ولو كانوا من أقرب الأقربين .

قال ابن كثير : ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يُفَادَوْا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله تعالى أن يهديهم . وقال عمر : لا أرى ما رأى يارسول الله ! هل تمكنى من فلان - قريب لعمر - فأقتله ، وتمكن عليّاً من عقيل ، وتمكن فلاناً من فلان ، ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا موادة للمشركين ؟ .

الثالث - قال ابن كثير : في قوله تعالى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) سر بديع . وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى ، عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم .

الرابع - يفهم من قوله تعالى (حَادَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) وقوله في آية (١) أخرى (لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) أن المراد بهم المحاربون لله ولرسوله ، الصادقون عن سبيله ، المجاهدون بالعداوة والبغضاء . وهم الذين أخبر عنهم قبل بأنهم يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . فنشمل الآية المشركين وأهل الكتاب المحاربين للمحادين لنا ، أى الذين

على حدّ منا ، ومجانبة لشؤوننا ، تحقيقاً لمخالفتنا ، وترصداً للإيقاع بنا . وأما أهل الذمة الذين بين أظهرنا ، ممن رضى بأداء الجزية لنا وسالنا ، واستسكان لأحكامنا وقضائنا ، فأولئك لا تشملهم الآية ، لأنهم ليسوا بمجادين لنا بالمعنى الذى ذكرناه ، ولذا كان لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، وجاز التزوج منهم ، ومشاركتهم ، والاتجار معهم ، وعيادة مرضاهم . فقد عاد النبي ﷺ يهودياً ، وعرض عليه الإسلام فأسلم - كما رواه ^(١) البخارى - .

وعلى الإمام حفظهم والمنع من أذاهم ، واستنقاذ أسراهم ، لأنه جرت عليهم أحكام الإسلام ، وتأبد عهدهم ، فلزمه ذلك ، كما لزم المسلمين - كما فى (الإقناع) و (شرحه) - . وقال ابن القيم فى (إغاثة اللهفان) فى الرد على المنتظمين الذين لا تطيب نفوسهم بكثير من الرخص المشروعة : ومن ذلك أن النبي ﷺ كان يجيب من دعاه ، فياً كل طعامه . وأضافه يهودى بنجر شعير وإهالة سنخة . وكان المسلمون يأكلون من أطعمة أهل الكتاب . وشرط عمر رضى الله عنه ضيافة من مرتبهم من المسلمين وقال : أطعموهم مما تأكلون . وقد أحل الله عز وجل ذاك فى كتابه . ولما قدم عمر رضى الله عنه الشام صنع له أهل الكتاب طعاماً فدعوه فقال : أين هو؟ قالوا فى الكنيسة ، فكره دخولها ، وقال لعلى رضى الله عنه : اذهب بالناس . فذهب على بالمسلمين ، فدخلوا وأكلوا ، وجعل على رضى الله عنه ينظر إلى الصورة . وقال : ما على أمير المؤمنين ، لو دخل وأكل ! انتهى .

والأصل فى هذا قوله تعالى ^(٢) (لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) * إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

(١) أخرجه فى : ٧٥ - كتاب المرضى ، ١١ - باب عيادة المشرك ، حديث رقم ٧١٤ ،

عن أنس . (٢) [٦٠ / المتحنة / ٨ و ٩] .

قال السيد ابن المرتضى البيناني في (إيثار الحق) : عن الإمام المهديّ محمد بن المطهر عليه السلام ؛ أن الموالاة المحرمة بالإجماع ، هي أن تحب الكافر لكفره ، والعاصي لمعصيته ، لا لسبب آخر ، من جلب نفع أو دفع ضرر ، أو خصلة خير فيه . وسيأتي في أول سورة الممتحنة زيادة على هذا إن شاء الله تعالى ، وبالله التوفيق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٩ - سُورَةُ الْحَشْرِ

قال المهاجى : سميت به لدلالة إخراج اليهود عنده ، على لطف الله وعنايته برسوله
وبالمؤمنين ، وقهره وغضبه على أعدائهم . وهو من أعظم مقاصد القرآن .
وكان ابن عباس يقول : سورة بنى النضير .
روى البخارى^(١) عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال :
سورة بنى النضير .

وعنه قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بنى النضير . وهم قوم من
اليهود . وهى مدنية . وآيها أربع وعشرون ، بلا خلاف .

(١) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٩ - سورة الحشر ، ١ - باب الجلاء من

أرض إلى أرض ، حديث رقم ١٨٦٩ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
 [٢] (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ)
 « سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » تقدم القول في

تأويل نظيره .

ثم أشار إلى بيان بعض آثار عزته تعالى ، وإحكام حكمته ، إثر وصفه بالعزة القاهرة ، والحكمة الباهرة على الإطلاق ، بقوله : « هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » يعنى بنى النضير من اليهود « مِنْ دِيَارِهِمْ » أى مساكنهم التى جاوروا بها المسلمين حول المدينة ، لطفاً بهم « لِأَوَّلِ الْحَشْرِ » أى لأول الجمع لقتالهم . يعنى أخرجهم تعالى بقمهره لأول ماخسر لغزوهم . والتوقيت به إشارة إلى شدة الأخذ الربانى لهم ، وقوة البطش والانتقام ، بقذف الرعب فى قلوبهم ، حتى اضطروا لأول الهجوم عليهم ، إلى الجلاء والفرار ، كما يأتى .

« مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا » أى لشدة بأسهم ومنعتهم ، فصار آية لكم ، لأنه من آثار سنته تعالى فى إذلال المفسدين وقهرهم . « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ » أى من بأسه « فَأَتَاهُمُ اللَّهُ » أى عذابه ، وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء « مِنْ حَيْثُ

لَمْ يَحْتَسِبُوا « أَى لَمْ يَظَنُّوا » وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ « أَى أَنزَلَهُ إِزَالًا شَدِيدًا فِيهَا ، لدلالة مادة (القذف) عليه ، كأنه مقذوف الحجارة .

قال القاشاني : أَى نظر بنظر القهر إليهم فتأثروا به ، لاستحقاقهم لذلك ، ومخالفة الحبيب ومشاقته ومضادته ، ولوجود الشك في قلوبهم ، وكونهم على غير بصيرة من أمرهم ، وبينته من ربهم ، إذ لو كانوا أهل يقين ما وقع الرعب في قلوبهم ، ولعرفوا رسول الله ﷺ بنور اليقين ، وآمنوا به فلم يخالفوه .

« يُخْرِبُونَ يُمُوتُهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ » أَى كيف حل بالمفسدين ما حل ونزل بهم ما نزل ، لتعلموا صدق الله في وعده ووعيده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَلَوْ لَا أَنَّ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ)

[٤] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) « وَلَوْ لَا أَنَّ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ » أَى الخروج من أوطانهم « لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا » أَى بالقتل والسبي ، كما فعل بإخوانهم بنى قريظة . « وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ » أَى الجلاء والعذاب « بِأَنَّهُمْ شَاقُوا » أَى خالفوا « اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أَى فيما نهاهم عنه من الفساد ، ونقض الميثاق . « وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أَى له في الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَا قَطَعْتُمْ مِّنْ لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ)

« مَا قَطَعْتُمْ مِّنْ لِّينَةٍ » أَى نخلة من نخيلهم إغاطة لهم « أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً »

عَلَىٰ أَصُولِهِمَا فَيَا ذُنَّ اللَّهِ « أَى أمره ورضاه ، لأن ذلك ليس للبعث والإضرار، بل لتأييد قوة الحق ، وتصلب أهله ، وإرهاب المبطلين وإذلالهم ، كما قال تعالى « وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ » أَى لما فيه من إهانة العدو ، وإضعافه ونكايته .

تنبيه :

ذكر علماء الأخبار وأئمة السير ، أن سبب الأمر بجلاء بنى النضير هو نقضهم العهد . قال الإمام ابن القيم : لما قدم النبي ﷺ المدينة ، صار الكفار معه ثلاثة أقسام ، قسم صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ، ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم ، آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصلحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه . ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن . ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم . ومنهم من دخل معه في الظاهر ، وهو مع عدوه في الباطن ، ليأمن الفريقين ، وهؤلاء هم المنافقون . فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمر به ربه - تبارك وتعالى - فصالح يهود المدينة ، وكتب بينهم كتاب أمن ، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة : بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة . فكانت بنو قينقاع أول من نقض ما بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ، وحاصروهم ﷺ ، ثم أمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها . ثم نقض العهد بنو النضير . وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إليهم يستعينهم في دية قتيلين من بنى عامر ، وجلس رسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم ، فتأمروا على قتله ﷺ ، وأن يعالو رجل فيلقى صخرة عليه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم ، وصعد ليلقى عليه صخرة ، ونزل الوحي على الرسول صلوات الله عليه بما أراد القوم . فقام ورجع بمن معه من أصحابه إلى المدينة . وأمر بالتهيؤ لحربهم . ثم سار بالناس ، حتى نزول بهم فحاصروهم ست ليال ، فتحصنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل وتحريقها ، ثم قذف الله في قلوبهم الرعب ،

وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجلبهم ، ويكفّ عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، ففعل . فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل . فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف^(٢) بابه ، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت له خاصة يضمنها حيث شاء ، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار ، إلا أن سهل بن حنيف وأبادجانة ذكرا فقرا ، فأعطاهما رسول الله ﷺ ، ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان : يامين بن عمير ابن كعب ، وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين : ألم تر ما لقيت من ابن عمك ، وما هم به من شائي ؟ فجعل يامين بن عمير لرجل جملا على أن يقتل له عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون . ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها ، يُذكر فيها ما أصابهم الله به من نعمته ، وما سلط عليهم به رسول الله صلى عليه وسلم ، وما عمل به . فيهم . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ » أى أعاد عليه من أموال بني النضير « فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ » أى فما أجريتم على تحصيله خيلا ولا ركابا ، ولا تبعتم في القتال عليه ، وإنما مشيتم إليه على أرجلكم . و (الإيجاف) من الوجيف ، وهو سرعة التسير . و (الركاب) : ما يركب من الإبل ، غاب فيه كما غلب الراكب على راكبه . « وَلَكِنَّ »

(١) العتبة التي بأعلى الباب .

«اللَّهُ يَسْلِطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ» أى من أهل الفساد والإفساد ليقوم الناس بالقسط .
«وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

قال الزمخشري : المعنى أن ماخول الله رسوله من أموال بنى النضير ، شئ لم يحصلوه بالقتال والغلبة ، ولكن سلطه الله عليهم ، وعلى مافى أيديهم ، كما كان يسلط رسله على أعدائهم . فالأمر فيه مفوض إليه ، يضعه حيث يشاء . يعنى أنه لا يقسم قسمة الغنائم التى قوتل عليها ، وأخذت عنوة وقهراً . وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىٰ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ
مِنْكُمْ ، وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاتَّقُوا ،
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى » أى من أموال محاربيها ، وهويان
للأول ، ولذا لم يعطف عليه ، « فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَابْنِ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ » أى النىء الذى حقه أن يكون لمن ذكر « دُولَةً بَيْنَ
الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » أى يتداولونه وحدهم دون من هم أحق به . أو دولة جاهلية ، إذ كان
من عواندهم استئثار الرؤساء والأغنياء بالغنائم دون الفقراء « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ » أى
من قسمة غنيمة أو فىء « فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ » أى عن أخذه منها « فَاتَّقُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى لمن خالفه إلى مانهى عنه .

تنبيهات :

الأول - قال السيوطي في (الإكليل) : استدل بالآية على أن (النبي) ما أخذ من الكفار بلا قتال ، وإيجاف خيل وركاب ، ومنه ما جلوا عنه خوفاً . و (الغنيمة) ما أخذ منهم بقتال ، كما تقدم في (١) قوله : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ ...) الآية ، خلافاً لمن زعم أنهما بمعنى واحد ، أو فرق بينهما بغير ذلك . انتهى .

وكان الذي زعم أنهما بمعنى واحد رأى أن مجمل هذه الآية بيّنه آية الأنفال ، حتى زعم قتادة أن هذه منسوخة بتلك . قال - فيما رواه عنه ابن جرير (٢) - : كان النبي في هؤلاء ثم نسخ ذلك في سورة الأنفال فقال : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) وجعل الخمس لمن كان له النبي في سورة الحشر . وكانت الغنيمة تقسم خمسة أخماس . فأربعة أخماس لمن قاتل عليها ، ويقسم الخمس الثاني على خمسة أخماس : فخمس لله وللرسول ، وخمس لقرابة رسول الله ﷺ في حياته ، وخمس لليتامى ، وخمس للمساكين ، وخمس لابن السبيل .

والمسألة مبسطة في مطولات الفروع .

الثاني - قال الزمخشري : الأجود أن يكون قوله تعالى (وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) الآية - عامّاً في كل ما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه . وأمر النبي داخل في عمومه .

وفي (الإكليل) : فيه وجوب امتثال أوامره ونواهيه ﷺ .

قال العلماء : وكل ما ثبت عنه ﷺ ، يصح أن يقال إنه في القرآن ، أخذاً من هذه الآية . انتهى .

(١) [٨ / الأنفال / ٤١] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وهذا الأخير من غلو الأتريين ، والإغراق في الاستنباط .
ثم بين تعالى من أصناف من تقدم ، الأحق بالعناية والرعاية ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)
« لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ » أى من مواطنهم
ومأولفاتهم « يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ » أى من المعلوم والفضائل الخلقية « وَرِضْوَانًا »
أى منه ، وهو أعظم ما يرغب فيه ، « وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى يبذل النفوس لقوة
اليقين « أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » قال القاشانى : أى فى الإيمان اليقينى لتصديق أعمالهم
دعواهم ، إذ علامة وجدان اليقين ظهور أثره على الجوارح ، بحيث لا يمكن حركاتها إلا على
مقتضى شاهدتهم من العلم .

ثم أشار إلى أن إثبات هؤلاء بالمطاء مما تطيب به نفوس إخوانهم الأنصار ، لحرصهم ، رضى
الله عنهم ، على الإيثار دون الاستئثار ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ
وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)
« وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ » أى دار الهجرة . أى توطئوها « وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ »
أى من قبل مجيء المهاجرين إليهم . وعطف (الإيمان) قيل : بتقدير عامل . أى وأخلصوا

الإيمان . وقيل : استعمل التبوؤ في لازم معناه ، وهو اللزوم والتمسك . والمعنى : لزموا الدار والإيمان . وجوز أيضا تنزيل الإيمان منزلة المكان الذى يتمكن فيه ، على أنه استعارة بالكناية ، ويثبت له التبوؤ على طريق التخييل .

« يُجِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ » أى لوجود الجنسية فى الصفاء ، والموافقة فى الدين والإخاء . قال الشهاب : المراد بمحببتهم المهاجرين هنا ، مواساتهم ، وعدم الاستئقال والتبرؤ منهم ، إذا احتاجوا إليهم ، فالحبة كناية عما ذكر ، كما قيل :

ياأخى ! واللبيب ، إن خان دهره ، يستبين العدو ممن يحب
« وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ » أى فى أنفسهم « حَاجَةً » أى طلباً أو حسداً « مِمَّا أُوتُوا » أى مما أوتى المهاجرون من الفى وغيره ، لسلامة قلوبهم ، وطهارتها عن دواى الحرص . « وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » أى حاجة وفاقة .
قال القاشانى : لتجردهم وتوجههم إلى جناب القدس ، وترفعهم عن مواد الرجس ، وكون الفضيلة لهم أمراً ذاتياً ، باقتضاء الفطرة ، وفرط محبة الإخوان بالحقيقة ، والأعوان فى الطريقة . فتقدمهم أصحابهم على أنفسهم ، لمكان الفتوة ، وكمال المروءة ، ولقوة التوحيد ، والاحتراز عن حظ النفس .

تنبيه :

فى (الإكمال) : فى الآية مدح الإيثار فى حظوظ النفس والدنيا . انتهى .
وقال ابن كثير : هذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى (١) « وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » ، وقوله (٢) « وَآتَىٰ أُمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ » (فإن هؤلاء تصدقوا ، وهم يحبون ما تصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ، ولا ضرورة به . وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تصدق الصديق

(١) [٧٦ / الإنسان / ٨] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

رضى الله عنه بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال رضى الله عنه : أبقيت لهم الله ورسوله ! وهكذا الماء الذى عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فشكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل ، أحوج ما يكون إلى الماء ، فردّه الآخر إلى الثالث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ، ولم يشربه أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

«وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ» أى فيخالفها فيما يغلب عليها من حب المال، وبغض الإتيان . «فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» أى الفائزون بالسعادتين . وفى إضافة الشح إلى النفس إشارة لما قاله القاشاني من أن النفس مأوى كل شر ووصف ردى ، وموطن كل رجس وخلق دنى . والشح من غرائزها المعجونة في طينتها ، لملازمتها الجهة السفلية ، ومحبتها الحظوظ الجزئية ، فلا ينتفى منها إلا عند انتفائها . ولكن المعصوم من تلك الآفات والشرور ، من عصمه الله .

قال ابن جرير^(١) : الشح فى كلام العرب البخل ، ومنع الفضل من المال . والعلماء يرون أن الشح فى هذا الموضع إنما هو أكل أموال الناس بغير حق . ثم روى أن رجلاً أتى ابن مسعود فقال : يا أبا عبد الرحمن ! إنى أخشى أن تكون أصابتنى هذه الآية (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وأنا رجل شحيح ، لا يكاد يخرج من يدي شيء ! قال : ليس ذاك بالشح الذى ذكر الله فى القرآن ، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً . ذلك البخل ، وبئس الشيء البخل ! انتهى .

والظاهر أنه عني بالعلماء علماء الأثر ، لأنه لم يفسر إلا بالمأثور . ولعل ابن مسعود فسر الآية بذلك ، لدلالة سياقها عليه ، إذ القصد ترهيد الأنصار فى أن تطمح أنفسهم لما جعل للمهاجرين دونهم . أو هو يرى الفرق بين الشح والبخل بما ذكره . وعلى كل ، فلا يتعين تأويل الآية بما ذكره ، بل هى مما تحتمله .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وعن ابن زيد في الآية قال : من وُقِيَ شح نفسه فلم يأخذ من الحرام شيئاً ، ولم يقربه ، ولم يدعه الشح أن يحبس من الحلال شيئاً ، فهو من المفلحين .

وروى ابن جرير^(١) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : برئ من الشح من أدّى الزكاة ، وقرى الضيف ، وأعطى في النأبة .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، وإياكم والشح فإنه أهلك من قبلكم : أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا .

وعن أبي هريرة^(٣) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

« وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ »

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) . والحديث

رقم ٦٤٨٧ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه النسائي في : ٢٥ - كتاب الجهاد ، ٨ - باب فضل من عمل في سبيل الله

على قدمه .

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ « يعنى بالذين جاءوا من بعدهم ، الذين هاجروا حين قوى الإسلام من بعد الذين هاجروا مُخْرَجِينَ من ديارهم . فالمراد بجيئهم إلى المدينة بعد مدة . والحجى حسى . وقيل : هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة . فالجىء إما إلى الوجود ، أو إلى الإيمان . ونظير هذه الآية ، آية براءة^(١) : (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) .

قال الشهاب : والمراد بدعاء اللاحق للسابق ، والخلف للسلف ، أنهم متبعون لهم . أو هو تعليم لهم بأن يدعوا لمن قبلهم ، ويذكروهم بالخير .

تنبيه :

جعل الزخشرى قوله (وَالَّذِينَ) عطفاً على (الْمُهَاجِرِينَ) كالوصول قبله في قوله : (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا ...) الخ ، فيسكون قوله (يُحِبُّونَ) وقوله (يَقُولُونَ) حالين . وجوز السمين : وجهاً ثانياً ، وهو كون الموصول فيهما مبتدأ ، وما بعده خبره . وعندى أن هذا هو الوجه ، وماقبله تكلف ، وأن الموصولين مستأنفان لمُدح إيمان الأنصار والتابعين لهم بتلك الأخلاق الفاضلة ، والخصال السكاملة . وما حمل الزخشرى ومن تابعه على الاقتصار على الوجه الأول إلا لتشمل أصناف من يستحق الفىء من فقراء كل ، كأنه قيل : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا ...) الخ ، (وَ) لِلْفُقَرَاءِ (الَّذِينَ تَبَوَّءُوا ...) الخ وللفقراء الذين جاءوا من بعدهم ... الخ ، مع أن سياق الآيات المذكورة ، ورعاية وقت نزولها ، والمهاجرون في جهد ، والأنصار في سعة ورغد يقضى بأن المقصود منها للفىء ، هو فقراء المهاجرين خاصة ، وأن الذين تبوءوا الدار في غنى وعدم تشوف إليه ، لشدة محبتهم لإخوانهم ، بل رغبتهم في إشارهم . ثم بين تعالى حال من يجىء بعدهم بأنه يثنى على من سبقه ، ويدعوه لاتبهاجاً بما

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] .

أتوا ، واغترباطاً بما عملوا ، لأنهم بين مهاجر عن أهله وأمواله ، محبة في الله ورسوله ، وبين حب لمن هاجر ، مكرم له ، بل مؤثر إياه ، مما أشفّت عن قوة الإيمان ، والإخلاص في تدعيم روابط الإيمان . هذا هو الظاهر من نظم الآيات السكرية ، وذوق سوقها . وأما فقراء الصنفين الآخرين ، فإنهم يستحقون من النفي قياساً على الصنف الأول ، لاشتراكهم في الفقر . إلا أنه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك أحد من الأنصار في تلك الواقعة فقراً ، إلا سهلاً وأباً دجاةً - كما تقدم - فأعطاهما صلى الله عليه وسلم . وأما في غيرها من الوقائع التي كثرت فيها المغانم ، فقد كان حظهم منها ما هو معروف ومبين في آيات آخر ، فإن التنزيل الكريم يبين مقاسم الأموال لذويها في عدة آيات .

روى ابن جرير ^(١) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ ^(٢) (إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ) حتى بلغ (عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ ^(٣) (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ . . .) الآية ، ثم قال : هذه الآية لهؤلاء . ثم قرأ ^(٤) (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) حتى بلغ ^(٥) (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ) ثم قال : استوعبت هذه الآية المسلمين عامة ، فليس أحد إلا له فيها حق . ثم قال لئن عشت لياثنين الراعي ، وهو يسير حُرّه ، نصيبه ، لم يعرق فيها جبينه !

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

(١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٩ / التوبة / ٦٠] . (٣) [٨ / الأنفال / ٤١] .

(٤) [٥٩ / الحشر / ٧] . (٥) [٥٩ / الحشر / ١٠] .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ »
يعنى بنى النضير المتقدم ذكرهم . وأخوتهم معهم أخوة دين واعتقاد ، أو أخوة صداقة وموالات
لأنهم كانوا معهم سرّاً على المؤمنين « لَئِنْ أَخْرَجْتُمْ » أى من دياركم « لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ
وَلَا نَطِيعُ فَيْكُمْ » أى فى خذلانكم « أَحَدًا أَبَدًا » أى من الرسول صلوات الله عليه ،
والمؤمنين « وَإِنْ قُوَّتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ » أى لنعاونكم .

قال ابن جرير^(١) : ذكر أن الذين نافقوا هم عبد الله بن أبى ابن سلول ، ووُدِعة ومالك
ابنا نوفل ، وسُوَيد ، وداعس . بعثوا إلى بنى النضير حين نزل بهم رسول الله ﷺ للحرب
أن اثبتوا وتمنعوا ، فإننا لن نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم .
فتربصوا لذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دماءهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم ، إلا الحلقة ، كما تقدم .
« وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ
نَصَرُوهُمْ لَيُولَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ)

« لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ
لَيُولَنَّ الْأَدْبَارَ » أى منهزمين ، « ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ » أى بنوع ما من أنواع النصر .
والضمير للمنافقين أو اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (لَا تَتَمَنَّوْا أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)
« لَا تَتَمَنَّوْا أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » أى

(١) انظر الصفحة رقم ٤٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

هم رهبونكم أشد من رهبتهم من الله ، لاحتجابهم بالخلق عن الحق ، بسبب جهلهم بالله ، وعدم معرفتهم له ، إذ لو عرفوه لشعروا بعظمته وقدرته وعلمه ، ولم يستخفوا بمعاصيه ، ويستخفوا بأوامره . والضمير للمنافقين أو اليهود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) « لَا يُقَاتِلُوا نَكُمْ » أى اليهود وإخوانهم « جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ » أى بالحصون ، فلا يبرزون إلى البراز « أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ » أى من خلف حيطان ، لفرط رهبتهم منكم . « بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ » . قال الزمخشري : يعنى أن البأس الشديد الذى يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة ، لأن الشجاع يجبن ، والعزير يذل ، عند محاربة الله ورسوله . انتهى .

« تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى » أى تظنهم مجتمعين لاتفاقهم فى الظاهر ، والحال أن قلوبهم متفرقة ، لاختلاف مقاصدها ، وتجاذب دواعيها ، وتفرقها عن الحق بالباطل . « ذَلِكَ » قال المهايى : أى الاجتماع فى الظاهر ، مع افتراق البواطن ، « بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ » أى أنه يوجب جنبهم المفضى إلى الهلاك الكلى . انتهى .

وفى هذه الآيات الثلاث تشجيع للمؤمنين على منازلهم ، والجل عليهم ، وتبشير لهم بأنهم المفصولون الغالبون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ، ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى

مثل هؤلاء اليهود من بنى النصير ، فيما نزل بهم من العقوبة ، كمثل من نالهم جزاء بغيرهم من قبلهم ، وهم كفار قريش في وقعة بدر ، أو بنو قينقاع . قال ابن كثير : والثاني أشبه بالصواب ، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم قبل هذا . انتهى .

قال قتادة : إن بنى قينقاع كانوا أول يهود تقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد . وكان من أمرهم أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فحملوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت . فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ، فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سواتها ، فضحكوا بها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى الشام - والتفصيل في السير - .

وقال ابن جرير^(١) : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال إن الله عز وجل مثل هؤلاء الكفار من أهل الكتاب ، مما هو مديقهم من نكاله ، بالذين من قبلهم من مكذبى رسوله صلى الله عليه وسلم ، الذين أهلكتهم بسخطه . وأمر بنى قينقاع ، ووقعة بدر ، كانا قبل جلاء بنى النصير . وكل أولئك قد ذاقوا وبال أمرهم ، ولم يخص الله عز وجل منهم بعضاً في تمثيل هؤلاء بهم دون بعض . وكل ذائق وبال أمره ، فمن قربت مدته منهم قبلهم ، فهم ممثلون بهم فيها عناؤه من المثل . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[١٧] (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

« كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ » أى مثل المنافقين في إغراء بنى النضير على القتال، ووعدهم النجدة أو الخروج معهم، ومثل الخداع بنى النضير بوعده أولئك الكاذب، كمثل الشيطان « إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ » أى إذ غرّ إنسانا ووعدته على اتّباعه وكفره بالله، النصرّة عند الحاجة إليه « فَلَمَّا كَفَرَ » أى بالله، واتبعه وأطاعه « قَالَ » أى مخافة أن يشركه في عذابه، مسلماً له وخاذلاً « إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ » أى فلا أعميك « إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » أى في نصرتك فلم ينفعه التبرؤ، كما لم ينفع الأول وعده الإعانة « فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ » أى في حق الله تعالى، وحق العباد. أى وهكذا جزاء اليهود من بنى النضير والمنافقين، الذين وعدوهم النصرّة. وكل كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به. إنهم في النار مخلدون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مِّمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ،

إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ » أى بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه .

قال المهابي : يعنى أن مقتضى إيمانكم أن لا تأمنوا مكر الله، فاتقوه أن يسلط عليكم الشيطان ليفويسكم بالسفر، ثم يتبرأ منكم .

« وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مِّمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ » أى لما بعد الموت من الصالحات « وَاتَّقُوا اللَّهَ »

إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى فيجازيكم بحسبها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » قال ابن جرير^(١) : أى لا تكونوا كالذين تركوا أداء حق الله الذى أوجبه عليهم ، فأنساهم حظوظ أنفسهم من الخيرات .

وقال القاشانى : (نَسُوا اللَّهَ) أى بالاحتجاب بالشهوات الجسائية ، والاشتغال بالذات النفسانية (فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) حتى حسبواها البدن وتركيبه ومزاجه ، فذهلوا عن الجوهرة القدسية ، والفطرية النورية .

وقال ابن القيم فى (دار السعادة) : تأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً . وهو أن من نسى ربه ، أنساه ذاته ونفسه ، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه ، بل نسى ما به صلاحه وفلاحه ، فى معاشه ومعاده ، فصار معطلاً مهملاً ، بمنزلة الأنعام السائبة ، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه ، لبقائها على هداها الذى أعطاها إياه خالقها . وأما هذا نخرج عن فطرته التى خلق عليها ، فنسى ربه ، فأنساه نفسه وصفاتها ، وما تكمل به ، وتركوبه ، وتسعد به فى معاشها ومعادها . قال تعالى^(٢) (وَلَا تَطِغْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ وَ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) فغفل عن ذكر ربه ، فانقرط عليه أمره وقلبه ، فلا التفات له إلى مصالحه وكاله ، وما تركوبه نفسه وقلبه ، بل هو مشقت القلب مضيعه ، مفرط الأمر ، حيران لا يهتدى سبيلاً . فالعلم بالله أصل كل علم ، وهو أصل علم العبد بسعادته وكاله ، ومصالح دنياه وآخرته . والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكالها ، وما تركوبه وتفلق به . فالعلم به سعادة العبد ، والجهل به أصل شقاوته . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٢ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٨ / الكهف / ٢٨] .

« أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أى : الذين خرجوا عن الدين القيم الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وخانوا وغدروا ، ونبذوا عهد الله وراء ظهورهم ففسدوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)

« لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ » وهم الناسون الغادرون « وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ » وهم المؤمنون المتقون الموفون بمعهدهم . « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » أى : بالنعيم المقيم .

تنبيهان

الأول - قال الزمخشري : استدل أصحاب الشافعي رضى الله عنه بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر . انتهى .

وردة الاستدلال بذلك أحد أئمة الشافعية ، وهو برهان الدين فى (تفضيل السلف على الخلف) بما مثاله :

احتج بهذه الآية بعض الشافعية فى مسألة قتل المسلم بالذمي . وهذا فى غاية الضعف ، لأن أحداً لم يسوّ بينهما . وإيجاب القصاص ليس بتسوية ، لأنه ما من متباينين فى وجوه ، إلا وقد استويا فى وجه أو وجوه . فلا يكون إيجاب القود استواء ، كما لا يكون إيجاب الدية والكفارة استواء . فهذا كلام من ضعف نظره فى مورد الانتزاع من شواهد الفرقان . انتهى .

الثانى - قال أبو السعود : لعل تقديم أصحاب النار فى الذكر للإيدان من أول الأمر بأن القصور الذى ينبنى عنه عدم الاستواء ، من جهتهم ، لا من جهة مقابلتهم . فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين ، زيادة ونقصاناً ، وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد ، لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص ، وعليه قوله تعالى ^(١) (هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى

(١) [١٣ / الرعد / ١٦] .

وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) إلى غير ذلك من المواقع . وأما قوله ^(١) تعالى (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) فاعمل تقديم الفاضل فيه ، لأن صلاته ملكة لصلة الفضول والأعداء مسبوقة بملكاتها . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِنَاسٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ » أى الجامع للمواعظ ، الموجب للنظر والتقوى بكل حال ، « عَلَى جَبَلٍ » قال المهايى أى بتفهيمه له ؛ وتسكينه بما فيه ، بمد إعطاء القوى المدركة والحركة « لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا » أى متدلاً لمظمة الله « مُّتَصَدِّعًا » أى متشققاً « مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » أى مع عظم مقداره ، وغاية صلابته ، وتناهى قساوته . قال القاشانى : أى قلوبهم أقسى من الحجر فى عدم التأثر والقبول ، إذ الكلام الإلهى باغ من التأثير مالا إمكان للزيادة وراءه ، حتى لو فرض إنزاله على جبل لتأثر منه بالخشوع والانصداع « وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » أى وتلك الأمور ، وإن كانت وهمية ، مفروضة ، فلا بد من اعتبارها وضربها للناس الذين نسوا صغر مقدارهم فتكبروا ، ولينهم فقس قلوبهم « لَّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أى ليعلموا أنهم أولى بذلك الخشوع والتصدع .

قال الزمخشري : الآية تمثيل كما مرّ في ^(٢) قوله (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ) وقد دل عليه قوله (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ) والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وقلة تخشعه ، عند تدبر القرآن ، وتدبر قوارعه وزواجه .

ثم أشار تعالى إلى أنه كيف يترك الخشوع لذات الله وأسمائه ، مع أنه :

(١) [٣٩ / الزمر / ٩] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٧٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

[٢٣] (هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِمِّنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٢٤] (هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ، لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » أى المعبود الذى لا تنبغى العبادة والألوهية إلا له .
 « عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أى ما غاب عن الحس وما شهود « هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » أى
 المنعم بالنعم العامة والخاصة . ومن كان مطلقاً على الأسرار يجب أن يخشع له ، ويخشى منه ،
 لا سيما من حيث كونه منعماً . إذ حق المنعم أن يخشع له ، ويخشى أن تسلب نعمه « هُوَ اللَّهُ
 الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمِكُ » أى الغنى المطلق ، الذى يحتاج إليه كل شىء ، المدبر للكل
 فى ترتيب نظام لا أكمل منه « الْقُدُّوسُ » أى المنزه عما لا يليق بجلاله ، تنزهاً بليغاً « السَّلَامُ »
 أى الذى يسلم خلقه من ظلمه ، أو المبرأ عن النقائص كالعجز « الْمُؤْمِنُ » أى لأهل اليقين
 بإزالة السكينة ، ومن فزع الآخرة « الْمُهِمِّنُ » أى الرقيب على كل شىء باطلاعه واستيلائه
 وحفظه « الْعَزِيزُ » أى القوى الذى يغلب ولا يغلب « الْجَبَّارُ » أى الذى تنفذ مشيئته على
 سبيل الإيجاب فى كل أحد ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، والذى لا يخرج أحد عن قبضته - قاله
 الغزالى فى (المقصد الأسنى) - .

وقال الإمام ابن القيم فى (الكافية الشافية) :

وكذلك (الجبار) من أوصافه والجبر فى أوصافه قِسْمَانِ

جبرُ الضعيف . وكل قلب قد غدا ذا كسرة ، فالجبرُ منه داني
والثانِ جبرِ القهرِ بالعزِّ الذي لا ينبغي لسواه من إنسانِ
وله مسمًى ثالثٌ وهو العا و فليس يدنو منه من إنسانِ
من قولهم (جِبَارَةٌ) للنخلة ال مليا التي فأتَتْ بكل بَنَانِ
« الْمُتَكَبِّرُ » أى الذى يرى السكل حقيراً بالإضافة إلى ذاته ، ولا يرى العظمة والكبرياء
إلا لنفسه ، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد . « سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى من
الأوثان والشفعاء . « هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ » أى المَقْدَرُ للأشياء على مقتضى حكمته .
« الْبَارِئُ » أى الموجد لها بعد عدم . « الْمُصَوِّرُ » أى السكائنات كما شاء . « لَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى » أى الدالة على محاسن المعاني ، وأحسن المادح . « يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » أى فى تدبيره خلقه ، وصرفهم فيما فيه صلاحهم
وسعادتهم .

تنبيهات :

الأول - قال السيد ابن المرتضى فى (إيثار الحق) : مقام معرفة كمال الرب الكريم ،
وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى ، من تمام التوحيد الذى لا بد منه . لأن كمال الذات
بأسمائها الحسنى ، ونعوتها الشريفة . ولا كمال لذاتٍ لا نعت لها ولا اسم . ولذلك عُدَّ مذهب
الملاحدة فى مدح الرب بنفيها ، من أعظم مكايدهم للإسلام ، فإنهم عكسوا المعلوم عقلاً وسمياً
فذموا الأمر الحمود ، ومدحوا الأمر المذموم ، القائم مقام النقي ، والجحد المحض ، وضادوا
كتاب الله ونصوصه الساطعة . قال الله جل جلاله ^(١) (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ
بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) . وقال سبحانه وتعالى ^(٢) (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ
أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) . فما كان منها منصوصاً فى كتاب الله

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

وجب الإيمان به على الجميع ، والإنكار على من جحد ، أو زعم أن ظاهره اسم ذم لله سبحانه . وما كان في الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته . وما نزل عن هذه المرتبة ، أو كان مختلفاً في صحته ، لم يصح استعماله ، فإن الله أجل من أن يسمى باسم لم يُتحقق أنه تسمى به .

ثم قال : وعادة بعض المحدثين أن يوردوا جميع ما ورد في الحديث المشهور في تعدادها ، مع الاختلاف الشهير في صحته . وحسبك أن البخاري ومسلماً تركا تخريجه مع رواية أوله . واتفاقهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه . ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم في وعده من أحصاها بالجنة ، كما اتفق على صحته . وليس يستيقن إحصاؤها بذلك إلا لو لم يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء ، فأما إذا كانت أسماءها سبحانه أكثر من أن تحصى ، بطل اليقين بذلك ، وكان الأحسن الاقتصار على ما في كتاب الله ، وما اتفق على صحته بعد ذلك ، وهو النادر . وقد ثبت أن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المروى بالضرورة والنص .

ثم أطال رحمه الله في ذلك وأطاب . فليرجع إليه النهم بالتحقيقات .
الثاني - قال الغزالي في (المقصد الأسنى) - وهو من أنفس ما ألف في معاني الأسماء الحسنى - : هل الصفات والأسامى المطلقة على الله تعالى تقف على التوقيف ، أو تجوز بطريق العقل ؟ والذي مال إليه القاضي أبو بكر الباقلاني أن ذلك جائز ، إلا ما منع منه الشرع ، أو أشعر بما يستحيل معناه على الله تعالى . فأما ما لا مانع فيه فإنه جائز . والذي ذهب إليه الشيخ أبو الحسن الأشعري ، رحمه الله عليه ، أن ذلك موقوف على التوقيف ، فلا يجوز أن يطلق في حق الله تعالى ما هو موصوف بمعناه ، إلا إذا أذن فيه .

والختار عندنا أن نقص ونقول : كل ما يرجع إلى الاسم ، فذلك موقوف على الإذن ، وما يرجع إلى الوصف ، فذلك لا يقف على الإذن ، بل الصادق منه مباح دون الكاذب . ثم جود رحمه الله البيان بما لا غاية بعده .

الثالث - قال السيد ابن المرتضى في (إيثار الحق) : قد تكلم على معانيها جماعة من أهل العلم والتفسير ، وأكثرها واضح ، والعصمة فيها عدم التشبيه ، واعتقاد أن المراد بها أكمل معانيها ، السكّال الذي لا يحيط بحقيقته إلا الله تعالى .

ثم قال : ولا بد من الإشارة هنا إلى أمر جليّ ، وهو أصل عظيم ، وذلك تفسير الحسنى جملة : فاعلم أنها جمع (الأحسن) لا جمع الحسن . وتحت هذا سر تقيس : وذلك أن (الحسن) من صفات الألفاظ ، ومن صفات المعاني . فكل لفظ له معنيان حسن وأحسن ، فالمراد الأحسن منهما حتى يصح جمعه على (حُسْنَى) ، ولا يفسّر بالحسن منهما إلا الأحسن بهذا الوجه . ثم يبين مثال ذلك فانظره .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٠ - سُورَةُ الْمُتَحَنِّةِ

بفتح الحاء ، وقد تسكسر . فعلى الأول هي صفة المرأة التي نزلت فيها . وعلى الثاني صفة
السورة ، كما قيل لبراءة (الفاضحة) - كما في (الأعلام) - .
قال المهايي : سميت بها لدلالة آية الامتحان على أنه لا يكتفى في باب الصحة بظواهر
الأدلة كالمهجرة ، بل لابد من اختبار البواطن . فدلائل الاعتقادات أولى بذلك . وهذا من
أعظم مقاصد القرآن . انتهى .
وفي (جمال القراء) أنها تسمى سورة الامتحان ، وسورة المودة . وهي مدنية . وآيها
ثلاث عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ءَوِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ءَوِيَاءَ» أى أنصاراً . نهى لأصحاب النبي صلوات الله عليه ، عن موالاته مشركى مكة المحاربين لله ولرسوله وقتئذ ، لما فيها من الفتنة بالدين وأهله كما يأتى . «تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ» أى صميم المحبة ، والباء زائدة فى المفعول «وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ» أى من الإيمان بالله ورسوله وكتابه ، الذى هو نهاية الهدى ، وغاية السعادة .

ثم أشار إلى أنه لم يكفهم ذلك حتى آذوا المؤمنين ، بما يقطع العلائق معهم رأساً ، بقوله «يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ» أى من أرضكم ودياركم «أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ» أى يخرجونكم لإيمانكم بالله ، الجامع للكمالات المقتضية انقياد الناقص له ، لاسيما باعتبار اتصافه بوصف كونه رباً لكم بالكمالات ، فهى بالحقيقة عداوة مع الله .

قال ابن كثير: هذا مع ما قبله من التهميش على عداوتهم ، وعدم موالاتهم ، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم ، كراهة لما هم عليه من التوحيد ، وإخلاص العبادة لله وحده . ولهذا قال تعالى : (أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ) أى لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم

بالله رب العالمين كقوله تعالى (١) (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) وكقوله تعالى (٢) (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) وقوله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ » أى هاجرتم « جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَأُبْعِغَاءَ مَرْضَاتِي » أى للجهاد فى طريق الذى شرعته لكم ، ودينى الذى أمرتكم به ، والتماس رضائى عنكم الذى لا ثواب فوقه ، والشرط متعلق بـ (لَا تَتَّخِذُوا) أى لا تتولوا أعدائى إن كنتم أوليائى « تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ » أى من المودة معهم وغيرها « وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ » أى اتخاذهم أولياء « فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » أى جازع عن السبيل السوى الذى جعله الله هدى ونجاة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالْسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ)

« إِنْ يَتَّقَوْكُمْ » أى يظفروا بكم « يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً » أى حرباً ، ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم « وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالْسُّوءِ » أى بما يسوؤكم كالقتل والشتم ، « وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ » أى بما جاءكم من الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ » أى قراباتكم « وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ » أى بإثابة المؤمنين ، ومعاقبة العاصين .

(١) [٨٥ / البروج / ٨] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٠] .

وقال القاشاني : أى لا نفع لمن اخترتم موالاته العدو الحقيقي لأجله ، لأن القيامة مفارقة . وهذا معنى قوله (يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ) أى يفصل الله بينكم وبين أرحامكم وأولادكم كما قال (١) (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ * وَأَبْنَيْهِ * وَصَاحِبَتِهِ * وَبَنِيهِ) انتهى ، وهو تأويل جيد .

لطيفة :

قال السمين : يجوز في (يَوْمَ الْقِيَمَةِ) وجهان :

أحدها - أن يتعلق بما قبله ، أى لن تنفعكم يوم القيامة ، فيوقف عليه ، ويبتدأ بـ « يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ » .

والثاني - أن يتعلق بما بعده أى يفصل بينكم يوم القيامة ، فيوقف على (أولادكم) ، ويبتدأ بـ (يَوْمَ الْقِيَمَةِ) .

« وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم عليه .

تنبيهات

الأول - قال ابن جرير (٢) : ذكر أن هذه الآيات ، من أول هذه السورة ، نزلت في شأن حاطب بن أبى بلتعة ، وكان كتب إلى قريش بمكة يطلعهم على أمر كان رسول الله ﷺ قد أخفاه عنهم - ثم ساق الروايات - .

وأما رواية البخاري (٣) فعن علي رضي الله عنه قال : بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد ، فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فذهبنا تمادى بنا خيلنا ، حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجى الكتاب ،

(١) [٨٠ / عبس / ٣٤ - ٣٦] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) أخرجه في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٤١ - باب الجاسوس ، حديث رقم ١٤٢٩

فقلت : مامعى من كتاب ! فقلنا : لتخرجنَّ الكتاب ، أو لنلقينَّ الثياب . فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه :
من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين ، يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال النبي ﷺ : ما هذا يا حاطب ؟ قال : لا تمجل على يارسول الله ! إني كنت امرءاً من قريش ، ولم أكن من أنفسهم . وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون قرابتي . وما فعلت ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن ديني . فقال النبي ﷺ : إنه قد صدقكم . فقال عمر : دعني يارسول الله فأضرب عنقه ! فقال : إنه شهد بداراً ، وما يدريك ، لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم !
قال عمرو بن دينار - راوى الحديث - ونزلت فيه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي ...) الآيات .

قال ابن كثير : كان حاطب هذا رجلاً من المهاجرين ، ومن أهل بدر . وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان . فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة ، لما نقض أهلها العهد ، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهز لغزوهم وقال : اللهم عمّ عليهم خبرنا . فعمد حاطب هذا ، فكتب كتاباً إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً - كما ذكر في الحديث - .

الثانى - قال ابن كثير : يعنى تعالى بقوله (لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) المشركين والكفار ، الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين ، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء ، كما قال تعالى ^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) [٥ / المائدة / ٥١] .

لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَمِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) ، وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد . وقال تعالى (١) (يَسَاءَ لَهُمُ الْوُتُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافَّةَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفَّتُم مِّنْهُنَّ) . وقال تعالى (٢) (يَسَاءَ لَهُمُ الْوُتُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا) . وقال تعالى (٣) (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْمَةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ) ولهذا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عذر حاطب ، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد . انتهى .

أى أنه قبل عذره فيما قام في ظنه من كون ذلك ليس بكبيرة ، وإن أخطأ . والمجتهد المخطئ معذور . وقد تبين خطؤه بصريح النهي عن معاودة مثله الذى لأجله نزلت السورة . ولذا قال الإمام إلكيا الهراسى : يؤخذ من الآية أن الخوف على المال والولد لا يبيح الفتنة في دين الله . وهو ظاهر ، وليس هذا من التقية ، لأنها في موضوع آخر . وقد بسط الكلام على الولاء والبراء السيد ابن المرتضى في (إثبات الحق) في المسألة الثامنة . قال (بعد أن أورد الآيات والأحاديث) : هذا كله في الحب الذى هو في القلب ، والمخالصة لأجل الدين ، وذلك للمؤمنين المتقين بالإجماع ، وللمسلمين الموحدين ، إذا كان لأجل إسلامهم وتوحيدهم عند أهل السنة . وأما المخالقة والمنافعة ، وبذل المعروف ، وكظم الغيظ ، وحسن الخلق ، وإكرام الضيف ، ونحو ذلك ، فيستحب بذله لجميع الخلق ، إلا ما كان يقتضى مفسدة كالذلة ، فلا يبذل للعدو في حال الحرب ، كما أشارت إليه الآية (لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ

(١) [٥ / المائدة / ٥٧] .

(٢) [٤ / النساء / ١٤٤] .

(٣) [٣ / آل عمران / ٢٨] .

سَمُ يَقْتُلُوكُمْ فِي الدِّينِ) - كما يأتي - وأما التقية ، فتجوز للخائف من الظالمين القادرين .
وأما الفرق بين ما يجوز من المنفعة والمداينة وما لا يجوز من الرياء ، فما كان من بذل المال
والمنافع فهو جائز ، وهو المنفعة ، وربما عبروا عنه بالمداينة والمدارة والمخالقة . وما كان من
أمر الدين فهو الرياء الحرام .

ومن كلام الإمام الداعي إلى الله تعالى ، يحيى بن الحسن عليه السلام في (الرسالة المخترسة ،
لأهل المدرسة) : لا يجوز أن تكون الموالات هي المتابعة فيما يمكن التأويل فيه ، لأن كثيراً
من أهل البيت عليهم السلام قد عرف بمتابعة الظلمة لوجه يوجب ذلك ، فتولى الناصر الكثير
منهم ، وصلى بهم الجمعة جعفر الصادق ، وصلى الحسن السبط على جنازتهم .
وذكر الإمام المهدي محمد بن المطهر عليهما السلام أن الموالات المحرمة بالإجماع ، هي
موالات الكافر لكفره ، والعاصي لمعصيته ، ونحو ذلك .

قال السيد : وهو كلام صحيح ، والحجة على صحة الخلاف فيما عدا ذلك أشياء كثيرة ، منها
قوله ^(١) تعالى في أول الدين أَلَمْشُرِكِينَ بِاللَّهِ (وَصَاحِبِهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) ومنها قوله ^(٢)
تعالى (لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يُقْتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ . . .) الآيتين . وفي
الحديث أنها نزلت في قتيلة أم أسماء ، بعد آيات التحريم ، رواه أحمد والبخاري والواحدي ،
وتأخرها واضح في سياق الآيات ، وقرينة الحال مع هذا الحديث . ولو لم يصح تأخر ذلك ،
فالخاص مقدم على العام عند جهل التاريخ عند الجمهور . ورجحه ابن رشد في (نهايته)
بالنصوصية على ما هو خاص فيه . ويدل عليه ما ثبت في القرآن والسنة الصحيحة المتفق
عليها من حديث علي عليه السلام في قصة حاطب ، على ما ذكره الله تعالى في أول سورة الممتحنة
- هذه - وذكره أهل الحديث وأهل التفسير جميعاً ، فإن رسول الله ﷺ عذره بالخوف على
أهله في مكة ، والتقية فيما لا يضر في ظنه .

(١) [٣١ / لقمان / ١٥] . (٢) [٦٠ / الممتحنة / ٨] .

فإن قيل : القرآن دال على أنه قد أذنب لقوله (وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) فكيف يقبل ما جاء من قبول عذره ؟

قلت : إنما قبل عذره في بقاءه على الإيمان ، وعدم موالاته المشركين لشركهم ، ولذلك خاطبه الله بالإيمان فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) والعموم نص في سببه . فاتفق القرآن والحديث . وأما ذنبه فإنه لا يحل مثل ما فعله لأحد من الجيش إلا بإذن أميرهم ، لقوله تعالى ^(١) (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ...) الآية . ولأن تحريم مثل ذلك بغير إذن الأمير إجماع ، ومع إذنه يجوز ، فقد أذن في أكثر من ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيلة في حفظ المال . فلو كان مثل ذلك موالاته لم يأذن فيه صلى الله عليه وسلم . فدل على أن ذنب حاطب هو الكتم ، لما فيه من الخيانة ، لانفس الفعل ، لو تجرد من الكتم والخيانة - والله أعلم - انتهى .

ويضاف إلى الكتم والخيانة ما أفادته الآية من التودد بذلك إليهم ، والمفاسدة لهم ، مما يشف عن كون الآتي بذلك منزلاً في عقده ، مضطرباً في حقه ، فيصبح عمله حجة على دينه ، ويكون ذلك سبباً لافتتان المشركين المفسدين بصحيح الدين القويم . وهذا هو السر في الحقيقة ، كما بينه آية ^(٢) (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا) وسيأتى بيانه . ثم علم تعالى عباده المؤمنين التأسي بإبراهيم عليه السلام في البراءة من المشركين ومصارمتهم ومجانبتهم ، بقوله سبحانه :

(١) [٤ / النساء / ٨٣] . (٢) [٦٠ / الممتحنة / ٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

«قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ» أى قدوة «حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ» أى أتباعه الذين آمنوا معه ، كلوط عليه السلام «إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ» يعنى الذين أشركوا بالله وعبدوا الطاغوت «إِنَّا بُرَءُؤُا» جمع برىء ، كظريف وظرفاء «مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ» أى بدينكم ومعبودكم . قال ابن جرير^(١) : أى أنكرنا ما أنتم عليه من الكفر بالله ، وجحدنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله أن يكون حقاً «وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ» أى لاصلح بيننا ولا مودة إلى أن تؤمنوا بالله وحده . أى توحدوه وتفردوه بالعبادة «إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» استثناء من قوله (أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) قال ابن جرير^(١) : أى قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه فى هذه الأمور التى ذكرناها ، من مباينة الكفار ومعاداتهم ، وترك موالاتهم ، إلا فى قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، فإنه لا أسوة لكم فيه فى ذلك ، لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن مودة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . يقول تعالى ذكره : فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله ، تبرءوا من أعداء الله المشركين به ،

(١) انظر الصفحة رقم ٦٢ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

ولا تتخذوا منهم أولياء ، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء ، حتى يؤمنوا بالله وحده ، ويتبرءوا عن عبادة ما سواه .

ثم روى عن مجاهد أنه قال في الآية : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه ، فيستغفروا للمشركين .

« وَمَا أَمَلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » أى وما أدفع عنك من عقوبة الله شيئاً إن أراد عقابك . والجملة من تمام المستثنى ، إلا أنه لا يلزم من استثناء المجموع استثناء عموم أفراده . ولذا قال الزمخشري : القصد إلى موعد الاستغفار وما بعده مبنى عليه ، وتابع له ، كأنه قال : أنا أستغفر لك ، وما فى طافتي إلا الاستغفار .

وقوله تعالى « رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » متصل بما قبل الاستثناء ، وهو من جملة الأسوة الحسنة ، أو أمر منه تعالى للمؤمنين بأن يقولوا ذلك ، تكميلاً لما وصّاهم به من قطع الصلات المضرة بينهم وبين المحاربين لهم . ومعنى (إِلَيْكَ أَنَبْنَا) أى إليك رجعنا بالتوبة مما تسكره ، إلى ما تحب وترضى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » قال مجاهد : أى لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . وكذا قال قتادة : أى لا نظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه . انتهى .

ومآل هذا الدعاء هو التعمود من مثل ما صنع حاطب ، مما يورث افتتان المشركين بالدين إذ يكون ذلك مدعاة لقولهم لو كان هؤلاء على حق ، وما يوعدون به من الظفر حق ، لما

صانعنا مؤمنهم ، فإذا ما هم عليه أمانى . فيتزلزل من كان فى نفسه الانتظام فى سلكهم ، والاستسعاد بحقهم . فى الآية معنى كبير ، وتأديب عظيم . أى : ربنا لا تجعلنا نهمل من ديننا ما أمرنا به ، أو نتساهل فيما عزم علينا منه ، حتى لا تنحل بذلك قوتنا ، ويتزلزل عمادنا ، ويفتح لعدو الدين الافتتان به ، لأن المؤمنين ما داموا متمسكين بأداب الدين ، محافظين عليها ، قاعمين بها حق القيام ، فإن النصر قائدهم والظفر رائدهم . ولذا أصبح المسلمون فى القرون الأخيرة بحالهم ، حجة على دينهم أمام عدوهم . ولا مسترد لقوتهم ، ومستعاد لمجدهم ، إلا بالرجوع إلى أصل كتابهم ، والعمل بأدابه ، والمحافظة على أحكامه ، ونبذ ما ألصق به ، مما يحرف كلفه ، ويجافى حقيقته . وللهكماء فى هذا الموضوع مقالات معروفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ،
وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » تكرير لوجوب التأسى بإبراهيم وأصحابه ، لمزيد الحث على التبرؤ من المشركين ، والاسترسال إليهم . فإن حجة المفسدين فيها تخريب لمباني الحق ، وتوهين لقوى أهله ، وتشكيك لضعفاء القلوب ، مما يفسد عمل المصلحين ، ويزلزل مساعيهم ، ويفتن أعداءهم بهم ، لذلك كان البغض فى الله من شعب الإيمان ، لأن الحق لا يقوى إلا باعتصاب أهله على كلفه ، ورمى أعدائه عن قوس واحدة . وفى إبدال (لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) من (لكم) دلالة على أنه لا ينبغي لمؤمن أن يترك التأسى بهم ، وأن تركه مؤذن بسوء العقيدة . ولذلك عقبه بقوله (وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) أى من يتولّ عما أمر به ، ويوالى أعداء الله ، ويلقى إليهم بالوادة ، فإنه لا يضر إلا نفسه ، والله هو الغنى عن إيمانه به وطاعته ، الحمود على كل حال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً ، وَاللَّهُ قَدِيرٌ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » هذا وعد منه تعالى ، وقد أنجزه بأن أسلم كثير منهم بعد ، وصاروا لهم أولياء وأحزاباً . والآية من معجزات القرآن ، لما فيها من الإخبار عن مغيب ، وقع مصداقه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

[٩] (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » هذا ترخيص من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم . فهو في المعنى تخصيص لقوله (يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي ...) الخ . أى لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من أهل مكة ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم ، وتقسطوا إليهم ، أى تقضوا إليهم بالبر ، وهو الإحسان . والقسط وهو العدل . فهذا القدر من الموالاته غير منهي عنه ، بل مأمور به في حقهم . والخطاب ،

وإن يكن في مشركي مكة ، إلا أن العبرة بعموم لفظه . وقد حاول بعض المفسرين تخصيصه ، فرد ذلك الإمام ابن جرير^(١) بقوله :

والصواب قول من قال : عني بقوله تعالى (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ) من جميع أصناف الملل والأديان ، أن تبرؤهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم ، فإن الله عز وجل عمّ بقوله (الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ) جميع من كان ذلك صفته ، فلم يخص به بعضاً دون بعض . ولا معنى لقول من قال : ذلك منسوخ ، لأن برّ المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب ، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب ، غير محرم ولا منهي عنه ، إذا لم يكن في ذلك دلالة له ، أو لأهل الحرب ، على عورة لأهل الإسلام ، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح . وقد بين صحة ما قلناه الخبر في قصة أسماء وأمها . انتهى .

وذلك أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ، إذ عاهدوا . فأتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ! إن أمي قدمت وهي راغبة ، أفأصلها ؟ قال : نعم ! صلى أمك . رواه أحمد^(٢) والشيخان^(٣) ، ورواه أيضاً الإمام أحمد^(٤) عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيبة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا : ضباب ، وقرظ ، وسمن ، وهي مشركة . فأبت أسماء أن تقبل هديتها ، وتدخلها بيتها . فسألت عائشة النبي ﷺ .

- (١) انظر الصفحة رقم ٦٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .
- (٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٤٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .
- (٣) أخرجه البخاري في : ٥١ - كتاب الهبة ، ٢٩ - باب الهدية للمشركين ، حديث

رقم ١٢٧٢ .

وأخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث رقم ٥٠٩ و ٥٠٨ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

فأنزل الله تعالى (لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ...) إلى آخر الآية .
فأمرها أن تقبل هديتها ، وأن تدخلها بيتها .

قال الرازى : وقوله تعالى (أَنْ تَبَرُّوهُمْ) بدل من (الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ) وكذلك (أَنْ تَوَلَّوْهُمْ) بدل من (الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ) . والمعنى : لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء ، وإنما ينهاكم عن تولى هؤلاء . وهذا رحمة لهم ، لشدتهم في العداوة . وهذه الآية تدل على جواز البرّ بين المشركين والمسلمين ، وإن كانت المولاة منقطعة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ،
اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ،
لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ، وَلَا تُمَسِّكُوا
بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لُؤَا مَا أَنْفَقُوا ، ذَلِكُمْ
حُكْمُ اللَّهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ » أى من مكة إلى المدينة ،
« فَأَمْتَحِنُوهُنَّ » أى فاختبروهن بما يغلب على ظنكم صدقهن فى الإيمان « اللَّهُ أَعْلَمُ
بِإِيمَانِهِنَّ » أى المطلع على قلوبهن ، لا أنتم ، فإنه غير مقدور لكم ، فحسبكم أماراته
وقرائنه .

وقد روى ابن جرير^(١) عن ابن عباس قال : كانت المرأة إذا أتت رسول الله ﷺ ، حلفها

(١) انظر الصفحة رقم ٦٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِالله، ماخرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ماخرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله .

وقال مجاهد: أى سلوهن ما جاء بهن؟ فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخطه أو غيره ، ولم يؤمنن ، فارجموهن إلى أزواجهن .

« فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ » قال الزخشرى : أى العلم الذى تبلفه طاقتمكم ، وهو الظن الغالب بالحلف ، وظهور الأمارات . وإنما سماه علماً، إيداناً بأنه كالعلم فى وجوب العمل به . « فَلَا تَرَجِمُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ » أى فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين ، إذ لا حل بين المؤمنة والمشرک ، لأن إيمانها قطع عصمتها من المشرک المعادى لله ولرسوله .

قال ابن جرير^(١) : وإنما قيل ذلك للمؤمنين . لأن العهد كان جرى بين رسول الله ﷺ وبين مشركى قريش فى صلح الحديبية، أن يرد المسلمون إلى المشركين من جاءهم مسلماً، فأبطل ذلك الشرط فى النساء إذا جنن مؤمنات مهاجرات ، فامتحن فوجدهن المسلمون مؤمنات ، وصح ذلك عندهم مما ذكرنا ، وأمرُوا أن لا يردوهن إلى المشركين ، إذا علم أنهم مؤمنات . « لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ » أى لا تقطاع النكاح بينهما .

قال ابن كثير : هذه الآية هى التى حرمت المسلمات على المشركين . وقد كان جازراً فى ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرک المؤمنة . ولهذا كان أمر أبى العاص بن الربيع ، زوج ابنة النبى ﷺ زينب رضى الله عنها . وقد كانت مسلمة، وهو على دين قومه . فلما وقع فى الأسارى يوم بدر ، بعث امرأته زينب فى فدائه بقلادة لها كانت لأُمها خديجة . فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، وقال للمسلمين : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا ، ففعلوا ، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه ، فوقى بذلك ، وصدقه فيما وعده ، وبمها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة رضى الله عنه . فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ،

(١) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وكانت سنة اثنتين ، إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان ، فردها عليه بالنكاح الأول ، ولم يحدث لها صداقاً . ومنهم من يقول بعد سنتين ، وهو صحيح ، لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين . انتهى «وَأَتَوْهُم مَّا أَتَقَوْا» قال ابن جرير^(١) : أى وأعطوا المشركين الذين جاء كم نساؤهم مؤمنات ، إذا علمتموهن مؤمنات ، فلم ترجعوهن إليهم ، ما أتقوا في نكاحهم إياهن من الصداق «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ» أى هؤلاء المهاجرات اللاتي لحقن بكم من دار الحرب ، مفارقات لأزواجهن ، وإن كان لهن أزواج ، «إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ» أى مهورهن . قال ابن زيد : لأنه فرق بينهما الإسلام إذا استبرأت أرحامهن .

ثم أشار إلى أنه ، كما بطل نكاح المؤمنة عن الكافر ، بطل نكاح الكافرة عن المسلم ، بقوله : «وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ» أى بعقودهن التي يتمسك بها في الاستحلال . قال ابن جرير^(٢) : يقول جل ثناؤه للمؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ : لا تنسكوا أيها المؤمنون بحبال النساء الكوافر وأسبابهن . و (الكوافر) جمع كافرة . و (العصم) : جمع عصمة ، وهى ما اعتصم به من العقد والسبب . وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين عن الإقدام على نكاح المشركات من أهل الأوثان ، وأمر لهن بفراقهن . ثم روى عن مجاهد قال : أمر أصحاب محمد بطلاق نساءهم كوافر بمكة فعدن مع الكفار .

وعن الزهرى : لما نزلت هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) إلى قوله (وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ) ، كان ممن طلق عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأتين كانتا له بمكة : ابنة أبى أمية ، وابنة جرويل . وطلحة بن عبيد الله بنت ربيعة ، ففرق بينهما الإسلام ، حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر ، وكان ممن فرق إلى رسول الله ﷺ من نساء الكفار ،

(١) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

ممن لم يكن بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فحبسها وزوجها رجلاً من المسلمين ، أميمة بنت بشر الأنصارية . كانت عقد ثابت بن الدحاحة ، ففرت منه ، وهو يومئذ كافر ، إلى رسول الله ﷺ ، فزوجها رسول الله ﷺ سهل بن حنيف ، أحد بنى عمرو بن عوف . فولدت عبد الله ابن سهل .

«وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ» أى اطلبوا أيها المؤمنون الذين ذهبتم أزواجهم فلحقن بالمشركين ما أنفقتم على أزواجكم اللواتي لحقن بهم ، من الصداق ، من تزوجهن منهم «وَلَيْسَ أَوْلَىٰ مَا أَنْفَقُوا» أى وليس ألسكم المشركون منهم ، الذين لحق بكم أزواجهم مؤمنات ، إذا تزوجن فيكم ، من تزوجها منكم ، ما أنفقوا عليهن من الصداق «ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ بِحُكْمٍ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» أى هذا الحكم الذى حكم به من أمر المؤمنين بمسألة المشركين ما أنفقوا ، وأمر المشركين بمثل ذلك . حكم الله الحق الذى لا يعدل عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَتَمَّ بِهِ لَهُمُ مَوْمِنُونَ) «وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ» أى وإن ارتدت منكم امرأة فلحقت الكفار ، فلم يردوا مهرها «فَعَاقِبْتُمْ» أى ففزوجوهم فوجدتم منهم غنيمة «فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ» أى من المسلمين «مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا» أى فى مهورهن . قال مجاهد : مهر مثلها يدفع إلى زوجها .

وقال قتادة : كن إذا فرت من أصحاب النبي ﷺ إلى الكفار ، ليس بينهم وبين نبي الله عهد ، فأصاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة ، أعطى زوجها ماسق إليها من جميع الغنيمة ، ثم يقتسمون غنيمةهم .

« وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ » أى فإن الإيمان به يقتضى أداء أوامره ، واجتناب نواهيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهَتَّاتٍ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعِهِنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ » قال ابن كثير : أى أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج معسراً فى نفقتها ، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ، ماجرت به عادة أمثالها ، وإن كان من غير علمه ، عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ! إن أبا سفيان رجل شحيح ، لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بى ، فهل على جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفى بnik - أخرجاه فى الصحيحين^(١) - « وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ » قال الزمخشري : يريد وأد البنات . وقال ابن كثير : هذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ، ويمعم قتله وهو جنين ، كما قد يفعله بعض الجاهلات من النساء ، تطرح نفسها ، لثلاث تحبل ، إما لغرض فاسد أو ما أشبهه .

(١) أخرجه البخارى فى : ٣٤ - كتاب البيوع ، ٩٥ - باب من أجرى أمر الأنصار

على ما يتعارفون بينهم فى البيوع والإجارة ، حديث رقم ١١٠٨ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٣٠ - كتاب الأقضية ، حديث رقم ٧ (طبعنا) .

«وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِمَا مَن يَفْتَرِيَنَّهُ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ» قال ابن عباس: أى لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم. وأوضحه الرخشي بقوله: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها. هو ولدى منك. كنى بالبهتان المفتري بين يديها ورجليها عن الولد الذى تلصقه بزوجها كذباً ، لأن بطنها الذى تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذى تلده به بين الرجلين ، فهو غير الزنا ، فلا تكرار فيه .

وقال الشهاب : فى شرح البخارى للكرمانى معناه : لا تأتوا بهتان من قبل أنفسكم . واليد والرجل كناية عن الذات ، لأن معظم الأفعال بهما . ولذا قيل للمعاقب بجنابة قولية : هذا ما كسبت يداك . أو معناه : لا تنشئوه من ضمائركم وقلوبكم ، لأنه من القلب الذى مقره بين الأيدى والأرجل . والأول كناية عن إلقاء البهتان من تلقاء أنفسهم ، والثانى عن كونه من دخيلة قلوبهم المبنية عن الخبث الباطنى .

وقال الخطابى : معناه لا تبهتوا الناس كفاحاً ومواجهة ، كما يقال للآمر بحضرتك : إنه بين يديك . ورد بأنهم ، وإن كنوا عن الحاضر بكونه بين يديه ، فلا يقال : بين أرجله . وهو وارد لو ذكرت الأرجل وحدها . أما مع الأيدى تبعاً فلا . فالخطيئ خطيئ وهو كناية عن خرق جلباب الحياء . والمراد: النهى عن القذف ، ويدخل فيه الكذب والغيبة . انتهى . «وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ» أى من أمر الله تأمرهن به .

قال فى النهاية : المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله ، والإحسان إلى الناس ، وكل ما أمر به الشرع ، ونهى عنه .

«فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» أى فبايعن على الوفاء بذلك ، وسل الله لهن مغفرة ذنوبهن ، والعفو عنها ، فإنه غفور رحيم لمن تاب منها .

تنبيهات :

الأول - روى البخارى^(١) عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنين بهذه الآية ، فن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنين ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بايعتك ، كلاماً . ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة . ما يبايعهن إلا بقوله : قد بايعتك على ذلك .

قال ابن حجر : أى لا مصافحة باليد ، كما جرت العادة بمصافحة الرجال عند المبايعة . ثم قال : وروى النسائى والطبرى أن أميمة بنت رقيقة أخبرته أنها دخلت في نسوة تباع . فقلن : يا رسول الله ! ابسط يدك نصافحك . فقال : إني لا أصافح النساء . ولكن سأخذ عليكن . فأخذ علينا حتى بلغ (وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ) فقال : فيما أطقن واستطعن ، فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا - وفي رواية الطبرى : ما قولى لمائة امرأة إلا كقولى لامرأة واحدة - وقد جاء في أخبار أخرى أنهم كن يأخذن بيده عند المبايعة من فوق ثوب - أخرجه يحيى ابن سلام في تفسيره عن الشعبي - .

وفي المغازى لابن إسحاق عن أبان بن صالح أنه كان يغمس يده في إناء ، فيغمس أيديهن فيه . انتهى .

والمعول على رواية البخارى الأولى لصحتها ، وضعف ما عداها .

الثانى - روى مسلم^(٢) عن أم عطية قالت : لما نزلت هذه الآية (وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ) كان منه النياحة .

-
- (١) أخرجه فى : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٢٠ - باب إذا أسلمت المشرقة أو النصرانية تحت الذى والحربى ، حديث رقم ١٣١٠ .
- (٢) أخرجه فى : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث رقم ٣١ (طبعنا) .

ولفظ البخاري^(١) عنها قالت : يا بعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا (أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا) ونهانا عن النياحة .

وأخرج الطبري بسفده إلى امرأة من المبايعات قالت : كان فيما أخذ علينا أن لا نعصيه في شيء من المعروف ، ولا نخمش وجهاً ، ولا ننشر شعراً ، ولا نشق جيباً ، ولا ندعو ويلاً .

وعن قتادة قال : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ عليهن يومئذ أن لا ينحنن ، ولا يحدثن الرجال إلا رجلاً منكن محرماً . فقال عبد الرحمن بن عوف : يا نبي الله ! إن لنا أضيافاً ، وإنا نغيب عن نساءنا ؟ ! فقال ليس أولئك عنيت .

الثالث - قال إلكيا الهراسي : يؤخذ من قوله تعالى (وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ) أنه لاطاعة لأحد في غير المعروف . قال وأمر النبي ﷺ لم يكن إلا بمعروف وإنما شرطه في الطاعة ، لئلا يترخص أحد في طاعة السلاطين .

وأصله مما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد . قال في هذه الآية : إن رسول الله ﷺ نبيه ، وخيرته من خلقه . ثم لم يستحل له أمر إلا بشرط . لم يقل (ولا يعصينك) ويترك حتى قال (في معروف) فكيف ينبغي لأحد أن يطاع في غير معروف ، وقد اشترط الله هذا على نبيه ؟

ثم نبه تعالى في آخر السورة بما نبّه به في فاتحتها ، من النهي عن موالاته محاربي الدين ، تحذيراً من التهاون في ذلك ، وزيادة اعتناء به ، فقال سبحانه :

(١) أخرجه في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٤٦ - باب ما ينهى عن النوح والبكاء ،

حديث ٦٩٤ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْأَلُونَ
مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى مسخوطاً عليهم
لمعاداتهم الحق ، ومحاربتهم الصلاح ، وعيبتهم بالفساد . وهو عام فى كل محارب . ومنهم من
خصه باليهود ، لأنه عبر عنهم فى غير هذه الآية بالمغضوب عليهم ، واقتصر عليه الزمخشري .
قال الناصر : قد كان الزمخشري ذكر فى قوله ^(١) (وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ) إلى قوله (وَمِنْ
كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا) أن آخر الآية استطراد . وهو فن من فنون البيان ، مبوَّب عليه
عند أهله . وآية الممتحنة هذه ممكنة أن تكون من هذا الفن جدًّا ، فإنه ذم اليهود ،
واستطرد ذمهم بدم المشركين ، على نوع حسن من النسبة . وهذا لا يمكن أن يوجد للفصحاء
فى الاستطراد أحسن ولا أمكن منه . ومما صدروا به هذا الفن قوله :

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه فليس به بأس، وإن كان من جُرمِ
وقوله ^(٢) :

إن كنتِ كاذبةً الذى حدثتني فنجوتِ منجى الحارثِ بن هشامِ
وقوله ^(٣) :

ترك الأجابة أن يقاتلَ دونهم ونَجَا برأسِ طِمْرَةٍ وَلِجَامِ
انتهى .

(١) [٣٥ / فاطر / ١٢] .

(٢) فائلهما حسان بن ثابت ، من قصيدته التى مطلعها :

تبلتُ فؤادك فى المنام خريدةً تسقى الضجيعَ بيارِدِ بَسَامِ
(شرح الديوان للبرقوقى ص ٣٦٢) .

وكان وجه إشارته الفرار من التأكيد إلى التأسيس ، مع أن إرادة ما أريد بأول السورة منه ، فيه من المحسنات البديعية ردّ العجز على الصدر ، تذكيراً به وتفخيماً ، للعناية بشأنه .
ولكل وجهة .

« قَدْ يَيْسُوا مِنَ الْآخِرَةِ » أى من جزائها لجحدهم بها ، ولذلك طغوا وبغوا وعاثوا .
والجملة صفة ثانية « كَمَا يَيْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ » أى كما يئس من سلفهم من إخوانهم الكفار المقبورين . أى أنهم على شاكلة من قبلهم ، وكلُّ مؤاخذ بكفره . وقيل :
المعنى كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا . ففيه وضع الظاهر موضع المضمّر ، تسجيلاً لكفرهم ، وبياناً لما اقتضى الغضب عليهم ، ولما آيسهم . والأول أظهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦١ - سُورَةُ الصَّفِّ

وتسمى سورة (الحواريين) . وهى مدنية . ولا عبرة بقول إنها مكية ، لأن آياتها
المحرّضة على القتال تردّه ، لأنه لم يشرع الجهاد إلا فى المدينة . وآياتها أربع عشرة آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)
« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » أى أذعن لله
كل خلقه العلوى والسفلى ، وانقاد لتسخيره ، ودلّ على ألوهيته وربوبيته . وتقدم بيانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[٣] (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ » قال القاشانى : من لوازم الإيمان
الحقيقى الصدق وثبات العزيمة . إذ خلوص الفطرة عن شوائب النشأة يقتضيها . وقوله
(لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟) يحتمل الكذب ، وخلف الوعد . فمن ادعى الإيمان وجب
عليه الاجتناب عنهما بحكم الإيمان ، وإلا فلا حقيقة لإيمانه . ولهذا قال :

« كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » لأن الكذب ينافي المروءة التى هى
من مبادئ الإيمان ، فضلاً عن كماله . إذ الإيمان الأصلى هو الرجوع إلى الفطرة الأولى ،
والدين القيم . وهى تستلزم أجناس الفضائل بجميع أنواعها ، التى أقل درجاتها العفة المقتضية
للمروءة ، والكاذب لا مروءة له ، فلا إيمان له حقيقة . وإنما قلنا : لا مروءة له ، لأن النطق
هو الإخبار المفيد للغير معنى ، المدلول عليه باللفظ . والإنسان خاصته التى تميزه عن غيره ، هى
النطق ، فإذا لم يطابق الإخبار ، لم تحصل فائدة النطق ، فخرج صاحبه عن الإنسانية ، وقد
أفاد ما لم يطابق من اعتقاد وقوع غير الواقع ، فدخل فى حد الشيطنة ، فاستحق المقت الكبير

عند الله ، بإضاعة استعداده ، واكتساب ما ينافيه من أضداده . وكذا الخلف ، لأنه قريب من الكذب ، ولأن صدق العزم وثباته من لوازم الشجاعة التي هي إحدى الفضائل اللازمة لسلامة الفطرة ، وأول درجاتها . فإذا انتفت انتفى الإيمان الأصلي بانتفاء ملزومه ، فنبت المقت من الله . انتهى .

لطيفة :

قال الزمخشري : هذا من أفصح كلام وأبلغه في معناه . قصد في (كَبَر) التعجب من غير لفظه . ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين . وأسند إلى (أَنْ تَقُولُوا) ، ونصب (مَقْتًا) على تفسيره ، دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص ، لا شوب فيه ، لفرط تمكن المقت منه . واختير لفظ (المقت) لأنه أشد البغض وأبلغه ، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً ، حتى جعل أشده وأخشه . و (عند الله) أبلغ من ذلك ، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله ، فقد تم كبره وشدته .

قال الناصر : وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس ، وهو تكراره لقوله : (ما لا تفعلون) وهو لفظ واحد ، في كلام واحد . ومن فوائد التكرار التهويل والإعظام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنْ أَلَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرَّضُونَ)

« إِنْ أَلَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرَّضُونَ » قال القاشاني : لأن بذل النفس في سبيل الله لا يكون إلا عند خلوص النفس في محبة الله ، إذ المرء إنما يحب كل ما يحب من دون الله لنفسه . فأصل الشرك ومحبة الأنداد ، محبة النفس . فإذا سمح بالنفس ، كان غير محب لنفسه ، وإذا لم يحب نفسه فبالضرورة لم يحب شيئاً من الدنيا . وإذا كان بذله للنفس في الله وفي سبيله لا للنفس ، كما قال - ترك الدنيا للدنيا - كانت

محبة الله في قلبه راجحة على محبة كل شيء ، فكان من الذين قال فيهم : ^(١) (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) وإذا كانوا كذلك يلزم محبة الله إياهم ، لقوله : ^(٢) (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ وَ) انتهى .

تنبيهات :

الأول - في ذكر هذه الآية عقيب مقت الخلف دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات في قتال الكفار ، فلم يفوا . انتهى .

وأيدته الناصر من الوجهة البليانية بأن الأول كالبسطة العامة لهذه القصة الخاصة ، كقوله تعالى ^(٣) : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِرُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) فالنهي العام ورد أولاً . والمقصود اندراج هذا الخاص فيه ، كما تقول للمقترف جرماً معيناً : لا تفعل ما يلصق العار بك ، ولا تشاتم زيداً . وفائدة مثل هذا النظم ، النهي عن الشيء الواحد مرتين ، مندرجاً في العموم ، ومفرداً بالخصوص . وهو أولى من النهي عنه على الخصوص مرتين فإن ذلك معدود في حيز التكرار ، وهذا يتكرر مع ما في التعميم من التعظيم والتهويل . انتهى

الثاني - في (الإكيل) : قال إلكيا المهراسي ، يحتاج بقوله تعالى : (لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) في وجوب الوفاء بالندرج ، ونذر اللجاج . قال غيره : والوعود . انتهى .

وقال ابن كثير : هو إنكار على من يعد وعداً ، أو يقول قولاً ، لا يفي به . ولهذا استدلل بهذه الآية السكرية من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء ترتب عليه عزم الموعد أم لا . واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين ^(٤) ؛

(١) [٢/ البقرة/ ١٦٥] . (٢) [٥/ المائدة/ ٥٤] . (٣) [٤٩/ الحجرات/ ٢١] .

(٤) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٤ - باب علامة المنافق ، حديث

رقم ٣١ ، عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ (طبعتنا) .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا أوتى خان . ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

وقد روى الإمام أحمد^(١) وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا صبيّ ، فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله ! تعال أعطك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أردت أن تعطيه ؟ قالت : تمرّاً . فقال : أما إنك لو لم تفعل ، كُتبت عليك كذبة .

وذهب الإمام مالك رحمه الله إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعد ، وجب الوفاء به . كما لو قال لغيره : تزوّج ولك على كل يوم كذا . فتزوج . وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدمي .

وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً ، وحلوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم ، فلما فرض ، نسل عن بعضهم ، كقوله تعالى^(٢) (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا فَبَلِيلُهَا الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) . وقال تعالى^(٣) (وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ . .) الآية ، وهكذا هذه الآية معناها كما قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين ، قبل أن يفرض الجهاد ، يقولون : لوددنا أن الله عز وجل

أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٤٧ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) [٤ / النساء / ٧٧] . (٣) [٤٧ / محمد / ٢٠] .

دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ، ولم يقرؤا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فأنزل الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) . وقيل : كان المسلمون يقولون : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لأتيناها ، ولو ذهب فيه أنفسنا وأموالنا ، فلما كان يوم أحد ، تولوا عن النبي ﷺ ، حتى شج وكسرت رباعيته ، فأنزل الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) روى ذلك عن مقاتل بن حيان . وقيل : نزل هذا توبيخاً لقوم من المنافقين كانوا يعدون المؤمنين النصر وهم كاذبون . يقولون : لو خرجتم خرجنا معكم ، وكنا في نصركم ، وفي وفي . . . روى ذلك عن ابن زيد . وكلّ المروى هنا مما تشمله الآية .

وقد روى الإمام أحمد^(١) عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا أياكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم منا أحد ، فأرسل إلينا رسول الله ﷺ رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة - معنى سورة الصف - كلها . ولفظ ابن أبي حاتم عن عبد الله بن سلام : أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ؛ فلم يذهب إليه أحد منا ، وهربنا أن نسأله عن ذلك . قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك نفر رجلاً رجلاً ، حتى جمعهم ، ونزلت فيهم هذه السورة - الصف - قال عبد الله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها . وفي رواية ابن أبي حاتم هذه فائدة جلييلة : وهى أن قول الصحابي نزلت هذه السورة ، بمعنى قرئت في الحادثة ، كما يَدْنَتْهُ الرواية قبله . والروايات يفسر بعضها بعضاً . وقد نهنا على ذلك مراراً .

الثالث - فى (الإكليل) فى قوله (كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُومٌ) : استحباب قيام المجاهدين فى القتال صفوفًا كصفوف الصلاة . وأنه يستحب سد الفرج والخلل فى الصفوف ،

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٥٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وإتمام صف الأول فالأول ، وتسوية الصفوف قدماً بقدم ، لا يتقدم بعض على بعض فيها .
قال ابن أبي الفَرَسِ : واستدل بها بعضهم على أن قتال الرحالة أفضل من قتال الفرسان .
لأن التراص إنما يمكن منهم . قال : وهو ممنوع . انتهى .
وفي التشبيه وجهان آخران :

أحدها - أن يكون المراد الثبات ورسوخ الأقدام في الموقف ، تنبيهاً على أن المنزلزل القدم، والمضطرب في الموقف - دع من يعزم على الفرار - ممن يعقته الله تعالى ، ولا تناله محبته .

ثانيهما - أن يكون المعنى به اجتماع الكلمة ، والاتفاق على تسوية الشأن مع العدو ، حتى يكونوا في الاتحاد وموالاته بعضهم بعضاً كالبنين المرصوص . وقد أشار لهذين الوجهين الرازى . وها أقرب من الأول ، لتقويتها لمعنى طليعة السورة، من الثبات على الوعد والوفاء به ، والمعتب على من يخلف فيه ، كما تقدم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ۖ يَقُومَ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) «وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ۖ يَقُومَ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ»

أى لم تصلون إلى الأذى بالمخالفة والعصيان لما أمركم به ، وأنتم تعلمون علم اليقين صدق فيا جئتمكم به من الرسالة ، لما شاهدتم من الآيات البينات ؟ ومقتضى علمكم ذلك ، تعظيمى وإطاعتى ، لأن من عرف الله وعظمته ، عظم رسوله ، لأن تعظيمه فى تعظيم رسوله .

قال ابن كثير : وفي هذا تسليية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر . ولهذا قال صلوات الله عليه ^(١) : رحمة الله على موسى ! لقد أودى بأكثر

(۱) أخرى البخاری فی : ۵۷ - کتاب فرض الخمس ، ۱۹ - باب ما كان النبی صلی

الله عليه وسلم يعطى المؤلفة قلوبهم ، حديث رقم ١٤٨٦ ، عن عبد الله بن مسعود .

من هذا فصبر . وفيه نهى للمؤمنين أن يوصلوا له ، صلوات الله عليه أذى ، كما قال تعالى ^(١) :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ
عِنْدَ اللَّهِ وَجِبَةً) انتهى .

وقال أبو السعود : هذا كلام مستأنف ، مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال . و (إذ)
منصوب على المفعولية بضمير . خوطب به النبي ﷺ بطريق التلوين . أى واذا كر لهؤلاء المعرضين
عن القتال ، وقت قول موسى لبنى إسرائيل حين نذبهم إلى قتال الجبارة ، بقوله ^(٢) (يَقَوْمُ
أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا
خَاسِرِينَ) فلم يمتثلوا أمره ، وعصوه أشد عصيان ، حيث قالوا ^(٣) : (يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا
جِبَارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا حَتَّىٰ يُخْرِجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ) إلى
قوله ^(٤) (فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) وأصرروا على ذلك وآذوه ، عليه
الصلاة والسلام ، كل الأذية . هذا هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم ، ويرتضيه الذوق
السليم . وأما ما قيل بصدد بيان أسباب الأذية ، من أنهم كانوا يؤذونه بأنواع الأذى ، من
انتقاصه وعييه فى نفسه وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه ، وعبادتهم البقر ، وطلبهم رؤية الله
جهرة - فما لا تعلق له بالمقام . انتهى ملخصاً . وملخصه : أن المقام يعين نوع الأذية ويخصصها ،
والقرينة إحدى تخصصات العام ، إلا أن أخذها عامة أعظم فى التسلية وأولى ، وقوفاً مع عموم
اللفظ الكريم .

« فَلَمَّا زَاغُوا » أى عن مقتضى علمهم لفرط الهوى ، وحب الدنيا « أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ »
أى عن طريق الهدى ، وحجبهم عن نور الكمال ، لصرف اختيارهم نحو الغى والضلال .
« وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » أى الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق ، المصرين على
الغواية .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٩] . (٢) [٥ / المائدة / ٢١] . (٣) [٥ / المائدة / ٢٢]

(٤) [٥ / المائدة / ٢٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ » أى التى أنزلت على موسى ، وذلك مما يدعو إلى تصديقه عليه السلام . « وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » أى الدلالات التى آتاهها الله إياه ، حججاً على نبوته ، « قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ » أى بين .

والإشارة إلى ما جاء به أو إليه ، عليه الصلاة والسلام ، وتسميته سحراً مبالغة . يريد عليه السلام : أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ، ممن تقدم وتأخر .

تنبيهات :

الأول - نقل الرازى وغيره مصداق هذه الآية من الإنجيل الموجود بين أيديهم . وذلك فى إنجيل يوحنا ، فى الباب الرابع عشر ، هكذا :
إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطىكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد - كما فى النسخة المطبوعة سنة ١٨٢١ و ١٨٣١ و ١٨٣٣ بمدينة لندن - وفارقليط يونانية ، ولفظها الأصل (بيركلوط) ، ومعناه : محمد أو أحمد ، كما بينه صاحب (إظهار الحق) .

وذكرت جريدة المؤيد عدد (٣٢٨٤) صفحة (٢) تحت عنوان (لا يعدم الإسلام منصفاً) :

وقال مسيو مارسيه من (مدرسة اللغات الشرقية) ما يأتى :

إن محمداً هو مؤسس الدين الإسلامى ، واسم محمد جاء من مادة حمد . ومن غريب الاتفاق

أن نصارى العرب كانوا يستعملون اسماً من نفس المادة يقرب في المعنى من محمد ، وهو أحمد ، لتسمية البراكية به . ومعنى أحمد صاحب الحمد ، وهذا مادعا علماء الدين الإسلامى أن يثبتوا بأن كتب المسيحيين قد بشرت بمجيئ النبي محمد . وقد أشار القرآن نفسه إلى هذا بقوله عن المسيح : (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أُسْمُهُ وَ أَحْمَدُ) .

وقد قال اسبر انجيه : إن هذه الآية تشير إشارة خاصة إلى عبارة (إنجيل يوحنا) حيث وعد المسيح تلامذته ببعثة صاحب هذا الاسم . انتهى بالحرف .

وأما (إنجيل برنابا) ففيه العبارات الصريحة المتكررة ، بل الفصول الإضافية الذبول ، التي يذكر فيها اسم محمد في عرضها ذكراً صريحاً ، ويقول إنه رسول الله .

وقد نقل الشيخ محمد يرم عن رحلة انكليزى أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الجميرى قبل بعثة النبي ﷺ ، وفيها يقول المسيح : (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أُسْمُهُ وَ أَحْمَدُ) وذلك موافق لنص القرآن الكريم بالحرف . وقد بدل الرهبان نقط (الفارقليط) في المطبوعات الأخيرة (بالمعزى) .

قال بعضهم : ولا عجب من هذه التحريفات المتجددة بتجدد الطباعات ، فإنها سجية القوم في كتبهم المقدسة .

* سجية تلك فيهم غير محدثة *

(١)

الثالث - قال الإمام ابن القيم في (جلاء الأفهام) : الفرق بين محمد وأحمد من وجهين : أحدهما - أن محمداً هو المحمود حمداً بعد حمد ، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له ، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه . و (أحمد) أفعل تفضيل من الحمد ، يدل على أن الحمد الذي

(١) ملاحظة : ترك المؤلف هنا رحمه الله بياضاً قدره صفحة وثلاث الصفحة ، وكأن هذا البياض خصص للتنبيه الثانى ، وقد انتقل إلى الدار الآخرة رحمه الله ، دون أن يملأه .

يستحقه أفضل مما يستحقه غيره . فحمد زيادة حمد في الكمية ، وأحمد زيادة في الكيفية ، فيحمد أكثر حمد ، وأفضل حمد حمد البشر .

والوجه الثاني - أن محمداً هو الحمود حمداً متكرراً كما تقدم ، وأحمد هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره . فدل أحد الاسمين - وهو محمد - كونه محموداً . ودل الاسم الثاني - وهو أحمد - على كونه أحمد الحامدين لربه . وهذا هو القياس ، فإن أفعال التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لا يُبنيان إلا من فعل الفاعل ، لا من فعل المفعول ، ذهاباً إلى أنهما إنما يصاغان من الفعل اللازم لا المتعدى . ونازعهم آخرون وجوزوا بناءهما من الفعل الواقع على المفعول ، لقول العرب : (ما أشغله بالشئ) .

إلى أن قال : والمقصود أنه ﷺ سمي محمداً وأحمد . لأنه يحمد أكثر ما يُحمد غيره ، وأفضل مما يحمد غيره . فالاسمان واقمان على المفعول ، وهذا هو المختار . وذلك أبلغ في مدحه ، وأتم معنى . ولو أريد به اسم الفاعل لسمى (الحماد) وهو كثير الحمد ، كما سمي محمداً ، وهو الحمود كثيراً . فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمداً لربه . فلو كان اسمه باعتبار الفاعل ، لكان الأولي أن يسمى حماداً ، كما أن اسم أمته الحمادون . وأيضاً فإن الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله الحمودة التي لأجلها استحق أن يسمى محمداً وأحمد ، فهو الذي يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة ، ويحمده أهل السموات والأرض . فلكثرة خصائله التي تفوت عدّ العادين سمي باسمين من أسماء الحمد ، يقتضيان التفضيل والزيادة في القدر والصفة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ،
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ» أي : لا أحد أظلم وأشدّ عدواناً ممن يدعى إلى الإسلام الظاهر حقيقته ، المسعد له في الدارين ، فيستبدل إجابته

بافتراء الكذب ، واختلاقه على الله . وذلك قوله لكلامه تعالى (سحر) ولرسوله (ساحر) وهذه الآية إما مستأنفة لتحقيق رسالة النبي ﷺ ، طليمة للآيات بعدها ، وإما متممة لما قبلها ، لتقبيح ما بهت به الإسرائيليون عيسى عليه السلام ، مع الإشارة بعمومها إلى ذم كل من كان على شاكلتهم . ولا يقال (الإسلام) يؤيد الأول ، لأنه عنوان الملة الحنيفية ، لأنه قد يراد به معناه اللغوي . وقد كثر ذلك في آيات شتى . نعم الأقرب الأول . واحتمال مثل الآية لهذين الوجهين ، من بدائع التنزيل .

«وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» أى : الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بما أنزل من الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

«يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» قال ابن جرير (١) . أى يريد هؤلاء القائلون لمحمد ﷺ هذا ساحر ، ليمطوا الحق الذى جاء به بقولهم إنه ساحر ، وما جاء به سحر ، والله معلن الحق ، ومظهر دينه ، وناصر رسوله على من عاداه ، فذلك إتمام نوره . انتهى .

(نور الله) استعارة تصريحية لدينه ، و (الإطفاء) ترشيح ، أو التركيب استعارة تمثيلية . مثلت حالهم فى اجتهدهم فى إبطال الحق ، بحال من ينفخ فى نور الشمس بفيه ليطفئه ، تهكمًا وسخرية بهم ، كما يقول الناس : هو يطين عين الشمس . والثانى أبلغ وأطف ، وهو مختار الزمخشري .

وفى لام (ليطفئوا) مذاهب للنحلة مقررة فى الطولات ، ومن أشهرها أنها مزبدة لتأكيد معنى الإرادة ، لما فى لام العلة من الإشعار بالإرادة والقصد .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

«هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ» يعنى محمداً ﷺ «بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» قال ابن جرير^(١) : أى على كل دين سواه. وذلك عند نزول عيسى بن مريم، وحين تصير الملة واحدة ، فلا يكون دين غير الإسلام .

وقال الزمخشري : أى ليعلميه على جميع الأديان المخالفة له . ولعمري لقد فعل، فما بقى دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام . وتقدم في آخر سورة الفتح في مثل هذه الآية تحقيق آخر ، فليراجع .

« وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » أى لما فيه من محض التوحيد ، وإبطال الشرك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدْلَكُمُ عَلَىٰ تَجْرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ)

[١١] (تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٢] (يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[١٣] (وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا، نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدْلَكُمُ عَلَىٰ تَجْرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ «أَيَّ إِيمَانًا يَقِينِيًّا لَا يَشُوْبُهُ أَذْنَى شَكٍّ» وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «أَيَّ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ . أَوْ أَنَّهُ خَيْرٌ . فَإِنْ قِيلَ : إِنْ ذَلِكَ خَيْرٌ بِنَفْسِهِ عِلْمُوا أَوَّلًا ، وَأَيْضًا أَنْ عِلْمُهُمْ مُحَقَّقٌ ، إِذَا الْخُطَابُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ . فَالْجَوَابُ مَا قَالَهُ النَّاصِرُ : أَنَّ الشَّرْطَ لَيْسَ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، بَلْ هُوَ مِنْ وَادِي قَوْلِهِ تَعَالَى ^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الشَّرْطِ التَّنْبِيهُ عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي يَقْتَضِي الْإِمْتِثَالَ ، وَإِلْهَابُ الْحِمَاةِ لِلطَّاعَةِ ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ تَأْمُرُهُ بِالِاتِّصَافِ مِنْ عَدُوِّهِ : إِنْ كُنْتُ حُرًّا فَانْتَصِرْ . تَرِيدُ أَنْ تُثِيرَ مِنْهُ حِمَاةَ الْإِتِّصَافِ لِأَخِيَرِ . انْتَهَى وَقَوْلُهُ تَعَالَى : «يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» جَوَابٌ لِلأَمْرِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِلَفْظِ الْخَبَرِ ، أَوْ لَشَرْطِ أَوْ اسْتِفْهَامٍ ، دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ تَقْدِيرُهُ : إِنْ تَوَّعَّمُوا وَتَجَاهَدُوا . أَوْ هَلْ تَقْبَلُونَ أَنْ أَدْلِكُمْ يَغْفِرُ لَكُمْ «وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ» أَيْ بَسَاتِينَ إِقَامَةٍ لَا طَعْنَ عَنْهَا «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» أَيْ النِّجَاءُ الْعَظِيمُ مِنْ نِكَالِ الْآخِرَةِ وَأَهْوَالِهَا ، «وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ» أَيْ عَاجِلٌ . وَهُوَ فَتْحُ مَكَّةَ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السُّورَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ بِقَلِيلٍ . وَكَانَ الْقَصْدُ مِنْهَا تَشْجِيعُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ مُحَارِبِيهِمْ ، وَالثَّبَاتِ أَمَامَهُ ، وَالتَّحْذِيرِ عَنِ الزَّيْغِ عَنْ ذَلِكَ ، وَالتَّرْغِيبِ فِي السَّخَاوَةِ بِبَذْلِ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ، فِي سَبِيلِ الْحَقِّ ، لِإِعْلَاءِ شَأْنِهِ ، وَإِزْهَاقِ الْبَاطِلِ .

و (أُخْرَى) مَفْعُولٌ لِمَقْدَرٍ مَعْطُوفٍ عَلَى الْجَوَابِينَ قَبْلَهُ ، وَهُوَ جَوَابُ ثَالِثٍ . أَيْ وَيُؤْتِكُمْ أُخْرَى أَوْ صِفَةً لِمَبْتَدَأٍ مَقْدَرٍ ، وَخَبَرُهُ مَحْذُوفٌ ، وَهُوَ (لَكُمْ) . أَيْ وَلَكُمْ إِلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْمَذْكُورَةِ ، نِعْمَةٌ أُخْرَى عَاجِلَةٌ مَحْبُوبَةٌ ، وَهِيَ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ لَكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ ، وَفَتْحٌ قَرِيبٌ يَعْجَلُهُ لَكُمْ .

«وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» أَيْ بِنَصْرِهِ تَعَالَى لَهُمْ وَفَتْحِهِ . وَمَنْ مَنَعَ مِنَ النِّجَاحَةِ عَطَفَ الْإِنْشَاءَ

(١) [٢ / البقرة / ٢٧٨] .

على الخبر يقول (وَبَشِّرِ) معطوف على (تُوْمِنُونَ) ، لأنه بمعنى آمنوا . وضعف بأن المخاطب بـ (تُوْمِنُونَ) المؤمنين ، وبـ (بَشِّرِ) النبي ﷺ . ثم إن (تُوْمِنُونَ) بيان لما قبله ، و (بَشِّرِ) لا يصلح لذلك . وأجيب بأنه لا مانع من العطف على الجواب ، ماهو زيادة عليه إذا ناسبه . وهذا أولى الوجوه عند صاحب (الكشف) ، كتقدير : أبشر يا محمد ، و (بَشِّرِ) ، وتقدير (قل) قبل (يَأَيُّهَا) . وجعل (بَشِّرِ) أمراً بمعنى الخبر ، كما في قوله : أبطئ أو أسرعى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ)

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ » أى أنصار الحق الذى أنزله وأمر به ، « كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ » أى من معى وجندى متوجهاً إلى نصرته الله ، « قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ » أى ننصر دينه ، وما أمر به ، وندعو إليه ، ونضجى لأجله حياتنا ، « فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ » أى بعمسى عليه السلام ، ونهضت تدعو إلى ما بُعثَ به ، وتنشر دعوته ، « وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ » أى برسائته والحق الذى معه ، « فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ » من اليهود والرومان الوثنيين ، « فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ » أى غالبين عليهم بالبراهين الواضحة ، والحجج الظاهرة ، والسلطة القاهرة . وفيه إشارة للمؤمنين بالتأييد الربانى لهم ، ما داموا متناصرين على الحق ، مجتمعين عليه ، غير متفرقين عنه ولا متخاذلين ، كما وقع لسلفهم . اتفقوا فملكوا ، وإلا فإذا تفرقوا هلكوا .

لطيفة :

ليس التشبيه على ظاهره، من تشبيه كون المؤمنين أنصار الله بقول عيسى، إذ لا وجه لتشبيه الكون بالقول ، بل هو مؤول يجعل التشبيه باعتبار المعنى ، إما على تقدير : قل لهم ، كما قال عيسى ، لظهوره فيه ، وانصباب الكلام إليه ، أو تقدير : كونوا أنصار الله ، كما كان الحواريون حين قال لهم عيسى : من أنصاري إلى الله ؟

قال الشهاب : ف (ما) مصدرية ، وهي مع صلتها ظرف . والأصل : ككون الحواريين أنصاراً وقت قول عيسى . ثم حذف المظروف ، وأقيم ظرفه مقامه . وقد جعلت الآية من الاحتباك . والأصل : كونوا أنصار الله حين قال لكم النبي : من أنصاري إلى الله ؟ كما كان الحواريون أنصار الله ، حين قال لهم عيسى : من أنصاري إلى الله ؟ فحذف من كل منهما ، ما دل عليه المذكور في الآخر . وهو كلام حسن . انتهى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٢ - سُورَةُ الْجُمُعَةِ

مدنية . وآيها إحدى عشرة .

روى مسلم^(١) في صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين .

(١) أخرجه في : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٤ (طبعنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

[١] (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

[٢] (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ «أى: العرب «رَسُولًا مِنْهُمْ» أى من أنفسهم، أمياً مثلهم، «يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ» أى: مع كونه أمياً مثلهم لم تعهد منه قراءة ولا تعلم، «وَيُزَكِّيهِمْ» أى: من خباثات العقائد والأخلاق، «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» أى: القرآن والسنة «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أى: جَوْر عن الحق، وانحراف عن سبيل الرشـد. وهو بيان لشدة افتقارهم إلى نبي يرشدهم.

قال ابن كثير: فبعثه الله سبحانه وتعالى على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه. وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم عليه السلام فبدلوه وغيروه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله. وكذلك أهل الكتاب، قد بدلوا كتبهم وحرفوها وأولوها، فبعث الله محمداً ﷺ بشرع عظيم كامل، شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة، ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار، وسخط الله تعالى. حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب، في الأصول والفروع،

وجمع له تعالى - وله الحمد والمنة - جميع المحاسن فيمن كان قبله ، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين . فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . انتهى .

وإنما أوثرت بعثته صلوات الله عليه في الأميين ، لأنهم أحدُ الناس أذهاناً ، وأقواماً جناناً ، وأصفاهم فطرة ، وأفصحهم بياناً ، لم تفسد فطرتهم بغواشي التحضرين ، ولا بأفانين تلاعب أولئك المتمدنين ، ولذا انقلبوا إلى الناس بعد الإسلام بعلم عظيم ، وحكمة باهرة ، وسياسة عادلة ، قادوا بها معظم الأمم ، ودوخوا بها أعظم الممالك . وإشار البعثة فيهم - بمعنى إظهارها فيهم - لا ينافي عموم الرسالة ، كما قال سبحانه ^(١) (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) وقوله ^(٢) (لَإِنذِرْكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ) وهو ظاهر . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

«وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» معطوف على (الأميين) .
يعنى : أنه بعثه في الأميين الذين على عهده ، وفي آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون بهم ، وهم الذين بعد الصحابة رضى الله عنهم ، من كل من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة ، كما فسرهم مجاهد وغيره ، واختاره ابن جرير .

قال الرازى : فالمراد بالأميين العرب ، وبالأخرين سواهم من الأمم ، وجعلهم منهم ، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم ، فالمسلمون كلهم أمة واحدة ، وإن اختلفت أجناسهم . قال تعالى ^(٣) : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) انتهى .

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٩] .

(٣) [٩ / التوبة / ٧١] .

تنبيه :

قال بعض المحققين : في الآية معجزة من معجزات النبوة ، وذلك في الإخبار عن غيب وقع ، والبشارة بدخول أمم غير العرب في الإسلام قد حصل . فقد صارت تلك الأمم التي أسلمت ، من العرب لأن بلادهم صارت بلاد العرب ، ولغتهم لغة العرب ، وكذلك دينهم وعاداتهم ، حتى أصبحوا من العرب جنساً وديناً ولغة ، وحتى صار لفظ العرب يطلق على كل المسلمين من جميع الأجناس ، لأنهم أمة واحدة^(١) (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) فصدق الله العظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » يعني بعثته تعالى رسولاً في الأميين ، وفي آخرين ، فضله تفضل به على من اصطفاه واختاره لذلك ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته . والآيات هذه رد على من أنكر نبوته ﷺ من يهود المدينة ، حسداً وعناداً ، مع أن لديهم من شواهد رسالته ما لا ترتاب أفئدتهم بصدقها ، ولذا نعى عليهم مخالفتهم لموجب علمهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ،

بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً » قال

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٢] .

الزحشرى : شبه اليهود في أنهم حلة التوراة وقرأوها ، وحفاظ ما فيها ، ثم إنهم غير عاملين بها ، ولا منتفعين بآياتها . وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ ، والبشارة به ، ولم يؤمنوا به - بالجار حمل أسفاراً ، أى : كتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يمشى بها ولا يدري منها إلا ما يمرّ بجنبه وظهره من السكد والتعب ، وكل من علم ولم يعمل ، فهذا مثله ، وبئس المثل ! « يَبْسُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ » وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله ، الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ومعنى (حُمِلُوا التَّوْرَةَ) كلفوا علمها ، والعمل بها ، ثم لم يحملوها ، ثم لم يعملوا بها ، فكأنهم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل . انتهى .

قال الإمام ابن القيم في (أعلام الموقعين) : قاس من حمّله سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ، ثم خالف ذلك ، ولم يحمله إلا على ظهر قلب ، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له ، ولا تحكيم له ، وعمل بموجبه - كحمار على ظهره زاملة أسفار ، لا يدري ما فيها ، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا ، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره . فهذا المثل ، وإن كان قد ضرب لليهود ، فهو متناول من حيث المعنى ، لمن حمل القرآن ، فترك العمل به ، ولم يؤدّ حقه ، ولم يرعه حق رعايته . انتهى .

« وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » أى الذين ظلموا أنفسهم ، فكفروا بآيات ربهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » كان اليهود يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، فقيل لهم : إن كنتم صادقين في زعمكم ، وعلى ثقة من أمركم ، فتمنوا على الله أن يمتكم ، وينقلكم سريعا

إلى الآخرة ، فإن الحبيب يتمنى لقاء من يحب ، ولا يفرّ منه ، ويود أن يستريح من كرب الدنيا وغمومها ، ويصير إلى روح الجنان ونعيمها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ وَأَبَدًا بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

[٨] (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

«وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ وَأَبَدًا بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ» أى من المعاصى والسيئات والكفر «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» أى فيجازيهم على أعمالهم . وتقدم في البقرة نظير الآية ^(١) (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ ...) الآية «قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ» أى تخافون أن تتمنوه بلسانكم ، مخافة أن يصيبكم ، فتؤخذوا بأعمالكم «فَإِنَّهُ وَمُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أى من الأعمال ، حسنها وسيئها ، فيجازيكم عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ

ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٠] (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ

وَأُذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» أى عند جلوس الإمام

(١) [٢ / البقرة / ٩٤] .

على المنبر ، لأنه لم يكن في عهد رسول الله ﷺ نداء سواه . كان إذا جلس على المنبر ، أذن بلال رضي الله عنه « فَأَسْمِعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » أى الخطبة والصلاة « وَذَرُوا الْبَيْعَ » أى فى ذلك الوقت . قال أبو مالك : كان قوم يجلسون فى بقيق الزبير ، فيشترون ويبيعون إذا نودى للصلاة يوم الجمعة ، فنزلت « ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ » أى سعيكم لها ، وترك البيع ، خير لكم مما نفقه يسير ، وربحه مقارب « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ » أى أديت وفرغ منها « فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى اذكروا أمره ودينه وشرعه دائماً ، لتصير ملكة لكم ، تظهر آثارها على أعمالكم وأخلاقكم ، فتفلحوا بسعادة الدارين .

قال ابن جرير^(١) : أى اذكروه بالحمد له ، والشكر على ما أنعم به عليكم من التوفيق لأداء فرائضه ، لتفلحوا فقدر كوا طلباتكم عند ربكم ، وتصلوا إلى الخلد فى جنانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ، قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

« وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً » أى عِبَرِ تِجَارَةً « أَوْ لَهْوًا » أى ما تلهو به النفس عن الحق والجد والنافع « انْفَضُّوا إِلَيْهَا » أى أسرعوا إلى التجارة خشية أن يسبقوا إليها . وإنما أورد ضميرها لأنها الأهم المقصود « وَتَرَكُوكَ قَائِمًا » أى على المنبر « قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ » أى من الثواب المرجو بسماع الخطبة والعظة بها « خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ » أى لأن الثواب مخلصه ، بخلاف ما يتوهمونه منها .

قال الشهاب : وتقديم (اللهو) لأنه أقوى مذمة ، فناسب تقديمه فى مقام الذم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » أى : فاعملوا للأعراض الباقية عنده ، فإنها خير من الأمور الفانية عندهم ، وفوضوا أمر الرزق إليه بالتوكل ، والثقة بفضله . فإنه خير الرازقين .

تنبيهات

الأول - قال الرازى : وجه تعلق آية الجمعة بما قبلها ، هو أن الذين هادوا يفرون من الموت لمتاع الدنيا وطيباتها ، والذين آمنوا يبيعون ويشرون لمتاع الدنيا وطيباتها كذلك . فنبههم الله تعالى بقوله : (فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) أى إلى ما ينفعكم فى الآخرة ، وهو حضور الجمعة ، لأن الدنيا ومتاعها فانية ، والآخرة وما فيها باقية . قال تعالى ^(١) : (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) . ووجه آخر فى التعلق . قال بعضهم : قد أبطل الله قول اليهود فى ثلاث : افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم بقوله ^(٢) : (فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) . وبأنهم أهل الكتاب ، والعرب لا كتاب لهم ، فشبههم بالحمار يحمل أسفاراً . وبالسبت ، وليس للمسلمين مثله ، فشرع الله لهم الجمعة . انتهى .

وقال المهايى فى وجه المناسبة : بين تعالى أن مقتضى الإيمان الاجتماع على الخير ، لاسيما الشكر على الإنسانية ، لثلاث تنقلب حمارية أو بهيمية ، فى مقابلة اجتماع أهل الكتاب على الشر ، الذى جرهم إلى الحمارية والبهيمية .

الثانى - قال السيوطى فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ) مشروعية صلاة الجمعة ، والأذان لها ، والسعى إليها ، وتحريم البيع بعد الأذان . واستدل بالآية من قال إنما يجب إتيان الجمعة على من كان يسمع فيه النداء . ومن قال لا يحتاج إلى إذن السلطان ، لأنه تعالى أوجب السعى ، ولم يشترط إذن أحد . ومن قال لا تجب على النساء لعدم دخولهن فى خطاب الذكور . انتهى .

(١) [٨٧ / الأعلى / ١٧] . (٢) [البقرة / ٩٤] .

الثالث : في (الإكليل) : في قوله تعالى (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ) إباحة الانتشار عقب الصلاة ، فيستفاد منه تقديم الخطبة عليها . انتهى .
وظاهره أنه لا يشرع بعد أدائها صلاة ما . غير أنه كان صلى الله عليه وسلم يتنفل بعدها في بيته ركعتين . وفي رواية أربعا . وأما اعتقاد فرضية الظهر بعدها إذا تعددت ، فتمعصب مذهبي لا برهان له . وقد قلت في مقدمة مجموعة الخطب^(١) ، في الفائدة الرابعة ، ما مثاله : الحاجة في هذه البلاد في هذه الأوقات ، تدعو إلى أكثر من جمعة ، إذ ليس للناس جامع واحد يسمعونهم ، ولا يمكنهم جمعة واحدة أصلاً . إلا أن خروجها إلى حد أن لا فرق بينها وبين بقية الصلوات في كثير من المساجد الصغيرة التي لم تشيد لمثلها ، قد هول فيه السبكي في فتاويه ، لأنه مما تأباه مشروعيها ، وما مضى عليه عمل القرون الثلاثة ، بل تسميتها جمعة ، فإن صيغة (فُعْلَة) في اللغة للمبالغة . وبالجملة فالجامع الكبير التي تؤمها الأفواج يوم الجمعة ويحتاج لإقامتها فيها حاجة بينة لمجاورتها ، هي التي لا خلاف في جوازها مهما تعددت ، والتي لا تعاد الظهر بعدها ، وقد بسطنا في كتابنا (إصلاح المساجد من البدع والعيوادر)^(٢) .

الرابع - يدل قوله تعالى : (وَأَبْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ) على عدم مشروعية تعطيل يوم الجمعة ، ففيه تعريض بمجانبة التشبه بأهل الكتاب في تعطيل يوم السبت والأحد ، ورد على ما ابتدع فيه من الوظائف ما يدعو إلى الانقطاع عن كل عمل . والأصل أن كل مالم ينص عليه الكتاب الحكيم ، ولا الهدى النبوي ، من خبر قويم ، فهو تشريع مالم يأذن به الله . وإذا رفع الله بفضلنا الإصر والأغلال التي كانت على من قبلنا ، فما بالناس نستجرحها إلينا بالأسباب الضعيفة ، فاللهم غفراً .

(١) مجموعة للمؤلف رحمه الله بدمشق .

(٢) طبعه في المطبعة السلفية بمصر عام ١٣٤١ هـ .

الخامس - قال في (الإكليل) : في قوله تعالى (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا) مشروعية الخطبة، والقيام فيها، واشتراط الجماعة في الصلاة، وسماعهم الخطبة ، وتحريم الانقضاء . انتهى .

وفي الصحيحين^(١) عن جابر قال : قدمت غير مرة المدينة ، ورسول الله ﷺ يخطب ، فخرج الناس . وبقي اثنا عشر رجلاً ، فنزلت (وَإِذَا رَأَوْا . . .) الآية .

وروى ابن جرير^(٢) عن جابر قال : كان الجوارى إذا نكحوا يعمرون بالكبر والمزامر ، ويتركون النبي ﷺ قائماً على المنبر ، وينفضون إليها ، فأُنزل الله (وَإِذَا رَأَوْا . . .) الآية . وعن مجاهد : اللهم الطبل .

(١) أخرجه البخاري في : ١١ - كتاب الجمعة ، ٣٨ - باب إذا قرأ الناس عن الإمام في صلاة الجمعة ، حديث ٥٤٤ .

ومسلم في : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٠٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٣ - سورة المنافقون

مدنية وآياتها إحدى عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)

[٢] (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
 « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ »
 أى أن الأمر كما قاله « وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » أى فى قولهم (نَشْهَدُ)
 وادعائهم فيه مواطاة قلوبهم ألسنتهم ، لأنهم أضربوا غير ما أظهروا « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ »
 أى حلفهم الكاذب ، أو شهادتهم هذه ، فإنها تجرى مجرى الحلف فى التوكيد « جُنَّةً »
 أى وقاية من القتل والسبي ، « فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى دينه الذى بعث به رسوله
 صلوات الله عليه ، وشريعته التى شرعها خلقه « إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى فى
 اتخاذهم أيمانهم جُنَّةً ، وصددهم ، وغير ذلك من أعمالهم .

تنبيه :

فى (الإكليل) : استدلل بالآية أبو حنيفة على أن (أشهد بالله) يمين ، وإن لم ينو معه ،
 لأنه تعالى أخبر عن المنافقين أنهم قالوه ، ثم سماه (أيماناً) انتهى .
 قال الناصر : وليس فيما ذكره دليل ، فإن قوله (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) غايته أن ما ذكره
 يسمى يميناً ، وليس الخلف فى تسميته يميناً ، وإنما الخلاف : هل يكون يميناً منعقدة يلزم
 بالحنث فيها كفرارة أم لا ؟ وليس كل ما يسمى حلفاً أو قسمًا يوجب حكماً . ألا ترى أنه لو
 قال : أحلف ، ولم يقل : بالله ، ولا بغيره ، فهو من محال الخلاف فى وجوب الكفرارة به ،
 وإن كان حلفاً لغة باتفاق ، لأنه فعل مشتق منه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٣] (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)
- [٤] (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ الْعَدُوُّ فَأَحْذَرْتَهُمْ ، قَتَلَهُمُ اللَّهُ ، إِنَّي يُؤْفِكُونَ)

« ذَلِكَ » أى مانعى عليهم من مساوئهم « بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا » أى ظاهراً « ثُمَّ كَفَرُوا » أى سرّاً « فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » أى ختم عليها بما مروا عليه من التلون والتذبذب ورسوخ الهيات المنكرة ، فحجبوا عن الحق « فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » أى حقية الإيمان ، وحكمة الرسالة والدين « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ » أى لتناسب أشكالهم ، وحسن مناظرهم وروائهم « وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ » أى للين كلامهم بما يدهنون فيه « كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ » أى فى الخلق عن الفائدة ، لأن الخشب إنما تكون مسندة إذا لم تسكن فى بناء ، أو دعامة لشيء آخر .

قال القاشانى : روى عن بعض الحكماء أنه رأى غلاماً حسناً وجهه ، فاستنطقه لظنه ذكاً ، وفطنته ، فما وجد عنده معنى ، فقال : ما أحسن هذا البيت لو كان فيه ساكن ! وهذا معنى قوله (كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ) أى أجرام خالية عن الأرواح ، لا تنفع فيها ولا تمر ، كالأخشاب المسندة إلى الجدران عند الجفاف ، وزوال الروح النامية عنها ، فهم فى زوال استبعاد الحياة الحقيقية ، والروح الإنسانى ، بمثابة .

« يَحْسَبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ » قال ابن جرير^(١) : أى يحسب هؤلاء المنافقون ، من خبثهم ، وسوء ظنهم ، وقلة يقينهم ، كل صيحة عليهم ، لأنهم على وجل أن ينزل الله فيهم أمراً يهلك

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

به أستارهم ويفضحهم ، ويبيح للمؤمنين قتلهم ، وسبى ذراريهم ، وأخذ أموالهم فهم من خوفهم من ذلك ، كلما نزل فيهم من الله وحى على رسوله ، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعطيهم . وقال القاشاني : لأن الشجاعة إنما تكون من اليقين من نور الفطرة . وصفاء القلب ، وهم منغمسون في ظلمات صفات النفوس ، محتجبون بالذات والشهوات ، أهل الشك والارتياب ، فلذلك غلبهم الجبن والخور .

« هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ » قال القاشاني : فقد بطل استعدادهم ، فلا يهتدون بنورك ولا تؤثر فيهم صحبتك « قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَّا يُؤْفَكُونَ » أى كيف يصرفون عن الحق ، مع وضوح مناره . و (قاتل) بمعنى لعن وطرد ، وهو دعاء أو خبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ » أى : هلموا إلى التوبة والإنابة مما فرط منكم ، وذاع من أفاعيلكم ضد المؤمنين « لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ » قال ابن جرير (١) أى : حركوها وهزوها استهزاء برسول الله ﷺ وباستغفاره . وبتشديد الواو من (لَوَّاْ) قرأت القراء على وجه الخبر عنهم ، أنهم كرروا هز رؤوسهم وتحريكها واكثروا . إلا نافعاً ، فإنه قرأ ذلك بتخفيف الواو ، على وجه أنهم فعلوا ذلك مرة واحدة .

« وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ » أى يعرضون عما دعوا إليه ، « وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » أى : عن المصير إلى الرسول والاعتذار .

قال القاشاني : لضراوتهم بالأمور الظلمانية ، واعتيادهم الكلمات البهيمية والسبعية ، فلا يألون النور ، ولا يشتاقون إليه ، ولا إلى الكلمات الإنسانية ، لمسخ الصورة الذاتية .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

«سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» قال القاشاني
لرسوخ الهيآت الظلمانية فيهم ، وزوال قبول استعداداتهم للهداية ، لفسقهم وخرجوهم عن
دين الفطرة القويم . وهذا معنى قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ،
وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ)

«هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا» أي : حتى
تصيبهم مجاعة ، فيتفرقوا عنه . يعنون فقراء المهاجرين .

قال القاشاني : لاحتجاجهم بأفعالهم عن رؤية فعل الله ، وبما في أيديهم عما في خزائن الله ،
فيتوهمون الإنفاق منهم ، لجهلهم .

«وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ» أي : من بيده
خزائنها ، رازقهم منها ، وإن بخل المنافقون .

لطيفة :

قال الشهاب : قوله تعالى (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ . . .) الخ تعليل لرسوخهم في الفسق ،
لا لعدم المغفرة . لأنه معلل بما قبله . وقوله : (عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ) الظاهر أنه حكاية
ما قالوه بعينه ، لأنهم منافقون مقرون برسائله ظاهراً ، ولا حاجة إلى أنهم قالوه تهكماً ، أو
لغلبة عليه ، حتى صار كالعلم ، كما قيل . ويحتمل أنهم عبروا بغير هذه العبارة ، فغيرها الله
إجلالاً لنبيه ﷺ وإكراماً . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَقُولُونَ لَبَنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ،
وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)
« يَقُولُونَ لَبَنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى : لمكان غرورهم وجهلهم
وشدة ارتياحهم .

تنبيهان :

الأول - قال ابن جرير^(١) : عنى بهذه الآيات كلها - فيما ذكر - عبد الله بن أبي ابن سلول .
وذلك أنه قال لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . وقال : لئن رجعنا إلى
المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسمع بذلك زيد بن أرقم ، فأخبر به رسول الله ﷺ ، فدعاه
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عما أخبر به عنه ، فحلف أنه ما قال ! وقيل له : لو أتيت
وسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته أن يستغفر لك ، فجعل يلوى رأسه ويحركه استهزاء ،
ويعنى بذلك أنه غير فاعل ما أشاروا به عليه ، فأنزله الله عز وجل فيه هذه السورة من أولها
إلى آخرها .

ثم أورد ابن جرير الروايات في ذلك . وتقدمه الإمام البخاري ، فأسندها من طرق .
ويجمعها كلها ما رواه ابن إسحاق في غزوة بني المصطلق : أن النبي صلى الله عليه وسلم لقيهم
على ماء لهم يقال له (المريسيع) وأظفروا الله بهم . قال : فبينما الناس على ذلك الماء ، وردت
واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار ، يقال له (جهجاه) ، يقود فرسه .
فازدحم جهجاه وسنان الجهني حليف بني عوف بن الخزرج ، على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهني :

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

يامعشر الأنصار ! وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين ! فغضب عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، غلام حدث ، فقال : أوقد فعلوها ؟! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ! والله ! ما أعدّنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضر من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتهموهم بلادكم ، وقاسمتهموهم أموالكم . أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك عغد فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوّه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب . فقال : مرّ به عباد بن بشر فليقتله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف ، يا عمر ، إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ! ولكن أدنّ بالرحيل ، في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها . فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبيّ ابن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تسكمت به . وكان في قومه شريفاً عظيماً . فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه : يارسول الله ! عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل - حدّبا على ابن سلول ودفعاً عنه .

قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة ، وسلم عليه ، ثم قال : يانبيّ الله ! والله لقد رحّت في ساعة منكراً ، ما كنت تروح في مثلها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال وأى صاحب يارسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبيّ ! قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذلّ ! قال : فأنّت يارسول الله ، والله ، تخرجه منها إن شئت . هو ، والله ، الدليل وأنت العزيز . ثم قال : يارسول الله ! ارفق به .

فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوّجوه ، فإنه يرى أنك قد استلبته ملكاً ، ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومهم ذلك ، حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأرض ، فوقعوا نياماً . وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبيّ . ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس ، وقدم المدينة ، ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين ، في ابن أبيّ ، ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم ، ثم قال : هذا الذي أوفى لله بأذنه اهـ .

وكانت غزاة بني المصطلق هذه ، في شعبان سنة خمس ، كما في (زاد المعاد) .

وزعم قوم أن هذه المقالة كانت في غزوة تبوك . قال الحافظ ابن حجر : وقع في رواية محمد بن كعب عن زيد بن أرقم عند (النسائي) أنها غزوة تبوك . ويؤيده قوله في رواية زهير : في سفر أصاب الناس فيه شدة . وأخرج عبد بن حميد بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير مرسلًا ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلاً لم يرتحل منه حتى يصلي فيه . فلما كان غزوة تبوك ، نزل منزلاً ، فقال عبد الله بن أبيّ : فذكر القصة .

والذي عليه أهل المغازي أنها غزوة بني المصطلق . ويؤيده قول جابر ، بعد قوله صلى الله عليه وسلم لعمر : (دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه) .

وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ، ثم إن المهاجرين كثروا بعد . فهذا مما يوضح وهم من قال : إنها كانت بتبوك ، لأن المهاجرين حينئذ كانوا كثيراً جداً . وقد انضافت إليهم مسلمة الفتوح في غزوة تبوك ، فكانوا حينئذ أكثر من الأنصار انتهى . وسبقه ابن كثير حيث قال : وقوله - أي ابن جبير - إن ذلك كان في غزوة تبوك ، فيه نظر ، بل ليس بجيد ، فإن عبد الله بن أبيّ ابن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك ، بل

رجع بطائفة من الجيش . وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير ، أن ذلك كان في غزوة المريسيع ، وهي غزوة بنى المصطلق . انتهى .

التنبيه الثاني - قال الزمخشري: معنى قوله تعالى: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ) الخ أى: الغلبة والقوة، ولمن أعزه وأيده من رسوله ومن المؤمنين . وهم الأخصاء بذلك . كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين .

وعن بعض الصالحات - وكانت في هيئة رثة - ألتى على الإسلام ، وهو العز الذى لاذل معه ، والغنى الذى لا فقر معه ؟

وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما ؛ أن رجلاً قال له إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً؟ قال : ليس بتيه ، ولكنه عزة وتلا هذه الآية . انتهى .

قال الرازي : قال بعض العارفين في تحقيق هذا المعنى : العزة غير الكبر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، وإكرامها عن أن يضعها لأقسام عاجلة دنيوية . كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه، وإزالتها فوق منزلها . فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاستباه التواضع بالضععة ، والتواضع محمود ، والضععة مذمومة . والكبر مذموم ، والعزة محمود . ولما كانت غير مذمومة ، وفيها مشاكلة للكبر ، قال تعالى ^(١) (بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) وفيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق ، والوقوف على حد التواضع ، من غير انحراف إلى الضعة ، وقوف على صراط العزة المنصوب على نار الكبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[١٠] (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ)

[١١] (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» أى :

لا يشغلكم الاغتياب بها عن ذكر أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، أو ذكر ما أنزله وأوحى به .
ومنه أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . فإن مقتضى الإيمان أن لا يبالى المؤمن بعزة المال والولد ،
مع عزة الله «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» أى المغبونون حظوظهم من كرامة الله
ورحمته ، كما قال سبحانه ^(١) (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) . «وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ
فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ» أى أنصديق وأخرج حقوق مالى
«وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ» * ولَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا «أى لن يؤخر فى أجل
أخذ إذا حضر ، ولكن يحترمه .

قال القاشانى : معنى قوله (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)
إن صدقتم فى الإيمان ، فإن قضية الإيمان غلبة حب الله على محبة كل شىء ، فلا تكن محبتهم
ومحبة الدنيا ، من شدة التعلق بهم وبالأموال ، غالبة فى قلوبكم على محبة ، فتحتجبوا بهم
عنه ، فتصيروا إلى النار ، فتخسروا نور الاستعداد الفطرى بإضاعته فيما يفنى سريعا ،
وتجردوا عن الأموال بإنفاقها وقت الصحة والاحتياج إليها ، ليكون فضيلة فى أنفسكم ،

وهيأة نورية لها ، فإن الإتفاق إنما ينفع إذا كان عن ملكة السخاء ، وهيأة التجرد في النفس . فأما عند حضور الموت ، فاللأل للوارث لا له ، فلا ينفعه إتفاقه ، وليس له إلا التحسر والتندم ، وتمنى التأخير في الأجل بالجهل ، فإنه لو كان صادقاً في دعوى الإيمان ، وموقناً بالآخرة لتيقن أن الموت ضرورى ، وأنه مقدر في وقت معين قدره الله فيه بحكمته ، فلا يمكن تأخره .

« وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى : بأعمالكم ونياتكم . فلا ينفع الإتفاق في ذلك الوقت ولا تمنى التأخير في الأجل ، ووعده التصديق والصلاح ، لعله بأنه ليس عن ملكة السخاء ، ولا عن التجرد والزكاء ، بل من غاية البخل وحب المال ، كأنه يحسب أنه يذهب به معه ، وبأن ذلك التمنى والوعد محض الكذب ، ومحبة العاجلة ، لوجود الهيأة المأفية للتصدق والصلاح في النفس ، والميل إلى الدنيا ، كما قال الله تعالى ^(١) (وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ) - والله أعلم - .

تنبيه :

قال الإمام إلكيا الهراسى : يدل قوله تعالى (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنٰكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَنَّ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ...) الآية ، على وجوب إخراج الزكاة على الفور ، ومنع تأخيرها . وأخرج الترمذى ^(٢) عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو يجب عليه فيه زكاة ، فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت . فقيل له : إنما يسأل الرجعة الكفار ، فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآنا . ثم قرأ هذه الآية .

(١) [٦ / الأنعام / ٢٨] .

(٢) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٦٣ - سورة المنافقين ، ٥ - حدثنا عبد بن حميد ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٤ - سُورَةُ التَّغَابُنِ

مكية ، على ما يظهر من أمثالها لمن سبر . وقيل : مدنية . وآيها ثمان عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٢] (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ» أى ملك السموات والأرض، ونفوذ الأمر فيهما «وَلَهُ الْحَمْدُ» أى الثناء الجميل، لأنه مولى النعم وموجدها «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ « أى هو الذى انفرد بإيجادكم فى أحسن تقويم ، قابل للسكالات العلمية والعملية ، ومع ذلك فنكم مختار للكفر ، جاحد للحق ، كاسب له على خلاف ماتستدعيه خلقته . ومنكم مختار للإيمان ، كاسب له ، حسباً تقتضيه خلقته . وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان ، شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد ، وما يتفرع عليها من سائر النعم . فافعلتم ذلك مع تمام تمكّنكم منه ، بل تشعبتم شعباً ، وتفرقتم فرقاً . وتقديم الكفر ، لأنه الأغلب فيما بينهم ، والأنسب بمقام التوبيخ - أفاده أبو السعود - « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم به ، فأثروا ما يجديكم ، وجانبوا ما يردىكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى بالحكمة البالغة التى ترشد إلى المصالح الدينية والدنيوية « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ » أى حيث برأكم فى أحسن تقويم . وذلك أنه تعالى جعل الإنسان معتدل القائمة على أعدل الأمزجة . وآتاه العقل وقوة النطق ، والتصرف فى المخلوقات ، والقدرة على أنواع الصناعات « وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » أى مرجعكم للجزاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى بخفائياها ، وما تنطوى عليه . وفيه تقرير لما قبله ، كالدليل عليه . لأنه إذا علم السرائر ، وخفيات الضمائر ، لم يخف عليه خافية من جميع الكائنات .

قال الزمخشري : نبه بعلمه ما فى السموات والأرض ، ثم بعلمه ما يستره العباد ويعلمونه ، ثم بعلمه ذوات الصدور ، أن شيئاً من الكليات والجزئيات غير خاف عليه ، ولا عازب عنه ، فحقه أن يتقى ويحذر ، ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه . وتكرير العلم ، فى معنى تكرير الوعيد . وكل ما ذكره بعد قوله تعالى : (فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) كما ترى ، فى معنى الوعيد على الكفر ، وإنكار أن يعصى الخالق ، ولا تشكر نعمته . انتهى .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٥] (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٦] (ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرُ يَهُدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ، وَأَسْتَفْنَى اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ)

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى معشر الكفرة الفجرة « نَبُوءُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ » أى كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط « فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ » من عذاب الاستئصال . و (الوبال) الثقل ، والسدة المترتبة على أمر من الأمور . و (أمرهم) كفرهم ، عبر عنه بذلك ، للإيدان بأنه أمر هائل ، وجناية عظيمة « وَلَهُمْ » أى فى الآخرة « عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرُ يَهُدُونَنَا » أى ذلك المذكور من ذوقهم وبال أمرهم فى الدنيا ، وما أعد لهم من عذاب الأخرى ، بسبب أنه أتتهم رسلهم بالواضحات من الأدلة والأعلام ، على حقيقة ما يدعونهم إليه ، فنبذوها ، واتبعوا أهواءهم ، واستهزأوا برسلهم ، وقالوا : أبشر يهودونا ؟

قال ابن جرير^(١) : استكباراً منهم أن تكون رسل الله إليهم بشراً مثلهم ، واستكباراً عن اتباع الحق من أجل أن بشراً مثلهم دعاهم إليه . وجمع الخبر عن البشر فقيل (يهدوننا) ، ولم يقل (يهدينا) ، لأن (البشر) وإن كان فى لفظ الواحد ، فإنه بمعنى الجميع . انتهى . وقال القاشانى . لما حججوا بصفات نفوسهم عن النور الذى هو به بفضل عليهم بما لا يقاس ، ولم يجدوا منه إلا البشرية ، أنكروا هدايته . فإن كل عارف لا يعرف معروفه إلا بالمعنى الذى فيه ، فلا يوجد النور الكمال إلا بالنور الفطرى ، ولا يعرف الكمال إلا الكامل ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٢١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

ولهذا قيل : لا يعرف الله إلا الله . وكل طالب وجد مطلوبه بوجه ما دأب لما أمكن به التوجه نحوه . وكذا كل مصدق بشيء ، فإنه واجد للمعنى المصدق به ، بما في نفسه من ذلك المعنى . فلما لم يكن فيهم شيء من النور الفطري أصلاً ، لم يعرفوا منه الكمال فأنكروه ، ولم يعرفوا من الحق شيئاً ، فيحدث فيهم طلب ، فيحتاجوا إلى الهداية ، فأنكروا الهداية .

« فَكَفَرُوا » أى : بالحق والدين والرسول « وَتَوَلَّوْا » أى عن التدبر فى الآيات البينات ، « وَاسْتَغْنَى اللَّهُ » أى : أظهر استغناءه عن إيمانهم وطاعتهم ، حيث أهلكهم وقطع دابرهم ، ولولا غناه تعالى عنهم لما فعل ذلك . فـ (استغنى) معطوف على ما قبله ، وجوز جعله حالاً بتقدير (قد) . أى : وقد استغنى بكأله ، عرفوا أو لم يعرفوا .

« وَاللَّهُ غَنِيٌّ » أى : بذاته عن العالمين ، فضلاً عن إيمانهم ، لا يتوقف كماله من كماله عليهم ، ولا على معرفتهم له . « حَمِيدٌ » أى : يحمده كل مخلوق ، أو مستحق للحمد بنفسه ، وإن لم يحمده حامد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ

بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

« زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ » أى من قبوركم « ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ » أى فى الدنيا « وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » أى هين لقبول المادة ، وثبوت القدرة الكاملة .

قال ابن كثير: وهذه هى الآية الثالثة التى أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل ، على وقوع المعاد ووجوده . فالأولى فى يونس^(١) : (وَيَسْتَمِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ، قُلْ إِيَّايَ وَرَبِّي إِنَّهُ وَلِحَقٌّ) والثانية فى سبأ^(٢) : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) والثالثة هذه الآية .

(١) [١٠ / يونس / ٥٣] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٣] .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٨] (فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » أى إذا كان الأمر كذلك ، فأمنوا بالله وحده ورسوله فيما يخبركم به من البعث والجزاء وغيره « وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا » يعنى القرآن الحكيم . والالتفات إلى نور العظمة ، لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٩] (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ، ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ

وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ » ظرف لـ (تَنْبِؤُنَّ) أو لـ (خَبِيرٌ) لما فيه من معنى الوعيد . كأنه

قيل : والله مجازيكم يوم يجمعكم ، أو مفعول لـ (اذكر) « لِيَوْمِ الْجَمْعِ » أى ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون . أى لأجل ما فيه من الحساب والجزاء « ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ » قال الزمخشري : التغابن مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً ، لنزول السعداء منازل الأشقياء التى كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء . وفيه تهكم بالأشقياء لأن نزولهم ليس بغبن . انتهى .

ومما حسن إطلاق التغابن على ما ذكر ، ورود البيع والاشتراء فى حق الفريقين . فذكر تعالى فى حق الكافرين أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وذكر أنهم ما ربحت تجارتهم ، فكانهم غبنوا أنفسهم . ودل المؤمنين على تجارة رابحة فقال (١) (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَارَةٍ ...) الآية ، وذكر أنهم باعوا أنفسهم بالجنة . فخرت صفقة الكفار ، وربحت صفقة المؤمنين .

(١) [٦١ / الصف / ١٠] .

وقال الفاشاني : أى ليس التغابن فى الأمور الدنيوية ، فإنها أمور فانية سريعة الزوال ، ضرورية الفناء ، لا يبقى شىء منها لأحد . فإن فات شىء من ذلك ، أو أفاته أحد ، ولو كان حياته ، فإنما فات أو أُفيت ما لزم فواته ضرورة ، فلا غبن ولا حيف حقيقة ، وإنما الغبن والتغابن فى إفاته شىء لو لم يفته لبقى دائماً ، وانتفع به صاحبه سرمداً ، وهو النور الكمال والاستعدادى ، فتظهر الحسرة والتغابن هناك ، فى إضاعة الربح ورأس المال فى تجارة الفوز والنجاة ، كما قال ^(١) (فَمَا رِبَحَتْ تَجَرَّتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) فمن أضاع استعدادده ونور فطرته ، كان مغبوناً مطلقاً ، كمن أخذ نوره وبقى فى الظلمة . ومن بقى نور فطرته ولم يكتسب الكمال اللائق به الذى يقتضيه استعدادده ، أو اكتسب منه شيئاً ، ولم يبلغ غايته ، كان مغبوناً بالنسبة إلى الكمال التام ، فكأنما ظفر بذلك الكمال بمقامه ومرامه ، وبقى هذا متحيراً فى نقصانه . انتهى « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[١١] (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى بقدره ومشيئته ، كقوله فى آية الحديد ^(٢) (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ

(١) [٢ / البقرة / ١٦] . (٢) [٥٧ / الحديد / ٢٢] .

أَنْ تَبْرَأَهَا) . « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ » أى إلى العمل بمقتضى إيمانه، ويشرحه للزيادة من الطاعة والخير. « وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى فيعلم مراتب إيمانكم، وسرائر قلوبكم ، وأحوال أعمالكم وآفاتكم ، وخصوصها من الآفات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

[١٣] (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » أى لما أرسل به ، والله سبحانه ولى الانتقام ممن عصاه ، وخالف أمره « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » قال ابن كثير: الأول خبر عن التوحيد ، ومعناه طلب . أى وحدوا الإلهية له ، وأخلصوها لديه ، وتوكلوا عليه ، كما قال ^(١) (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ

فَأَحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاَحْذَرُوهُمْ »

خطاب لمن آمن بالنبي ﷺ ، وكان له من أزواجهم وأولادهم من يعاديهم لإيمانهم ، ويؤذيهم بسببه . فكان ذلك يغيظهم ، وربما يحملهم على البطش بهم . فأمروا بالحدز من فتنتهم

(١) [٧٣ / الزمل / ٩] .

وشرّكهم فحسب ، وأن يظهرُوا فيهم بمظهر أولى الفضل . كما قال : « وَإِنْ تَعَفُّوا » أى : عن ذنوبهم ، « وَتَصْفَحُوا » أى : بترك التثريب والتعيير « وَتَغْفِرُوا » أى جنائياتهم بالرحمة لهم ، « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى يعاملكم بمثل ما عملتم .
 روى ابن جرير^(١) عن إسماعيل بن أبى خالد قال : كان الرجل يُسلم فيلومه أهله وبنوه ، فنزلت الآية .

وعن ابن عباس^(٢) قال : كان الرجل إذا أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة تمنعه زوجته وولده ، ولم يألوا يثبطونه عن ذلك ، فقال الله : إنهم عدوّ لكم فاحذروهم واسمعوا وأطيعوا ، وامضوا لشأنكم . فكان الرجل بعد ذلك إذا منع وثبط ، مرّ بأهله وأقسم ليفعلن وليعاقبن أهله في ذلك ، فقال الله جل ثناؤه : (وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا) ، الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » أى : تفتن بهما النفس ، ويجرى عليها البلاء بهما ، إذا أوثرا على محبة الحق .

« وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » أى لمن آثر طاعة الله ومحبته عليهما .

روى ابن جرير^(٣) عن الضحاك قال : هذا فى أناس من قبائل العرب . كان يسلم الرجل أو نفر من الحى ، فيخرجون من عشائرهم ، وَيَدْعُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ عَامِدِينَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فتقوم عشائرهم وأزواجهم وأولادهم وأبائهم فيفناشدونهم الله

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٦ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أن لا يفارقوهم ، ولا يؤثروا عليهم غيرهم ، فمنهم من يرق ويرجع إليهم ، ومنهم من يمضي حتى يلحق بنبي الله ﷺ .

وعن مجاهد : يحمل الرجل ماله وولده على قطعة الرحم ، أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه به . فلذلك وعد في إيثار طاعة الله ، وأداء حق الله في الأموال ، الأجر العظيم ، وهو الجنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحَّ نَفْسِهِ فَآوَلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » أى جهدكم ووسعكم ، أى ابذلوا فيها استطاعتكم ، « وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا » أى افهموا هذه الأوامر واعملوا بها « وَأَنْفِقُوا » أى أموالكم التى ابتلاكم الله بها فى مرضيه « خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ » أى واتقوا خيراً لأنفسكم . أى اقصدوا فى الأموال والأولاد ما هو خير لكم . ف (خيراً) مفعول بمقدر ، وهذا قول سيديويه ، كقوله تعالى ^(١) (أَنْهَوْا خَيْرًا لَّكُمْ) وقيل : تقديره يكن الإنفاق خيراً ، فهو خبر (يكن) مضمراً ، وهو قول أبى عبيد . وقيل : مفعول ل (أنفقوا) وهو رأى ^(٢) ابن جرير . قال : أى وأنفقوا مالاً من أموالكم لأنفسكم تستنفذوها من عذاب الله ، والخير فى هذا الموضع ، المال « وَمَنْ يُوقْ شَحَّ نَفْسِهِ » أى بالعصمة منه « فَآوَلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى المنجحون الذين أدركوا طلباتهم عند ربهم .

(١) [٤ / النساء / ١٧١] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ

شَكُورٌ حَلِيمٌ)

[١٨] (عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » أى بالإتفاق فى سبيله، ما يحبون من غير منّ ولا أذى. قال الزمخشريّ: ذكر (القرض) تلطّف فى الاستدعاء « يَضْعِفْهُ لَكُمْ » أى يضاعف جزاءه وخلفه « وَيَغْفِرْ لَكُمْ » أى ذنوبكم بالصفح عنها « وَاللَّهُ شَكُورٌ » أى ذو شكر لأهل الإتفاق فى سبيله، بحسن الجزاء لهم على ما أنفقوا « حَلِيمٌ » أى عن أهل معاصيه، بترك معاجلتهم بعقوبته. « عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أى ما يغيب عن أبصار عباده وما يشاهدونه « الْعَزِيزُ » أى الغالب فى انتقامه ممن خالف أمره ونهيه « الْحَكِيمُ » أى فى تدبيره خلقه، وصرفه إياهم فيما يصلحهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٥ - سُورَةُ الطَّلَاقِ

قال المهايمى : سميت به لبيانها كيفية الطلاق السنّى ، وما يترتب على الطلاق من العِدَّة
والنفقة والسكنى .

وتسمى سورة النساء القُصْرَى . مدنية . وآيها اثنتا عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ،
وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ
يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ
فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)
« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ » أى فى وقتها ، وهو
الطَّهْر . فالام للتأقبت .

وقال الناصر : جعلت العدة ، وإن كان فى الأصل مصدراً ، ظرفاً للطلاق المأمور به .
وكثيراً ما تستعمل العرب المصادر ظرفاً ، مثل خفوق النجم ، ومقدم الحاج . وإذا كانت
العدة ظرفاً للطلاق المأمور به ، وزمانه هو الطهر ، فالطهر عدة إذا .

قال ابن جرير^(١) : أى إذا طلقتم نساءكم فطلقوهن لطهرهن الذى يحصيها من عدتهن
طاهراً من غير جماع ، ولا تطلقوهن بحيضهن الذى لا يعتد به من قُرْبِهِنَّ . ثم روى عن
قتادة قال : العدة أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، تطليقة واحدة .

قال ابن كثير : ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة ، وطلاق
بدعة . فطلاق السنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان حملها . والبدعي
هو أن يطلقها فى حال الحيض ، أو فى طهر قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت أم لا . وطلاق
ثالث لا سنة فيه ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة ، وغير المدخول بها . وسيأتى فى
التنبيهات زيادة على هذا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَأَخْضُوا الْعِدَّةَ » أى اضبطوها وأكلوها ثلاثة أقرء « وَأَتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرَجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ » أى : اتقوه فى تعدى حدوده فى المطلقات ، فلا تخرجوهن من بيوتهن التى كنتم أسكنتموهن فيها قبل الطلاق ، غضباً عليهن ، وكرهاة لمساكنتهن ، لأن لهن حق السكنى ، حتى تنقضى عدتهن .

« وَلَا يَخْرُجَنَّ » أى : باستبدادهن من تلقاء أنفسهن .

قال الناصر : قوله تعالى (وَأَتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ) توطئة لقوله (لَا تَخْرَجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ) حتى كأنه نهى عن الإخراج مرتين : مندرجاً فى العموم ، ومفرداً بالخصوص . وقد تقدمت أمثاله .

« إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ » أى : فإنهن يخرجن . و (الفاحشة) الزنا ، أو أن تبذوا المطلقة على أهلها ، أو هى كل أمر قبيح تعدى فيه حده ، فيدخل فيه الزنا والسرقه والبذاء على الأحماء ونحوها ، والأخير مختار ابن جرير ، ووفقاً مع عموم اللفظ الكريم .

« وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » أى : بتمريرها للعقاب بما أكسبها من الوزر . أو أضر بها بما اكتسب من قوة النفار ، وشدة البغضة التى قد تتفاقم فتعسر الرجعة ، مع أن الأولى تخفيف الشنآن ، وتلافي الهجران - وهو الأظهر - ولذا قال سبحانه : « لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا » فإنه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية .

قال أبو السعود : وقد قالوا إن الأمر الذى يحدثه الله تعالى ، أن يقلب قلبه عما فعله بالتعدى إلى خلافه ، فلا بد أن يكون الظلم عبارة عن ضرر دنيوى يلحقه بسبب تعديه ، ولا يمكن تداركه . أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوى والأخروى . ويخص التعليل بالدنيوى لكون احتراز الناس منه أشد ، واهتمامهم بدفعه أقوى .

وقوله تعالى (لَا تَدْرِي) خطاب للمتعدى بطريق الالتفات ، لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدى ، لا للنبي ﷺ ، كما توهم ، فالعنى : ومن يتعد حد الله فقد أضر بنفسه ، فإنك

لا تدرى أيها المتعدى عاقبة الأمر ، لعل الله يحدث في قلبك ، بعد ذلك الذي فعلت من التعدى ،
أمراً يقتضى خلاف ما فعلته ، فيبدل بيفضها محبة ، وبالإعراض عنها إقبالا إليها ، ويتسنى
تلافيه رجعة ، أو استئناف نكاح . انتهى .

تنبيهات :

الأول - قال في (الإكليل) : فسر النبي ﷺ قوله تعالى (لِعَدَّتِهِنَّ) بأن تطلق
في طهر لم يجامع فيه - أخرجه البخاري ومسلم^(١) - وفي لفظ مسلم^(٢) أنه قرأ (فَطَلِقُوهُنَّ
في قبل عدتهن) ، فاستدل الفقهاء بذلك على أن طلاق السنة ماذكر ، وأن الطلاق في الحيض
أو طهر جومعت فيه بدعى حرام . واستدل قوم بالآية على عدم وقوعه في الحيض .

الثاني - في (الإكليل) : في قوله تعالى (لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ) وجوب
السكنى لها مادامت في العدة ، وتحريم إخراجها وخروجها (إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ)
كسوء الخلق ، والبذاءة على أحماها . فتنقل .

الثالث - في (الإكليل) : استدلل بقوله تعالى (لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا)
من لم يوجب السكنى بغير الرجعة . أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن وعكرمة قال : المطلقة ثلاثاً ،
والمتوفى عنها ، لا سكنى لها ولا نفقة ، لقوله : (لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا) فايحدث
بعد الثلاث .

الرابع - قال ابن المنذر : أباح الله الطلاق بطليعة هذه السورة . انتهى .
وذلك - كما قال بعض الحكماء - إذا استحال الوفاق بين الزوجين ، ولم يبق في الإمكان

(١) أخرجه البخاري في : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ١ - باب قول الله تعالى : يَا أَيُّهَا
النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ ، حديث رقم ٢٠٦٠ ، عن عبد الله بن عمر .

وأخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث ١ - ١٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث رقم ١٤ (طبعتنا) .

إصلاح ، وصمم الزوج عليه ، لأن وجود شخصين متنافري الطباع ، متباغضين ، لا ينظر أحدهما إلى الآخر إلا ويحسّ في نفسه بالنفور ، وفي قلبه بالعداوة ، يسعى كل منهما في أذى صاحبه - شرّاً وفساد يجب محوه وقطعه . انتهى .

وقال ابن القيم في (إغاثة اللهفان) : إن الله سبحانه وتعالى لما كان يبغض الطلاق ، لما فيه من كسر الزوجة ، وموافقة رضا عدوّه إبليس ، حيث يفرح بفارقة طاعة الله بالنكاح الذي هو واجب أو مستحب ، وتعرض كل من الزوجين للفجور والمعصية ، وغير ذلك من مفسدات الطلاق ؛ وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج أو الزوجة ، وتسكون المصلحة فيه شرعه على وجه يحصل به المصلحة وتندفع به المفسدة ، وحرمه على غير ذلك الوجه ، فشرعه على أحسن الوجوه وأقربها لمصلحة الزوج والزوجة ، فشرع له أن يطلقها طاهراً من غير جماع طليقة واحدة ، ثم يدعها حتى تنقضي عدتها . فإن زال الشر بينهما ، وحصلت الموافقة ، كان له سبيل إلى لمّ الشعث ، وإعادة الفراش كما كان ، وإلا تركها حتى انقضت عدتها . فإن تبعتها نفسه كان له سبيل إلى خطبتها ، وتجديد العقد عليها برضاها . وإن لم تتبعها نفسه ، تركها فنكحت من شاءت .

وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار ، فهذا هو الذي شرعه وأذن فيه ، ولم يأذن في إبانته بعد الدخول إلا بالتراضي بالفسخ والافتداء . فإذا طلقها مرة بعد مرة بقى له طليقة واحدة . فإذا طلقها الثالثة حرمها عليه ، عقوبة له ، ولم يحل له أن ينكحها حتى تنكح زوجاً غيره ، ويدخل بها ثم يفارقها بموت أو طلاق . فإذا علم أن حبيبته يصير إلى غيره ، فيحظى به دونه ، أمسك عن الطلاق . انتهى .

ومباحث الطلاق وفروعه تجدر مراجعتها من (إغاثة اللهفان) و (زاد المعاد) لابن القيم ، و (فتاوى ابن تيمية) شيخه . ومن لم يقف على ما حرراه واجهدها في الصدع به ، فانه علم غزير ، وفرقان منير ، وبالله التوفيق .

الخامس - استدلل بهذه الآيات من قال : إن جمع الطلاق في دفعة واحدة غير مشروع . قال الإمام ابن القسيم في (إغاثة اللفيهان) : ووجه الاستدلال بالآية من وجوه :

أحدها - أنه تعالى إنما شرع أن تطلق لعدتها ، أي لاستقبال عدتها ، فيطلق طلاقاً يتعقبه شروعه في العدة ، ولهذا أمر عليه السلام عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ، لما طلق امرأته ، أن يراجعها ، وتلا هذه الآية تفسيراً للمراد بها ، وأن المراد بها الطلاق في قبل العدة . وكذلك كان يقرؤها عبد الله بن عمر ، ولهذا قال كل من قال بتحريم جمع الثلاث : أنه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى في ذلك الطهر لأنه غير مطلق للعدة ، فإن العدة قد استقبلت من حين الطلقة الأولى ، فلا تكون الثانية للعدة ، فلا يكون مأذوناً فيها ، فإن العدة إنما تحسب من الطلقة الأولى ، لأنها طلاق للعدة بخلاف الثانية والثالثة . ومن جعله مشروعاً قال : هو الطلاق لتام العدة ، والطلاق لتامها كالطلاق لاستقبالها . وكلاهما طلاق للعدة . وأصحاب القول الأول يقولون : المراد بالطلاق للعدة ، الطلاق لاستقبالها ، كما في القراءة الأخرى التي تفسر القراءة المشهورة (فطلقوهن في قبل عدتهن) قالوا فإذا لم يشرع إرداف الطلاق للطلاق ، قبل الرجعة ، أو العقد ، فإن لا يشرع جمعه معه أولى وأحرى . وإرداف الطلاق أسهل من جمعه ، ولهذا شرع الإرداف في الأظهار من لا يجوز الجمع في الطهر الواحد . وقد احتج عبد الله بن عباس على تحريم جمع الثلاث بهذه الآية . قال مجاهد : كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فسكت حتى ظننت أنه رادها . ثم قال : ينطلق أحدكم فيركب الأحوقة ، ثم يقول : يا ابن عباس ! وإن الله عز وجل قال : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) ، فما أجدر لك مخرجاً . عصيت ربك ، وبانت منك امرأتك ، وإن الله عز وجل قال : (يَأْسَأُهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقْتُهُنَّ فِي قَبْلِ عَدَّتِهِنَّ) . وهذا حديث صحيح^(١) . ففهم ابن عباس من الآية أن جمع الثلاث محرم ، وهذا فهم من دعاه

(١) أخرجه أبو داود في : ١٣ - كتاب الطلاق ، ١٠ - باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث ، حديث رقم ٢١٩٧ .

النبي ﷺ أن يفقهه الله في الدين ، ويعلمه التأويل ، وهو من أحسن الفهم كما تقرر .
الوجه الثاني: من الاستدلال بالآية قوله تعالى (لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)
وهذا إنما هو في الطلاق الرجعي ، فأما البائن فلا سكنى لها ولا نفقة ، لسنة رسول الله ﷺ
الصحيحة التي لا يُطمَن في صحتها ، الصريحة التي لا شبهة في دلالتها ، فدل على أن هذا حكم كل
طلاق شرعه الله تعالى ، ما لم تسبقه طلقتان قبله . ولهذا قال الجمهور : إنه لا يُشرع له ، ولا
يملك إبانها بطلقة واحدة بدون العوض . وأبو حنيفة قال : يملك ذلك ، لأن الرجعة حقه ،
وقد أسقطها . والجمهور يقولون : ثبوت الرجعة ، وإن كان حقاً له ، فلها عليه حقوق الزوجية
فلا يملك إسقاطها إلا بمخالعة ، أو باستيفاء العدد ، كما دل عليه القرآن .

الوجه الثالث: أنه قال : (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)
فإذا طلقها ثلاثاً جملة واحدة ، فقد تعدى حدود الله ، فيكون ظالماً .

الوجه الرابع : أنه سبحانه قال : (لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا) وقد
فهم أعلم الأمة بالقرآن ، وهم الصحابة ، أن الأمر ههنا هو الرجعة . قالوا : وأى أمر يحدث
بعد الثلاث ؟

الوجه الخامس - قوله تعالى : (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ) فهذا حكم كل طلاق شرعه ، إلا أن يسبق بطلقتين قبله . وقد احتج ابن عباس
على تحريم جمع الثلاث بقوله تعالى : (يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ فِي قَبْلِ
عَدَّتِهِنَّ) كما تقدم - وهذا حق ، فإن الآية إذا دلت على منع إرداف الطلاق في طهر أو أطهار ،
قبل رجعة أو عقد - كما تقدم - لأنه يكون مطلقاً في غير قبل العدة - فلأن تدل على تحريم
الجمع ، أولى وأحرى .

قالوا : والله سبحانه شرع الطلاق على أيسر الوجوه وأرقها بالزوج والزوجة ، لئلا
يتسارع العبد في وقوعه ومفارقة حبيبته ، وقد وَتَّ للعدة أجلاً لاستدراك ألفاظه بالرجعة ،

فلم يبح له أن يطلق المرأة في حال حيضها ، لأنه وقت نقرته عنها ، وعدم قدرته على استمتاعه بها ، ولا عقيب جماعها ، لأنه قد قضى غرضه منها ، وربما فترت رغبته فيها ، ويزهد في إمساكها لقضاء وطره ، فإذا طلقها في هاتين الحالتين ربما يندم بعد هذا ، مع ما في الطلاق من تطويل العدة ، وعقيب الجماع من بعلها ، لأنه ربما قد اشتمل رحمها على ولدٍ منه ، فلا يريد فراقها . فأما إذا حاضت ، ثم طهرت ، فنفسه تتوق إليها ، لطول عهده بجماعه ، فلا يقدم على طلاقها في هذه الحالة إلا الحاجة إليه . فلم يبح له الشارع أن يطلقها إلا في هذه الحال ، أوفى حال استبانة حملها ، لأن إقدامه أيضاً على طلاقها في هذه الحال دليل على حاجته إلى الطلاق وقد أكد النبي ﷺ هذا بمنعه لعبد الله بن عمر أن يطلق في الطهر الذي يلي الحيضة التي طلق فيها ، بل أمره أن يراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، إن بداله أن يطلقها فليطلقها . وفي ذلك عدة حكم :

منها - أن الطهر المتصل بالحيضة ، هو وهي حكم القرء الواحد ، فإذا طلقها في ذلك الطهر ، فكأنه طلقها في الحيضة ، لاتصاله بها ، وكونه معها ، كالشيء الواحد .

الثانية - أنه لو أذن له في طلاقها في ذلك الطهر ، فيصير كأنه راجع لأجل الطلاق ، وهذا ضد مقصود الرجعة . فإن الله تعالى إنما شرعها للإمساك ولمنفعة النكاح ، وعود الفراش ، فلا يكون لأجل الطلاق ، فيكون كأنه راجع ليطلق . وإنما شرعت الرجعة ليمسك . وبهذا بعينه أبطلنا نكاح المحلل ، فإن الله سبحانه وتعالى شرع النكاح للإمساك والمعاشرة ، والمحلل تزوج ليطلق ، فهو مضاد لله تعالى في شرعه ودينه .

الثالثة : أنه إذا صبر عليها حتى تحيض ثم تطهر ، ثم تحيض ثم تطهر ، زال ما في نفسه من الغضب الحامل له على الطلاق ، وربما صلحت الحال بينهما ، وأقلعت عما يدعوه إلى الطلاق ، فيكون تطويل هذه المدة رحمة به وبها . وإذا كان الشارع ملتفتاً إلى مثل هذه الرحمة والشفقة على الزوج ، وشرع الطلاق على هذا الوجه الذي هو أبعد شيء عن الندم ، فكيف يليق

بشرعه أن يشرع إبانها وتحريمها عليه بكلمة واحدة يجمع فيها ما شرعه متفرقاً ، بحيث لا يكون له سبيل إليها . وكيف يجتمع في حكمة الشارع ، وحكمة هذا وهذا ؟
فهذه الوجوه ونحوها مما بين بها الجمهور أن جمع الثلاث غير مشروع ، هي بعينها تعين عدم الوقوع ، وأنه إنما يقع المشروع وحده ، وهي الواحدة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَالِكُمْ يُوعَظُ بِهِ

مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

« فَإِذَا بَلَغْنَ » أى : المطلقات اللواتى فى عدة « أَجَلَهُنَّ » يعنى آخر العدة . أى : إذا

قرب انتضاؤه وشارفنه « فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » أى . فراجعوهن بما أمركم الله به من الحقوق

التي أوجبها الله لهن من النفقة والكسوة والسكن وحسن الصحبة « أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ »

أى : أتركوهن حتى تنقضى عددهن فيبين منكم بمعروف ، وهو إيفائهن ما لهن من حق ،

كالصداق والمثمة ، على ما أوجب عليه لهن .

« وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ » أى : أشهدوا عند الرجعة والفرقة من يرضى دينهما

وأمانتهما .

قال ابن عباس : فإن راجعها فهي عنده على تطليقتين . وإن لم يراجعها ، فإذا انقضت

عدتها ، فقد بانث منه بواحدة ، وهي أملك بنفسها ، ثم تزوج من شاءت هو أو غيره .

وهذا الإشهاد على المراجعة والطلاق مندوب ، ومنهم من ذهب إلى وجوبه عليهما ،

ومنهم من فرق بين المراجعة فأوجب فيها ، وبين الطلاق فاستحبه . وظاهر الأمر في الآية

الوجوب فيهما ، والترجيح يجب أن يكون بدليل مرجح . ومما يؤيد الوجوب أن الأوامر في

الآية كلها ، قبل وبعد ، للوجوب إجماعاً ، ولا دليل يصرف الأمر بالإشهاد عن ظاهره ، فبقى

كسابقه ولاحقه ، وإن كان القرآن لا يفيد المشاركة في الحكم ، إلا أنه عاضد ومؤيد ، إذا لم يوجد صارف . ثم الأمر بالإشهاد عند الطلاق ، يدل على أن الحلف بالطلاق ، أو تعليق وقوعه بأمر ، كله مما لا يعدّ طلاقاً في الشرع ، لأن ما طلب فيه الإشهاد ، لا بد أن ينوى فيه إيقاعه ويعزم عليه ويتبهاً له . وجدير بعصمة ينوى حلها ، وكانت معقودة أو وثق عقد ، أن يشهد عليه ، بعد أن يسبقها مراجعة من حكمين من قبل الزوجين ، كما أشارت إليه آية الحكم . فليتدبر الطلاق المشروع ، والطلاق المبتدع ، وبالله التوفيق .

قال الزخشرى : قيل فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد ، وأن لا يتهم في إمساكها ، ولثلاث يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث .

« وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ » أى : لوجهه خالصاً ، وذلك أن يقيموها لالمشهود له ، ولا للمشهود عليه ، ولا لفرض من الأغراض ، سوى إقامة الحق ، ودفع الظلم ، كقوله تعالى ^(١) .
(كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) انتهى .

وتدل الآية على حظر أخذ الأجرة على أداء الشهادة ، ويؤيده قوله تعالى : « ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » فإن المشار إليه هو الحث على إقامة الشهادة لوجه الله ، ولأجل القيام بالقسط ، ويحتمل عوده على جميع ما فى الآية .
« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ،

إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)

« وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » قال الزخشرى : يجوز أن تكون جملة اعتراضية

مؤكدّة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة ، وطريقه الأحسن ، والأبعد من الندم .

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] .

ويكون المعنى : ومن يتق الله فطلق للسنة ، ولم يضارّ المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها ، واحتاط فأشهد ، يجعل الله له مخرجاً مما في شأن الأزواج من الغوم ، والوقوع في المضايق ، ويفرج عنه وينفس ، ويعطه الخلاص ، ويرزقه من وجه لا يخطر بهاله ولا يحتسبه ، إن أوفى المهر وأدى الحقوق والنفقات ، وقلّ ماله . ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله : (ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ) . يعنى : ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ومخلصاً من غوم الدنيا والآخرة . انتهى .

تنبيه :

قال ابن الفرس : قال أكثر المفسرين : معنى الآية في الطلاق أى : من لا يتعدى طلاق السنة إلى طلاق الثلاث يجعل له مخرجاً إن ندم في الرجعة . قال : وهذا يستدل به على تحريم جمع الثلاث ، وأنها إذا جمعت وقعت - نقله في (الإكليل) .

وقال ابن القيم في (الإغاثة) : اعلم أنه من اتقى الله في طلاقه ، فطلق كما أمره الله ورسوله وشرعه له ، أغناه عن الحيل كلها . ولهذا قال تعالى ، بعد أن ذكر حكم الطلاق المشروع : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) . فلو اتقى الله عامة المطلقين لاستغنوا بتقواه عن الآصار والأغلال ، والمكر والاحتيال ، فإن الطلاق الذى شرعه الله سبحانه : أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، ويطلقها واحدة ، ثم يدعها حتى تنقضى عدتها ، فإن بداله أن يمسكها في العدة أمسكها . وإن لم يراجعها حتى انقضت عدتها ، أمكنه أن يستقبل العقد عليها من غير زوج آخر . وإن لم يكن له غرض لم يضره أن تتزوج بزواج غيره ، فمن فعل هذا لم يندم ، ولم يحتج إلى حيلة ولا تحليل . ولهذا سئل ابن عباس عن رجل طلق امرأته مائة فقال : عصيت ربك ، وفارقت امرأتك ، لم تتق الله فيجعل لك مخرجاً .

وقال سعيد بن جبير : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إني طلقت امرأتى ألفاً . فقال : أما ثلاث ، فنحرم عليك امرأتك ، وبقيتهن وزر ، اتخذت آيات الله هزواً .

وقال مجاهد : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال : إنه طلق امرأته ثلاثاً ، فسكت

حتى ظننت أنه رادّها إليه ، ثم قال : ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة ، ثم يقول : يا ابن عباس ! يا ابن عباس ! وإن الله تعالى قال : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجاً ، عصيت ربك ، وبانت منك امرأتك - ذكره أبو داود ^(١) - والبحث طويل الذيل لا يستغنى عن مراجعته .

« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » أى من يتوكل على ما شرعه ، ويفوض أمره إلى ما جعله المخرج ، فهو كافيه ، لأنه لا دواء أنجع منه « إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ » قرئ بالإضافة ، أى يبلغ ما أراد من أمره ، فمن يمتثل ذلك فوض أمره إليه ، وعول عليه . وقرئ (إن الله بالغ أمره) أى تام وكامل أمره وحكمه وشرعه ، لما فيه من الحكم والرحمة . « قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا » أى حدّاً وتقديراً ، حسباً تقتضيه الحكمة . ومنه تقديره ما قدر فى أمر الطلاق ، مما بينه فى شأنه وتوقيته ، ومعرفة المخرج منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَاللَّائِي يَدْسِنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أُرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُولَئِ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

« وَاللَّائِي يَدْسِنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أُرْتَبْتُمْ » أى أشكل عليكم حكمهن ، أو شككنكم فى الدم الذى يظهر منهن لكبرهن ، أمن الحيض أو هو من الاستحاضة ؟ « فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ » أى من الجوارى لصغرهن إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول ، فعدهن ثلاثة أشهر . تخفف لدلالة المذكور عليه « وَأُولَئِ الْأَحْمَالُ »

أخرجه أبو داود فى : ١٣ - كتاب الطلاق ، ١٠ - باب نسخ المراجعة بعد التطليقات

الثلاث ، حديث رقم ٢١٩٧ .

أَجْلُهُنَّ» في انقضاء عِدَّتهن «أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» أى ما في بطنهن . والآية عامة في المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن .

ويروى عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهما أن الآية خاصة في المطلقات . وأما المتوفى عنها فعدها آخر الأجلين .

قال ابن جرير^(١) : والصواب أنه عام في جميع أولات الأحمال ، لأنه تعالى عَمَّ القول بذلك ، ولم يخص الخبر عن مطلقة دون متوفى عنها .

فإن قيل : إن سياق الخبر في أحكام المطلقات . يجب : بأن نظمها خبر مبتدأ عن أحكام عِدَّة جميع أولات الأحمال ، المطلقات وغير المطلقات .

وفي الصحيحين^(٢) عن أم سلمة أن سبيعة الأسلمية وضعت بعد موت زوجها بأربعين ليلة فخطبت ، فأنسكحها رسول الله ﷺ ، وكان أبو السنايل فيمن خطبها .

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ» أى فلم يخالف إذنه في طلاق امرأته «يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا» وهو تسهيل الرجعة مادامت في عِدَّتِها ، والقدرة على خطبتها ، إن انقضت ودعته نفسه إليها بسبب التقوى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَىكُمْ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا)

« ذَلِكَ » أى ما ذكر من حكم الطلاق والرجعة والعدة « أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَىكُمْ »

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٣٩ - باب وَأَوْاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ

أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، حديث رقم ٢٠٦١ .

وأخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث رقم ٥٧ (طبعتنا) .

أَيُّ لَتَاتُمْرُوا لَهُ وَتَعْمَلُوا بِهِ . « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا »
أَيُّ بِالْمُضَاعَفَةِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ أُولَى حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَاتَّمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ، وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسْتَزِيعُ لَهُمْ أُخْرَى)

« أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ » أَيُّ مِنْ سَعَتِكُمْ الَّتِي تَجِدُونَ ، وَطَاقَتِكُمْ وَمَقْدَرَتِكُمْ « وَلَا تُضَارُّوهُنَّ » أَيُّ لَا تَسْتَعْمَلُوا مَعَهُنَّ الضَّرَارَ « لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ » أَيُّ فِي الْمَسْكَنِ بِيَعُضِ الْأَسْبَابِ ، مِنْ إِزَالِ مِنْ لَا يُوَافِقُهُنَّ ، أَوْ بِشْغَلِ مَكَانِهِنَّ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، حَتَّى تَضْطُرَّوهُنَّ إِلَى الْخُرُوجِ أَوْ الْإِفْتِدَاءِ .

تنبيه :

قال في (الإِكِيل) : فِي الْآيَةِ وَجُوبُ السَّكَنِ لِلْمُطَلَّقاتِ كُلِّهِنَّ ، وَلِلْبَوَائِنِ ، لِتَقْدَمَ سَكْنَى الرَّجَعِيَّاتِ ، وَلِقَوْلِهِ بَعْدَهُ (وَإِنْ كُنَّ أُولَى حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ) فَإِنَّهُ خَاصٌّ بِالْبَوَائِنِ . وَفِيهِ أَنَّ الْإِسْكَانَ يَتَّبَعُ بِحَالِ الزَّوْجِ ، وَتَحْرِيمُ الْمَضَارَّةِ بِهَا ، وَإِلْجَافُهَا إِلَى الْخُرُوجِ . « وَإِنْ كُنَّ أُولَى حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ ^(١) أَيُّ وَإِنْ كَانَ نِسَاؤُكُمْ الْمُطَلَّقاتِ أُولَاتِ حَمَلٍ ، وَكُنَّ بَائِنَاتٍ مِنْكُمْ ، فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ فِي عَدَّتِهِنَّ مِنْكُمْ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فمن ابن عباس في الآية قال : هذه المرأة يطلقها زوجها ، فيبت طلاقها وهي حامل ، فيأمره الله أن يسكنها ، وينفق عليها حتى تضع ، وإن أرضعت فحتى تفتطم ، وإن أبان طلاقها ، وليس بها حمل ، فلها السكنى حتى تنقضي عدتها ، ولا نفقة . وكذلك المرأة يموت عنها زوجها فإن كانت حاملاً أنفق عليها من نصيب ذى بطنها إذا كان ميراث ، وإن لم يكن ميراث أنفق عليها الوارث حتى تضع وتفتطم ولدها ، كما قال الله عز وجل ^(١) : (وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ) . فإن لم تكن حاملاً فإن نفقتها كانت من مالها .

ثم قال ابن جرير ^(٢) : وقال آخرون عنى بقوله : (وَإِنْ كُنْ أَوْلَتْ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) كل مطلقة ، ملك زوجها رجعتها أو لم يملك . ومن قال ذلك عمر ابن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما .

فمن إبراهيم قال : كان عمر وعبد الله يجعلان للمطلقة ثلاثاً ، السكنى والنفقة والمتممة . وكان عمر إذا ذكر عنده حديث فاطمة بنت قيس ، أن النبي ﷺ أمرها أن تعتد في غير بيت زوجها . قال : ما كنا لنجيز في ديننا شهادة امرأة .

ثم قال ابن جرير ^(٣) : والصواب من القول في ذلك عندنا أن لا نفقة للمبتوتة إلا أن تكون حاملاً ، لأن الله جل ثناؤه جعل النفقة بقوله : (وَإِنْ كُنْ أَوْلَتْ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ) للحوامل دون غيرهن من البائئات من أزواجهن ، ولو كان البوائت من الحوامل وغير الحوامل في الواجب لهن من النفقة على أزواجهن سواء ، لم يكن لخصوص أولات الأحمال بالذكر في هذا الموضع وجه مفهوم ، إذ هن وغيرهن في ذلك سواء . وفي خصوصهن بالذكر دون غيرهن أدلّ الدليل على أن لا نفقة لبائت ، إلا أن تكون حاملاً . وبالذي قلنا صح الخبر عن رسول الله ﷺ .

قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : حدثتني فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أن أبا عمرو الخزومي طلقها ثلاثاً، فأمر لها بنفقة فاستقلتها . وكان رسول الله ﷺ بعته إلى اليمن . فانطلق خالد بن الوليد في نفر من بني مخزوم إلى رسول الله ﷺ وهو عند ميمونة ، فقال : يا رسول الله ! إن أبا عمرو طلق فاطمة ثلاثاً، فهل لها من نفقة ؟ فقال رسول الله ﷺ : ليس لها نفقة ، فأرسل إليها رسول الله ﷺ أن انتقلي إلى بيت أم شريك ، وأرسل إليها أن لاتسبقيني بنفسك . ثم أرسل إليها أن أم شريك يأتيها المهاجرون الأولون ، فانتقلي إلى ابن مكرم ، فإنك إذا وضعت خمارك لم يرك . فزوجها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد . انتهى .

وقال الناصر في (الاتصاف) : لا يخفى على المتأمل لهذه الآية أن المبتوتة غير الحامل ، لاتفقة لها ، لأن الآية سبقت لبيان الواجب ، فأوجب السكنى لكل معتدة تقدم ذكرها ، ولم يوجب سواها . ثم استثنى الحوامل فخصهن بإيجاب النفقة لهن حتى يضعن حملهن . وليس بعد هذا البيان بيان . والقول بعد ذلك بوجوب النفقة لكل معتدة مبتوتة ، حاملاً أو غير حامل ، لا يخفى منافرته لنظم الآية . والزخشرى نصر مذهب أبي حنيفة فقال : فائدة تخصيص الحوامل بالذكر أن الحمل ربما طال أمده ، فيتموهم متوهم أن النفقة لا تجب بطوله فخصت بالذكر تنبيهاً على قطع هذا الوهم . وغرض الزخشرى بذلك أن يحمل التخصيص على هذه الفائدة كيلا يكون له مفهوم في إسقاط النفقة لغير الحوامل ، لأن أبا حنيفة يسوى بين الجميع في وجوب النفقة . انتهى .

وفي (الإكليل) : في الآية وجوب الإنفاق على البائن الحامل حتى تنقضي عدتها . ومفهومه أن غير الحامل لا نفقة لها . واستدل بمعوم الآية من أوجبه للحامل المتوفى عنها . انتهى .

« فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ » يعني : نساءكم البوائن منكم « فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ » أى : على رضاعهن « وَأَتَمَرُوا بَيْنَكُمْ بِعَمْرُوفٍ » أى ليقبل بعضكم من بعض ما أمر به من معروف ، ، يعني : المجاملة والمساحة في الإرضاع والأجر . والخطاب للأباء والأمهات .

تنبيه :

في (الإكليل) : فيها أن الأم إذا طلبت إرضاعه بأجرة مثل ، وجب على الأب دفعها إليها ، وليس له أن يسترضع غيرها . وفيه دليل على أن الأم أولى بالحضانة .

قال إلكيا : وفيها دلالة على أن الأجرة إنما تستحق بالفراغ من العمل . انتهى .

وفي قوله : (بمعروف) طلب أن لا يماكس الأب ، ولا تعامر الأم ، لأنه ولدها معاً ، وهما شريكان فيه ، وفي وجوب الإشفاق عليه - قال الزمخشري - .

« وَإِنْ تَعَاسَرْتُمُ » أى ضيق بعضكم على الآخر بالمشاحة في الأجرة ، أو طلب الزيادة ونحوه ، « فَسْتَرْضِعْ لَهُ وَآخَرَى » قال ابن جرير ^(١) : أى فلا سبيل له عليها ، وليس له إكراهها على إرضاعه ، ولكنه يستأجر للصبي مرضعة غير أمه الباتنة منه .

وقال الزمخشري : أى فستوجد ، ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه . وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاصرة ، كما تقول لمن تستقصيه حاجة فيمتوانى : سيقضيها غيرك . تريد : لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم . انتهى .

قال الناصر : وخص الأم بالمعاتبة ، لأن المبدل من جهتها هو لبنها لولدها ، وهو غير متمول ولا مضمون به في العرف ، وخصوصاً في الأم على الولد ، ولا كذلك المبدول من جهة الأب ، فإنه المال المضمون به عادة . فالأم ، إذاً ، أجدى باللوم ، وأحق بالعقوب . انتهى .

وفيه أيضاً إشارة إلى معاتبة الأب أيضاً ، كما حققه بعضهم ، وذلك أن الأب لما أسقط عن درجة الخطاب ، وبين أن معاصرتة لا تجدى ، إذ لا بد من مرضعة أخرى بأجر ، وهذه أشفق منها ، كان في حكم المعاتب المذكور في الجواب . وبه يندفع ما يقال : إن المعاصرة فعل الأب والأم ، فكيف يخص الأم بالذكر في الجزاء . واصله أنهما مذكوران فيه ، إلا أن الأم مصرح بها ، والأب مرموز إليه . وتقدير ابن جرير يشير إليه أيضاً .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيه :

في (الإكليل) : تدل على أن الأم لا تجبر على الرضاع حيث وجد غيرها، وقبل الصبي نديها . وإلا أجبرت عليه .

قال ابن العربي : والآية أصل في وجوب نفقة الولد على الأب ، خلافاً لمن أوجبها عليهما معاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ، وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)
« لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ » أي من سعة ماله وغناه على امرأته البائنة في أجر رضاع ولده منها ، وعلى ولده الصغير « وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » أي ضيق عليه « فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ » أي على قدر ماله وطاقته « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا » يعني : وسعها وطاقتها ، فلا يكلف الفقير نفقة الغني ، ولا أحداً إلا فرضه الذي وجب عليه « سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا » أي سيؤتي المقل بعد ضيق فرجاً ، وبعد فقر غنى ، تسلياً للمعسرين من فقراء الأزواج ، وتصبيراً لمطلقاتهن ، وتطبيباً لقلوب الجميع ، وتبشيراً عام .

تنبيه :

في (الإكليل) : فيه أن النفقة يراعى فيها حال المنفق يساراً وإعساراً ، وإن نفقة المعسر أقل من نفقة الموسر ، لاحتلال المنفق عليه . واستدل بقوله (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا) من قال : لافسخ بالعجز عن الإتفاق على الزوجة . وفي الآية استحباب مراعاة الإنسان نفسه في النفقة والصدقة . ففي الحديث : إن المؤمن أخذ عن الله أدباً حسناً : إذا هو وسع عليه وسع ، وإذا هو قتر عليه قتر .

روى ابن جرير^(١) أن عمر بن الخطاب سأل عن أبي عبيدة فقيل له : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أحسن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ماذا يصنع إذا هو أخذها ، فإلبس أن ليس ألين الثياب ، وأكل أطيّب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال رحمه الله : تَأْوِلُ هَذِهِ الْآيَةَ (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ) .

ثم حذر تعالى من عصيانه وتمدى حدوده فيما شرعه ، عناية بما مرّ من الأحكام ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا)

[٩] (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)

« وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا » أى أعرضت عنه على وجه العتوّ والعناد ، « وَرُسُلِهِ » أى وعن أمر رسله كذلك « فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا » أى على ما قدمت ، فلم تغادر لها منه شيئاً « وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا » أى منكراً « فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا » أى عاقبة ما اكتسبت وجزاءه « وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا » قال ابن جرير^(٢) : أى غبناء لأنهم باعوا نعيم الآخرة بخسيس من الدنيا قليل ، وآثروا اتباع أهوائهم على اتباع أمر الله .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ،
قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا)

« أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا » يعنى عذاب النار المعدّ فى القيامة « فَاتَّقُوا اللَّهَ »
أى خافوه واحذروا بطشه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه « يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ » أى العقول
« الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى صدقوا الله ورسله . نعت للمنادى ، أو عطف بيان له « قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ
إِلَيْكُمْ ذِكْرًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا)
« رَسُولًا » يعنى محمدًا ﷺ ، وجعله نفس الذكر مبالغة ، لذلك أبدل منه « يَقُولُوا عَلَيْكُمْ
ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ » أى لمن سمعها وتدبرها أنها حق من عند الله « لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » أى من الضلال إلى الهدى « وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ
وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ
لَهُ رِزْقًا » أى طيبه ، وفيه تعجيب له وتعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ
لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » أى : العبود المستحق للعبادة ، مَنْ هذا خلقه . لا ما يشرك معه . وههنا .

لطائف

الأولى - قال الزخشرى : قيل ما فى القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه . انتهى .

قال بعض علماء الفلك : أما كون الأرضين سبعاً كالسموات ، فهو أمر نجمله ولا نفهمه إلا إذا أُريد به أن للأرض سبع طبقات . قال : والحق يقال أن كون الأرضين سبعاً ، هو كما يظهر لنا وهم من أوهام القدماء ، ولذلك لم يرد فى القرآن الشريف لفظ الأرض مجموعاً - أى أرضين - ولم يرد فيه مطلقاً أن الأرضين سبع ، مع أنه ذكر أن السموات سبع ، مراراً عديدة وفى كل مرة يذكر معها الأرض بالأفراد . نعم ! ورد فيه قوله تعالى :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) وهى الآية الوحيدة التى فهموا منها أن الأرضين سبع . وهى كما لا يخفى لا تفيد ذلك مطلقاً .
قال : ولنا فى تفسيرها وجهان :

إما أن تكون (من) فى قوله تعالى (وَمِنَ الْأَرْضِ) زائدة ، وإما أن تكون غير زائدة .

أما على الوجه الأول : فتقدير الآية هكذا : الله الذى خلق سبع سموات والأرض خلقها مثلهن . وعلى تفسيرنا هذا تكون هذه الآية دالة على أن الأرض خلقت كباقي الكواكب السيارة من كل وجه . أى : أنها إحدى السيارات ، وهو أمر ما كان معروفاً فى زمن النبي ﷺ ، وما كان يخطر ببال أحد من العرب ، وذلك من دلائل صدق القرآن . والأرض مثل السيارات الأخرى فى المسادة ، وكيفية خلقها ، وكونها تسير حول الشمس ، وتستمد النور والحرارة منها ، وكونها مسكونة بحيوانات كالسواكب الأخرى ، وكونها كروية الشكل . فالسيارات أو السماوات هى متماثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة ،

وهي مادة الشمس ، وعلى طريقة واحدة . قال الله تعالى^(١) (أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) أى شيئاً واحداً (فَفَتَقْنَاهُمَا) أى فصلنا بعضهما عن بعض ، فالأرض خلقها الله تعالى مثل السموات تماماً .

وأما على الوجه الثانى : وهو أن (مِنْ) غير زائدة ، فتقدير الآية هكذا : الله الذى خلق سبع سموات وخلق من الأرض أرضاً مثلهن ، فالآية واردة على طريقة التجريد ، كقولك : اتخذت لى سبعة أصدقاء ، ولى من فلان صديق مثلهم . أى مثلهم فى الصداقة . أو التقدير : وبعض الأرض مثلهن فى مادتها وعناصرها . وعليه ، فليس فى القرآن الشريف أدنى دليل على أن الأرضين سبع كما يزعمون . انتهى .

الثانية - ذكر ابن الأثير فى (المثل السائر) فى النوع السادس ، فى اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها وتفاوتها فى الحسن فيه ، ما مثاله :

وفى صدد ذلك ما ورد استعماله من الألفاظ مفرداً ، ولم يرد مجموعاً ، كلفظة الأرض ، فإنها لم ترد فى القرآن إلا مفردة . فإذا ذكرت السماء مجموعة . جىء بها مفردة معها فى كل موضع من القرآن . ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل (وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) فى قوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) . انتهى .

الثالثة - قرئ (مِثْلَهُنَّ) بالنصب ، عطفاً على (سبع) وبالرفع على الابتداء ، وخبره (من الأرض) .

« يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ » أى يجرى أمر الله وحكمه بينهن ، وملكه ينفذ فيهن . وقوله : « لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا » علة لـ (خلق) أو لـ (يتنزل) أو لمضممر يعمهما ، كفعل ما فعل لتعلموا . . . الخ ، فإن كلا منهما يدل على كمال قدرته وعلمه .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٠] .

قال ابن جرير^(١) : أى تخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم ، عقوبته . فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع . وهو على ذلك قادر ومحيط أيضاً بأعمالكم ، فلا يخفى عليه منها خافٍ ، وهو محصيا عليكم ليجازيكم بها ، يوم تجزى كل نفس ما كسبت .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٦ - سُورَةُ التَّحْرِيمِ

مدنية ، وآيها اثنتا عشرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

[١] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ، تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . قال المهايي : ناداه ليُقْبِل إليه بالسكينة ، ويُدِير عن كل ما سواه من الأزواج وغيرهن . وعبر عنه بالمبهم إشعاراً منه بأنه من غاية عظمته ، بحيث لا يعلم كنهه . وأتى بلفظ (النَّبِيُّ) إشعاراً بأنه الذي نبيء بأسرار التحليل والتحريم الإلهي . والمراد بتحريمه ما أحلَّ له ، امتناعه منه ، وحظره إِيَّاه على نفسه . وهذا المقدار مباح ، ليس في ارتكابه جناح . وإنما قيل له (لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) رفقا به ، وشفقة عليه ، وتفويهاً لقدره ولنصبه ﷺ ، أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه ، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى بنبِيِّه ، ورفعاً عن أن يخرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه ، ومن أجله خَلَقُوا ، ليظهر الله كمال نبوته ، بظهور نقصانهم عنه - كما أفاده الناصر - .

تنبيهات :

الأول : للأثرين في هذا الذي حرّمه ، صلوات الله عليه ، على نفسه ، روايات .

فروى البخاري ومسلم^(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦٦ - سورة التحريم ، ١ - باب

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ، حديث رقم ٢٠٦٣

وأخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث رقم ٢٠ (طبعنا) .

فلتقل له : إني أجد منك ريح مغافير، أ كُت مغافير؟ فدخل على إحداها فقالت ذلك له فقال: بل شربت عسلاً عند زينب ابنة جحش ، فلن أعود له، وقد حلفت ! لا تخبري بذلك أحداً ، فنزلت الآية .

وروى الشيخان^(١) أيضاً عن عائشة أن النبي ﷺ كان يحب الحلواء والعسل ، وكان إذا صلى العصر دار على نسائه، فيدنو من كل واحدة منهن . فدخل على حفصة بنت عمر ، فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس . فسألت عن ذلك ، فقيل لى : أهدت إليها امرأة من قومها عكة عسل ، فسقت رسول الله ﷺ منه شربة ، فقلت : والله لنحتالن له ! فذكرت ذلك لسودة ، وقلت لها : إذا دخل عليك ، ودنا منك ، فقولى له : يارسول الله ! أ كُت مغافير؟ فإنه سيقول لك : لا ! فقولى له : وما هذه الريح ؟ وكان ﷺ يكره أن يوجد منه ريح الكريه ! فإنه سيقول لك : سقتنى حفصة شربة عسل ، فقولى له : أ كُت نحل العرفط ، حتى صار فيه - أى فى العسل - ذلك الريح الكريه . وإذا دخل على فسأقول له ذلك . وقولى أنت يا صفية ذلك . فلما دخل على سودة قالت له مثل ما علمتها عائشة ، وأجابه بما تقدم . فلما دخل على صفية ، قالت له مثل ذلك . فلما دخل على عائشة قالت له مثل ذلك . فلما كان اليوم الآخر ودخل على حفصة قالت له : يارسول الله ! ألا أسقيك منه ؟ قال . لا حاجة لى به ! قالت : إن سودة تقول : سبحان الله ، لقد حرمناه منه ، فقلت لها : اسكتى ! و (المغافير) صمغ حلوه له رائحة كريهة ينفضحه شجر يقال له (العرفط) بضم العين المهملة والفاء .

وفى هذه الرواية أن التى شرب عندها العسل حفصة ، وفى سابقها أنها زينب . والاشتباه فى الاسم لا يضر ، بعد ثبوت أصل القصة .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٨ - كتاب الطلاق ، ٨ - باب لم تحرم ما أحل الله لك ،

حديث رقم ٢٠٦٣ .

وأخرجه مسلم فى : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث رقم ٢١ (طبعتنا) .

وروى ابن جرير^(١) عن ابن عباس قال : كانت حفصة وعائشة متجابتين ، وكانتا زوجتي النبي ﷺ ، فذهبت حفصة إلى أبيها ، فتحدثت عنده ، فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته ، فظلت معه في بيت حفصة ، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة ، فرجعت حفصة ، فوجدتها في بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها ، وغارت غيرة شديدة ، فأخرج رسول الله ﷺ جاريته ، ودخلت حفصة ، فقالت : قد رأيت من كان عندك ، والله لقد سؤتني ! فقال النبي ﷺ : والله لأرضينك ، فإنني مسرّ إليك سرّاً فاحفظيه ! قالت : ما هو ؟ قال : إني أشهدك أن سريتي هذه على حرام ، رضا لك . وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النبي ﷺ . فانطلقت حفصة إلى عائشة ، فأسرت إليها أن أبشري ، إن النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم قد حرم عليه فتاته . فلما أخبرت بسر النبي ﷺ ، أظهر الله عز وجل النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم عليه ، فأنزل الله على رسوله لما تظاهرتا عليه : (يَسَاءُ أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ . . .) الآيات . وروى أيضاً^(٢) عن الضحاك قال : كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتاة يغشاها ، فبصرت به حفصة ، وكان اليوم يوم عائشة ، وكانتا متظاهرتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتمى عليّ ، ولا تذكرى لعائشة ما رأيت ، فذكرت حفصة لعائشة ، فغضبت عائشة ، فلم تزل بنبي الله صلى الله عليه وسلم حتى حلف أن لا يقربها أبداً ، فأنزل الله هذه الآية ، وأمره أن يكفر يمينه ويأتي جاريته .

وروى النسائي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به حفصة وعائشة حتى حرما ، فأنزل الله هذه الآية .

ولم يرجع ابن جرير أحد السببين المرويين في نزولها على الآخر ، بل وقف على إجمال الآية ، على عادته في أمثالها ، ولذا قال : الصواب أن يقال : كان الذي حرمه النبي صلى الله عليه وسلم

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

على نفسه شيئاً كان الله قد أحله له . وجائز أن يكون ذلك كان جاريته ، وجائز أن يكون شراباً من الأشرطة ، وجائز أن يكون غير ذلك . غير أنه ، أى ذلك كان ، فإنه كان تحريم شئ كان له حلالاً ، فعاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحله ، وبين له تحلة يمينه . انتهى .
والذى يظهر لى ، هو ترجيح روايات تحريم الجارية فى سبب نزولها ، وذلك لوجوه :

منها - أن مثله يبتغى به مرضاة الضرات ، ويهتَم به لهنّ .
ومنها - أن روايات شرب العسل لا تدل على أنه حرمه ابتغاء مرضاتهن ، بل فيه أنه حلف لا يشربه أنفة من ريحه ، ثم رغب إلى عائشة أن لا تحدث صاحبته به شفقة عليها . إلا أن يكنّ عاتبته فى ذلك ، ولم يحتمل لطف مزاجه الكريم ذلك ، فخرمه . ولكن ليس فى الرواية ما يشعر به . وما زاد على ذلك فمن اجتهاد الرواة .

ومنها - أن الاهتمام بإنزال سورة على حدة ، لتقريع أزواجه صلى الله عليه وسلم وتأديبهن فى المظاهرة عليه ، وإبعادهن على الإصرار على ذلك ، بالاستبدال بهن ، وإعلامهن برفعة مقامه ، وأن ظهرأه مولاة وجبريل والملائكة والمؤمنون ، كل ذلك يدل على أن أمراً عظيماً دفعهن إلى تحريمه ما حرم وما هو إلا الغيرة من مثل ما روى فى شأن الجارية ، فإن الأزواج يحرضن أشد الحرص على ما يقطع وصلة الضرّة الضعيفة ويبتريها من عضو الزوجية . هذا ما ظهر لى الآن .

وأما تخريج رواية العسل فى هذه الآية ، وقول بعض السلف نزلت فيه ، فالمراد منه أن الآية تشمل قصته بعمومها ، على ما عرف من عادة السلف فى قولهم : نزلت فى كذا ، كأنهنها عليه مراراً . وكأنه عليه السلام كان حرم ذلك الشراب ، ثم أخبر الرواة بأن مثله فرضت فيه التحلة ، فلا ما نعى من العود إلى شربه - والله أعلم - .

الثانى - فى (الإكليل) : استدلل بها على أن من حرم على نفسه أمة أو طعاماً أو زوجة ، لم تحرم عليه ، وتلزمه كفارة يمين .

وروى البخاري^(١) عن ابن عباس قال : في الحرام يكفر . لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة .

وذهب ابن جرير^(٢) إلى أنه كان مع التحريم يمين ، ورد كون التحريم بمجرد يميناً ، وفيه نظر ، لأن اليمين في عرفهم أعم من القسم بالله ، كما ذهب إليه ابن عباس والحسن وقتادة وابن جبير وغيرهم .

قال قتادة : إن النبي صلى الله عليه وسلم حرّمها ، يعني جاريته ، فكانت يميناً - رواه ابن جرير - وسيأتي ما يؤيده . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ، وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ » أي : شرع تحليلها - وهو حل ماعقده - بالكفارة . والتحلة ، مصدر بمعنى التحليل . « وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ » أي : متولى أموركم « وَهُوَ الْعَلِيمُ » أي بمصالحكم « الْحَكِيمُ » أي : في تدبيره إياكم بما شرعه وحكم به .

تنبيهات

الأول : قال ابن قدامة في (الروضة) . دلت الآية على أن حكم خطابه صلى الله عليه وسلم لا يختص به ، لأنه لما عاتبه في تحريم ما أحل له قال عقيبها : (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦٦ - سورة التحريم ، ١ - باب يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، حديث ٢٠٧٢ .

وأخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث رقم ١٨ (طبعنا) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أَيْمَنِكُمْ) وابتدأ الخطاب بمناداته وحده ، ثم تَمَمَهُ بلفظ الجمع بقوله : (يَسَاءُ أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ) . والمسألة طويلة الذيل في الأصول .

الثاني - قال تقي الدين ابن تيمية : التحلة مصدر حلت الشيء تحليلاً وتحلة ، كما يقال : كرمته تكريماً وتكرمة ، وهذا المصدر يسمى به المحلل نفسه ، الذي هو الكفارة . فإن أريد المصدر ، فالمعنى : فرض الله لكم تحليل اليمين ، وهو حلها الذي هو خلاف العقد .

ولهذا استدلل من استدلل من أصحابنا وغيرهم كأبي بكر عبدالعزيز ، بهذه الآية على التكفير قبل الحنث ، لأن التحلة لا تكون بعد الحنث ، فإنه بالحنث ينحل اليمين ، وإنما تكون التحلة إذا أخرجت قبل الحنث لينحل اليمين ، وإنما هي بعد الحنث كفارة ، لأنها كفرت ما في الحنث من سبب الإثم لنقض عهد الله . فإذا تبين أن ما اقتضت اليمين من وجوب الوفاء بها ، رفعه الله عن هذه الأمة بالكفارة التي جعلها بدلاً من الوفاء في جملة ما رفعه عنها من الآثار .

الثالث - شمل قوله تعالى (أَيْمَنِكُمْ) تحريم الحلال المذكور قبل ، وهو الزوجة ، لدخوله فيه دخولاً أولياً ، بل كل يمين .

قال تقي الدين ابن تيمية في فتاويه : قوله تعالى (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَنِكُمْ) نصٌ عام في كل يمين يحلف بها المسلمون ، أن الله قد فرض لها تحلة . وذكره سبحانه بصيغة الخطاب للأمة ، بعد تقدم الخطاب بصيغة الأفراد للنبي ﷺ ، مع علمه سبحانه بأن الأمة يحلفون بأيمان شتى : فلو فرض يمين واحدة ليس لها تحلة ، لكان مخالفاً للآية . كيف وهذا عام لم يخص فيه صورة واحدة ، لا بنص ولا بإجماع ، بل هو عام عموماً ومعنوياً ، مع عموم اللفظي ؟ فإن اليمين معقود يوجب منع المكلف من الفعل . فشرع التحلة لهذه العقدة مناسب لما فيه من التخفيف والتوسعة ، وهذا موجود في اليمين بالعتق والطلاق ، أكثر منه في غيرها من أيمان نذر اللجاج والغضب : فإن الرجل إذا حلف بالطلاق ليقطن النفس ، أو ليقطن رحمه ، أو ليمنع الواجب عليه من أداء أمانة ونحوها ، فإنه يجعل الطلاق عرضة ليمينه ،

أن يبرّ ويصلح بين الناس ، أكثر مما يجعل الله عرصة . ثم إن وفي يمينه ، كان عليه من ضرر الدنيا والدين ما قد أجمع المسلمون على تحريم الدخول فيه . وإن طلق امرأته ، ففي الطلاق أيضاً من ضرر الدين والدنيا ما لا خفاء به . وأيضاً فإنه تعالى قال : (لِمَ تَحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وذلك يقتضى أنه ما من تحريم لما أحل الله ، إلا والله غفور لفاعله ، رحيم به ، وأنه لا علة تقتضى ثبوت ذلك التحريم ، لأن قوله لأى شيء استفهام فى معنى النفي والإنكار . والتقدير : لا سبب لتحريمك ما أحل الله لك ، والله غفور رحيم . فلو كان الخائف بالنذر والعقاق والطلاق على أنه لا يفعل شيئاً لا رخصة له ، لسكان هنا سبب يقتضى تحريم الحلال ، ولا يبقى موجب المغفرة والرحمة على هذا الفاعل .

ومما يوضح عمومهم أنهم قد أدخلوا الحلف بالطلاق فى عموم حديث^(١) : من حلف فقال إن شاء الله ، فإن شاء فعل ، وإن شاء ترك . فأدخلوا فيه الحلف بالطلاق والعقاق والنذر والحلف بالله . وهذه الدلالة تنبيه على أصول الشافعى وأحمد ومن وافقهما فى مسألة نذر اللجاج والغضب . فإنهم احتجوا على التكفير بهذه الآية ، وجعلوا قوله (تَحِلَّةٌ أَيْمَانِكُمْ) كفارة أيمانكم عامّاً فى اليمين بالله واليمين بالنذر . ومعلوم أن شمول اللفظ لنذر اللجاج والغضب فى الحج والعقق ونحوهما ، سواء .

فإلى قيل : المراد بالآية اليمين بالله فقط ، فإن هذا هو المفهوم من مطلق اليمين ، ويجوز أن يكون التعريف بالألف واللام والإضافة فى قوله^(٢) (عَقَدْتُمْ الْأَيْمَانَ) و (تَحِلَّةٌ أَيْمَانِكُمْ) منصرفاً إلى اليمين المهودة عليهم ، وهى اليمين بالله ، وحينئذ فلا يعلم من اللفظ

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢١ - كتاب الأيمان والنذور ، ٩ - باب الاستثناء فى اليمين ،

حديث رقم ٣٢٦٢ ، عن ابن عمر .

(٢) [٥ / المائة / ٨٩] .

إلا المعروف عندهم ، والحلف بالطلاق ونحوه لم يكن معروفاً عندهم ، ولو كان اللفظ عامّاً ، فقد علمنا أنه لم يدخل فيه اليمين التي ليست مشروعة ، كاليمين بال مخلوقات ، فلا يدخل الحلف بالطلاق ونحوه ، لأنه ليس من اليمين المشروعة ، لقوله ^(١) : مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ وَإِلَّا فَلْيَصْمُتْ . وهذا سؤال من يقول : كل يمين غير مشروعة ، فلا كفارة لها ولا حنث .

فيقال : لفظ اليمين شمل هذا كله ، بدليل استعمال النبي ﷺ والصحابة والعلماء اسم اليمين في هذا كله ، كقوله ﷺ : النذر حلف . وقول الصحابة لمن حلف بالهدى بالعتق : كفر يمينك . وكذلك فهمه الصحابة من كلام النبي ﷺ . ولإدخال العلماء ذلك في قوله ﷺ : من حلف فقال إن شاء الله ، فإن شاء فعل ، وإن شاء ترك . ويدل على عمومته في الآية أنه سبحانه قال : (لَمْ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) ثم قال : (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ) فافتضى هذا أن نفس تحريم الحلال يمين ، كما استدل به ابن عباس .

وسبب نزول الآية إما تحريمه العسل ، وإما تحريمه مارية القبطية . وعلى التقديرين فتحريم الحلال يمين على ظاهر الآية ، وليس يميناً بالله . ولهذا أفتى جمهور الصحابة ، كعمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وغيرهم ؛ أن تحريم الحلال يمين مكفرة ، إما كفارة كبرى كالظهار ، وإما كفارة صغرى كاليمين بالله . وما زال السلف يسمون الظهار ونحوه يميناً . وأيضاً فإن قوله (لَمْ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) إما أن يراد به لم تحرم بلفظ الحرام ، وإما لم تحرمه باليمين بالله تعالى ونحوها ، وإما لم تحرمه مطلقاً . فإن أريد الأول والثالث ، فقد ثبت تحريمه بغير الحلف بالله تعالى ، ثم فيعم . وإن أريد به تحريمه بالحلف بالله ، فقد سمي الله الحلف بالله تحريماً للحلال . ومعلوم أن اليمين بالله لم يوجب الحرمة الشرعية . لكن لما أوجبت

(١) أخرجه البخاري في ٧٨ - كتاب الأدب ، ٧٤ - باب من لم ير ! كفار من قال

ذلك متأولاً ، حديث رقم ١٢٩٨ ، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه أبو داود في ٢١ - كتاب الأيمان والنذور . ٩ - باب الاستثناء في اليمين ،

حديث رقم ٣٢٦٢ ، عن ابن عمر .

امتناع الخالف من الفعل ، فقد حرمت عليه الفعل تحريمًا شرطيًا ، لاشرعياً . فكلُّ يوجب امتناعه من الفعل ، فقد حرمت عليه الفعل فيدخل في قوة قوله : « لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » وحينئذ فقوله : (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ) لابد أن يعم كل يمين حرمت الحلال ، لأن هذا حكم ذلك الفعل ، فلا بد أن يطابق صورته ، لأن تحريم الحلال هو سبب قوله : (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ) وسبب الجواب إذا كان عامًا كان الجواب عامًا ، لئلا يكون جواباً عن البعض دون البعض ، مع قيام السبب المقتضى للتعميم . وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) الذين أوجبوا كفارة اليمين بالتحريم أسعد بالنص من الذين أسقطوها . فإن الله سبحانه ذكر تحلة الأيمان عقيب قوله : (لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) . وهذا صريح في أن تحريم الحلال قد فرض فيه تحلة الأيمان ، إما مختصاً به ، وإما شاملاً له ولغيره ، فلا يجوز أن يخلى سبب الكفارة المذكورة في السياق عن حكم الكفارة ، ويتعلق بغيره ، وهذا ظاهر الامتناع .

وأيضاً فإن المنع من فعله بالتحريم ، كالمنع منه باليمين ، بل أقوى . فإن اليمين ، إن تضمن هتك حرمة اسمه سبحانه ، فالتحريم تضمن هتك حرمة شرعه وأمره ، فإنه إذا شرع حلالاً فخرمه المكلف ، كان تحريمه هتكاً لحرمة ماشرعه .

ونحن نقول : لم يتضمن الحنث في اليمين هتك حرمة الاسم ، ولا التحريم هتك حرمة الشرع ، كما يقوله من يقوله من الفقهاء ، وهو تعليل فاسد جداً ، فإن الحنث إما جائز ، وإما واجب ، أو مستحب . وما جوز الله لأحد البتة أن يهتك حرمة اسمه ، وقد شرع لعباده الحنث مع الكفارة .

وأخبر النبي ﷺ ^(١) أنه إذا حلف على يمين ، ورأى غيرها خيراً منها كفر عن يمينه ، وأتى

(١) أخرجه البخاري في : ٨٣ - كتاب الأيمان والنذور ، ١٨ - باب اليمين فيما لا يملك وفي المعصية وفي الغضب ، حديث ١٤٧٦ ، عن أبي موسى الأشعري . ونصه : أتيت =

المخلف عليه . ومعلوم أن هتك حرمة اسمه تبارك وتعالى ، لم يبح في شريعة قط ، وإنما الكفارة كما سماها الله تعالى ، تحلة . وهي تفعله من (الحل) ، فهي تحل ما عقد به اليمين ليس إلا . وهذا العقد ، كما يكون باليمين ، يكون بالتحريم . وظهر من قوله تعالى : (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ) ، عقيب قوله : (لِمَ تَحَرَّمُ مَا أَحَلَ اللَّهُ لَكَ) .

وقال رحمه الله فيه ، قبلُ : أما من قال إنه يمين مكفرة بكل حال ، فأخذ قوله أن تحريم الحلال من الطعام والشراب واللباس يمين يكفر بالنص والمعنى وآثار الصحابة ، فإن الله سبحانه قال : (يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ...) الآية . ولا بد أن يكون تحريم الحلال داخلاً تحت هذا الفرض ، لأنه سببه ، وتخصيص محل السبب من جملة العام ، ممتنع قطعاً ، إذ هو المقصود بالبيان أولاً ، فلو خص بخلا سبب الحكم عن البيان ، وهو ممتنع . وهذا استدلال في غاية القوة . فسألت عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى فقال : نعم ! التحريم يمين كبرى في الزوجة ، كفارتها كفارة الظهار ، ويمين صغرى فيما عداها ، كفارتها كفارة اليمين بالله . قال وهذا معنى قول ابن عباس وغيره من الصحابة ومن بعدهم : إن التحريم يمين يكفر .

وقال رحمه الله في (أعلام الموقعين) : لا يجوز أن يفرق بين المسلم وبين امرأته بغير لفظ لم يوضع للطلاق ولا نواه ، وتلزمه كفارة يمين حرمة لشدة اليمين ، إذ ليست كالحلف بالمخلف أنتى لا تنعقد ، ولا هي من لغو اليمين ، وهي يمين منعقدة ، ففيها كفارة يمين .

ثم قال في المذهب الثالث عشر : إنه يمين يكفره ما كفر اليمين على كل حال . صح ذلك أيضاً عن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وزيد بن ثابت وابن مسعود وعبد الله بن عمر وعكرمة وعطاء ومكحول وقتادة والحسن والشعبي وسعيد ابن المسيب وسليمان بن يسار وجابر بن زيد وسعيد بن جبير ونافع والأوزاعي وأبي ثور ، وخلق

= رسول الله ﷺ في نفر من الأشعرين ، فوافقته وهو غضبان . فاستحملناه . خلف أن لا يحملنا . ثم قال : والله ! إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذي هو خير ، وتحملتها .

سواهم رضى الله عنهم . وحجة هذا القول ظاهر القرآن ، فإن الله تعالى ذكر فرض تحلة الأيمان عقب تحريم الحلال ، فلا بد أن يتناوله يقيناً ، فلا يجوز جعل تحلة الأيمان لغير المذكور قبلها ، ويخرج المذكور عن حكم التحلة التى قصد ذكرها لأجله .

وقال فى (زاد المعاد) : لا فرق بين التحريم (فى غير الزوجة) بين الأمة وغيرها عند الجمهور ، إلا الشافعى وحده ، فإنه أوجب فى تحريم الأمة خاصة ، كفارة اليمين ، إذ التحريم له تأثير فى الأبضاع عنده ، دون غيرها : وأيضاً فإن سبب نزول الآية تحريم الجارية ، فلا يخرج محل السبب عن الحكم ، ويتعلق بغيره . ومنازعوه يقولون : النص علق فرض تحلة اليمين بتحريم الحلال ، وهو أعم من تحريم الأمة وغيرها ، فتجب الكفار حيث وجد سبها . وقد تقدم تحريره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنَ أَنْبَأَكَ هَذَا ، قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)

« وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ » يعنى محمداً ﷺ « إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ » هى حفصة فى قول الرواة : ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن والشعبى والضحاك - كما نقله ابن جرير - « حَدِيثًا » وهو تحريم فئاته فى قولهم . قال ابن جرير (١) : أو ما حرم على نفسه مما كان الله جل ثناؤه قد أحله له ، وقوله : لا تذكرى ذلك لأحد .

« فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ » أى أخبرت بالسر ، صاحبتهما كما تقدم ، « وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ » أى أطلعه على تحديثها به ، « عَرَّفَ بَعْضُهُ » أى عرفها بعض ما أفضته مُمَاتِيًا « وَأَعْرَضَ »

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

عَنْ بَعْضِ « أَيْ بَعْضُ الْحَدِيثِ تَسْكُرُ مَا ، « فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ » أَيْ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

تنبيه :

في (الإكليل) : في الآية أنه لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى من يركن إليه من زوجة أو صديق ، وأنه يلزمه كتمانها . وفيها حُسْنُ المعاشرة مع الزوجات ، والتلطُّف في العتب ، والإعراض عن استقصاء الذَّنْبِ .

وحكي الزمخشري عن سفيان قال : ما زال التغافل من فعل الكرام . ثم أشار تعالى إلى غضبه لنبيه ، صلوات الله عليه ، مما أتت به من إفشاء السرِّ إلى صاحبتهما ، ومن مظاهرتهم على ما يقلق راحته ، وأن ذلك ذنب تجب التوبة منه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ

هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

« إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا » أى إلى الحق . وهو ماوجب من مجانبة

ما يسخط رسوله . وقد صح^(١) عن ابن عباس أنه سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عن المتظاهرين على رسول الله ﷺ فقال : عائشة وحفصة .

وفي خطابهما ، على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، مبالغة ، فإن المبالغ في العتاب يصير المعاتب مطروداً بعيداً عن ساحة الحضور . ثم إذا اشتد غضبه توجه إليه وعاتبه بما يريد . « وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ » أى تظاهرا وتفقدا على مايسوءه ، « فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ »

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦٦ - سورة التحريم ، ٢ - باب

تَبَتَّنِي مَرَّضَاتُ أَزْوَاجِكَ ، حديث رقم ٧٦ ، وهو حديث طويل ممتع كل الإمتاع .

وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ « أى متظاهرون على من أراد مساءته ، فإذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه ؟ ولما كانت الملائكة أعظم المخلوقات وأكثرهم ، ختم الظهراء بهم ليكون أنخم في التنويه بالنبي صلوات الله عليه ، وعظم مكانته ، والانتصار له ، إذ هي هنا بمثابة جيش جرار ، يعلأ القفار ، يتأثر أميره وقائده ، ليحمل على عدوه ومناوئه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (عَسَىٰ رَبُّهُوَ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مَسْلَمَاتٍ

مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَعْتَبُ عِبْدَاتٍ سَامِيَّاتٍ تَعْتَبُ وَأَبْكَارًا)

« عَسَىٰ رَبُّهُوَ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مَسْلَمَاتٍ » أى خاضعات لله بالطاعة « مُؤْمِنَاتٍ » أى مصدقات بالله ورسوله « قَانِتَاتٍ » أى مطيعات لما يؤمرن به « تَعْتَبُ » أى من الذنوب لا يصرن عليها « عِبْدَاتٍ » أى متعبدات لله ، كأن العبادة امتزجت بقلوبهن ، حتى صارت ملكة لهن « سَامِيَّاتٍ » قيل : معناه صائمات - وسننبه على ما فيه - « تَعْتَبُ وَأَبْكَارًا » .

اعلم أن فى توصيف البدلات بهذه الصفات ، تعريضاً بوجوب اتصاف الأزواج بها ، لا سيما أزواج النبي ﷺ .

تنبيه :

ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد من (سَامِيَّاتٍ) صائمات أو مهاجرات . وقد قدمنا فى سورة التوبة فى تفسير (السَّائِحُونَ) أن الحق فيه هو المعنى الحقيقى ، لعدم ما يمنع منه ، ولا يصار إلى المجاز إلا لما نفع . ولذا قال بعض المحققين : إنه يستفاد من هذه الآية مشروعية السياحة للنساء ، كما هى كذلك للرجال ، فعنى قوله تعالى (سَامِيَّاتٍ) مسافرات ، سواء كان السفر لهجرة أو اعتبار أو اطلاع على آثار الأمم البائدة . وقد خصصت السنة عموم سفرهن بكونه مع زوج أو محرم لهن ، حفظاً لهن .

• ثم قال: كأن الذي دعا البعض لتفسير (الساحات) بالصائمات، أو بخصوص المهاجرات، تصوره أن السياحة في البلاد لا تناسب طبيعة النساء الأمور بالحيجاب ، وكأنه يفهم من الحجاب أنه الحبس المؤبد ، أو كأن الهواء نعمة مخصوصة بغير النساء ، أو كأنهن لم يخلقن إلا لسجون البيوت التي ربما تكون أنكى من أعرق سجون الجناة، أو كأنهن لم يخلق لهن من هذه الدنيا الرحبة سوى بيت واحد؟! وأما قوله تعالى^(١): (خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) فكأنه مخصوص بالرجل ، أو كأن الآيات الآمرة بالسير للنظر والعبرة والإحاطة والخبرة ، نازلة من السماء ليس للأمة جميعاً ، بل للنصف منها، وهو الرجال. وحاشا أن يكون ذلك ! أين هديه ﷺ في سفره مع أزواجه ؟ فقد كان يقرع بينهن ، فأيتهن خرجت قرعتها خرج بها ، وسافرت معه . وقد صار ذلك شريعة معمولاً بها في الدين . وهكذا صح^(٢) أنه ﷺ لما قدم بصفية أردفها خلفه وهو مع الركب .

وبالجملة فالسياحة في القرآن الكريم ليست ترمى إلى غاية واحدة ، بل إلى عدة غايات وفوائد .

أولاً - إدراك المعقولات ، والإحاطة بمغزات السموات ، كما تتعلمه من آية^(٣): (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

ثانياً - الوقوف على أحوال الأمم البائدة ، ومأله من جليل الآثار الداعية للاعتبار ، كما تتعلمه من قول الكتاب الحكيم^(٤): (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارُوا فِي الْأَرْضِ فَاخَذَهُمُ اللَّهُ

(١) [٢ / البقرة / ٢٩] . (٢) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ،

١٠٤ - باب قول الرجل جعلني الله فداك ، حديث رقم ٢٤٦ ، عن أنس بن مالك .

(٣) [٢٢ / الحج / ٤٦] . (٤) [٤٠ / غافر / ٢١] .

بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) وقوله (١) (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا
أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

ثالثاً - البحث والتنقيب في أنحاء المسكونة بالنظر في الكون، وفي الفنون، للوصول إلى
معرفة مبدع هذا العالم تعالى، كما يبحثنا الكتاب الكريم على تسنم هذا المرتقى العالى بقوله (٢)
(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ).

رابعاً - الحصول على ربح التجارة كما نتعلم ذلك من قول الكتاب الكريم (٣) (وَأَخْرَجُوا
يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ).

فهل ترى هذه الفوائد ذات البال مختصة بالرجل دون الأنثى، حتى يكون السير خاصاً
بالرجل؟ كلا! وقد امتن الله على أهل سبأ بما حكاه بقوله (٤): (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى
الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَهَرَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ، سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي، وَأَيَّامًا مَمِينًا). وامتن
على جميع عباده بقوله (٥): (هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْأُبَرِّ وَالْبَحْرِ) وقال تعالى (٦) (مَتَلَعًا
لَكُمْ وَلِلْسَّيَّارَةِ) فهل يجوز أن نذهب إلى أن هذه المنن هي من مخصصات الرجل دون
النساء؟ كلا! بل السكل مغمور بهذه المننات، كما هو مقتضى عموم الآيات. انتهى ملخصاً.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
عَلَيْهَا مَلَكَةٌ غُلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)
«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا» أى سبها. وذلك بترك المعاصي،

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٢٠].

(١) [٣٠ / الروم / ٩].

(٤) [٣٤ / سبأ / ١٨].

(٣) [٧٣ / الزمل / ٢٠].

(٦) [٥ / المائدة / ٩٦].

(٥) [١٠ / يونس / ٢٢].

وفعل الطاعات، والقيام على تأديب الأهل، وأخذهن بما تأخذون به أنفسكم « وَقُوْهُمَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » أى تتقد بهما اتقاد غيرها بالخطب « عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ » أى تلى أمرها وتعذيب أهلها ، زبانية « غِلَاطٌ شِدَادٌ » أى جفاة قساة « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » قال الزمخشري . وليست الجملتان فى معنى واحد . فإن معنى الأولى : أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يابونها ولا ينكرونها ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون به ، لا يتشاقلون عنه ، ولا يتوانون فيه . انتهى .

وقيل : الجملة الأولى لبيان استمرار إتيانهم بأوامره ، والثانية لأنهم لا يفعلون شيئاً مالم يؤمروا به ، كقوله (١) تعالى (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) فإن استمرارهم على فعل ما يؤمرون به يفيد ، فلا تكرار . وقيل : إنه من الطرد والعكس ، وهو يكون فى كلامين ، يقرر منطوق أحدهما مفهوم الآخر ، وبالعكس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى يقال لهم ذلك عند دخولهم النار . فالمراد بـ (اليوم) وقت دخولهم إياها ، فتعريفه للعهد ، والنهى عن الاعتذار لأنه لا عذر لهم ، أو العذر لا ينفعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٧] .

وَيَا يَمُنُّهُمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ نَا وَأُغْفِرْ لَنَا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

« يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً تَصُوحًا » أى توبة ترفع الخروق، وترتق الفتوق ، وتصلح الفاسد ، وتسد الخلل . من (النصح) بمعنى الخياطة . أو توبة خالصة عن شوب الميل إلى الحال الذى تاب عنه ، والنظر إليه بعدم الالتفات ، وقطع النظر عنه . من (النصوح) بمعنى الخلوص « عَسَىٰ رَبُّكُمْ » أى بمناسبة أنفسكم بالتوبة النصوح « أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ » أى لا يذلهم . تعريض لأعدائهم بالخزى والصغار « نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَا يَمُنُّهُمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ نَا » أى أدمه أو زده « وَأُغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جُهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جُهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ » أى بالسنان والبرهان « وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ » أى فيما يجاهدكم به ، لتفكسر صلابتهم، وتلين شكيمتهم وعريكتهم ، فتنتهر نفوسهم وتذل وتخضع . « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ)

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أُمْرَأَتَ نُوحٍ وَأُمْرَأَتَ لُوطٍ » أى حالهما « كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا » أى بالمظاهرة عليهما والكفر والعصيان ، مع تمكنهما من الطاعة والإيمان « فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ » أى من عذابه « شَيْئًا وَقِيلَ » أى لهما عند موتهما ، أو يوم القيامة : « أَدْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ » أى مع سائر الداخلين من الفجرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا أُمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ

بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[١٢] (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا

وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَتِينَ)

« وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا أُمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا

فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى من عملهم

وعذابهم « وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » أى حفظته وصانته « فَنَفَخْنَا

فِيهِ مِنْ رُوحِنَا » بمعنى : جبريل عليه السلام ، أو من روح خلقناه بلا توسط ، وهو عيسى عليه

السلام « وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا » أى بصحفه المنزلة عنده « وَكُتِبَ عَلَيْهَا » أى المواعاة . والعطف

للتفسير ، أو الكلمات أعم من المكتوب والمحفوظ من أوامره ووصاياه المتوارثة ، والكتب

خاصة بالمخطوط من الأسفار . « وَكَانَتْ مِنَ الْقَنَتِينَ » أى من المواظبين على الطاعة لله ،

والخضوع لأحكامه . والتذكير للتغليب .

تنبيهات :

الأول : قال الزمخشري : مثل الله عز وجل حال الكفار فى أنهم يعاقبون على كفرهم

وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم ، من غير إبقاء ولا محاباة ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لجة نسب ، أو وصلة صهر ، لأن عداوتهم لهم ، وكفرهم بالله ورسوله ، قطع العلائق ، وبت الوصل ، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد ، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر ، نبيًّا من أنبياء الله - بحال امرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما ، بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج ، إغناء ما من عذاب الله . ومثل حال المؤمنين في وصلة الكافرين لاتضرهم ، ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله - بحال امرأة فرعون ، ومنزلتها عند الله تعالى ، مع كونها زوجة أعدى أعداء الله ، الناطق بالكلمة العظمى . ومريم ابنة عمران ، وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين ، مع أن قومها كانوا كفاراً . وفي طيّ هذين التمثيلين تعريض بأمر المؤمنين المذكورتين في أول السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ ، بما كرهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه ، لما في التمثيل من ذكر الكفر . ونحوه في التمليل قوله تعالى (١) : (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين ، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ ، فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين . والتعريض بحفصة أرجح ، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله . وأسرارُ التنزيل ورموزه في كل باب ، بالغة من اللطف والخفاء حدًّا يدق عن تقطن العالم ويزل عن تبصره . انتهى .

الثاني : قال الإمام ابن القيم في (أعلام الموقعين) اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال :

مثل للكفار ، ومثلين للمؤمنين .

فتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لجة نسب ، أو وصلة صهر ، أو سبب من

(١) [٣ / آل عمران / ٩٧] .

أسباب الاتصال . فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ، إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدي رسله ، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح ، مع عدم الإيمان ، لنفعت الوصلة التي كانت بين نوح ولوط وامراتيهما . فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين . قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله ، وخالف أمره ، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي ، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال . فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية ، ولم يغن نوح عن ابنه ، ولا إبراهيم عن أبيه ، ولا نوح ولوط عن امرأتيهما من الله شيئاً . قال تعالى ^(١) : (لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ) : وقال تعالى ^(٢) : (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً) وقال تعالى ^(٣) (وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً) وقال ^(٤) (وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئاً ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) وهذا كله تكذيب لأطاع المشركين الباطلة ؛ أن من تعلقوا به من دون الله ، من قرابة أو صهر أو نكاح أو حبة ينفعهم يوم القيامة ، أو يجبرهم من عذاب الله أو يشفع لهم عند الله . وهذا أصل ضلال بني آدم وشركهم وهو الشرك الذي لا يغفره الله ، وهو الذي بعث الله جميع رسله ، وأنزل جميع كتبه ، بإبطاله ، ومحاربة أهله ومعاداتهم .

وأما المثلان اللذان للمؤمنين . فأحدهما امرأة فرعون ، ووجه المثل أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه في كفره وعمله ، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً في الآخرة ، وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحمل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله ، فتأني عامة . فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به ، وهو أ كفر الكافرين ، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالها بهما ، وهما رسولا رب العالمين .

المثل الثاني للمؤمنين : مريم ، التي لا زوج لها ، لا مؤمن ولا كافر .

(١) [٦٠ / الممتحنة / ٣] . (٢) [٨٢ / الانقطار / ١٩] .

(٣) [٢ / البقرة / ٤٨ و ١٢٣] . (٤) [٣١ / لقمان / ٣٣] .

فذكر ثلاثة أصناف النساء : المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح ، والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر ، والمرأة العزب التي لا وصلة بينها وبين أحد . فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها ، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها ، والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئاً . ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة ، فإنها سيقّت في ذكر أزواج النبي ﷺ ، والتحذير من تظاهرها من عليه ، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ، ويردن الدار الآخرة ، لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ ، كما لم ينفع امرأة نوح ولو ط اتصالحا بهما ، ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة .

قال يحيى بن سلام : ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة . ثم ضرب لها المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة . وفي ضرب المثل للمؤمنين بمریم اعتبار آخر : وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً ، قذف أعداء الله اليهود لها ، ونسبتهن إياها وابنها إلى مبرأها الله عنه ، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين ، فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه . وفي هذا تسلية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك ، وتوطین نفسها على ما قال فيها الكاذبون ، إن كانت قبلها . كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولو ط تحذير لها ولحفصة مما اعتمدتا في حق النبي ﷺ . فتضمنت هذه الأمثال التحذير لمن ، والتخويف والتحريض لمن على الطاعة والتوحيد والتسلية وتوطین النفس لمن أودى منهن وكذب عليه . وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه ، ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون . انتهى .

الثالث - قال القاشاني : بين تعالى أن الوصل الطبيعية ، والاتصالات الصورية غير معتبرة في الأمور الأخروية . بل الحجة الحقيقية ، والاتصالات الروحانية ، هي المؤثرة فحسب . والصورية التي بحسب اللحم الطبيعية والخلطة والمعاشرة لا يبق لها أثر فيما بعد الموت ، ولا تكون إلا في الدنيا ، بالتمثيلين المذكورين . وإن المعتبر في استحقاق الكرامة عند الله هو العمل الصالح ، والاعتقاد الحق ، كإحصان مریم ، وتصديقها بكلمات ربها ، وطاعتها المعدة إياها

لقبول نفخ روح الله فيها . وقد يلوح بينهما أن النفس الخائنة التي لاتنفي بالطاعة ، ولا تحفظ الأسرار ، وتبيح المخالفة ، داخلة في نار الحرمان ، وجحيم المهجران مع المحجوبين ، ولا تغني هداية الروح عنها شيئاً من الإغناء في باب العذاب . وأن القلب المقهور تحت استيلاء النفس الأمارة الفرعونية ، الطالب للخلاص بالالتجاء إلى الحق الذي قويت فيه قوة محبة الله لصفائه ، وضعفت قوة قهره للنفس والشیطان لعجزه وضعفه ، لا يبق في العذاب مخلداً ويخلص إلى النجاة ، ويبقى في الغميم سرمداً ، وإن تعذب بمجاورتها حيناً ، وتألم بأفعالها برهة . وأن النفس المترينة بفضيلة العفة المشار إليها بإحصان الفرج ، هي القابلة لفيض روح القدس . المتنورة بنور الروح المصدقة بكلمات الرب ، من العقائد الحكيمة ، والشرائع الإلهية ، الطيبة لله مطلقاً ، علماً وعملاً ، سرّاً وجهراً . انتهى ملخصاً .

الرابع - في (الإكليل) : استدلل بقوله تعالى (أُمَرَأَتَ فِرْعَوْنَ) على صحة أنسكة الكفار . أقول : ويستدل بقوله تعالى (أُمَرَأَتَ نُوحٍ وَأُمَرَأَتَ لُوطٍ إِلَى قَوْلِهِ : فَخَانَتَاهُمَا) على جواز استدامة الرجل الصالح نكاح امرأته الفاسقة العاصية ، وعلى أن استبقاءها بدون مفارقة لا يعد من قلة التورع . وهو جلي . ويستدل بذلك أيضاً على أن نكاح المشركات كان جائزاً في شرع من قبلنا ، وقد حظره الإسلام أشد الحظر ، كما مرّ في آيات عديدة .

الخامس : قال ابن كثير في قوله تعالى عن حكاية امرأة فرعون (رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار ، وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع . السادس - قال الزمخشري : في دعاء امرأة فرعون دليل على أن الاستمادة بالله ، والالتجاء إليه ، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين ، وسنن الأنبياء والمرسلين ^(١) (فَأُفْتَحَ بَيْتِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) ^(٢) .

(١) [٢٦ / الشعراء / ١١٨] . (٢) [١٠ / يونس / ٨٥ و ٨٦] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٧ - سُورَةُ الْمَلِكِ

قال المہامی : سمیت به لاشتمالها علی كثير مما ینبغی أن یکون علیہ الملک من کثرة الخیرات ، وعموم القدرة ، والإحیاء والإماتة ، واختبار أعمال الناس ، والغلبة والغفران ، ورفع الأبنیة لخدمته وعدم التفاوت فی رعاياه ، وتزین بلاده ، والقهر علی الأعداء ، والترحم علی الأولیاء ، والأمن ورخص الأسعار ، وأن لا یقدر أحد علی نصر من عاداه ، ولا علی رزق من منعه . انتهى .

وتسمى سورة (تبارک) . وهی مکیة . وآیهات ثلاثون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ « قال ابن جرير ^(١) : أى تعظم الذى بيده ملك الدنيا والآخرة ، وسلطانهما ، نافذ فيهما أمره وقضاؤه ، وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة ، لا يمنعه مانع ، ولا يحول بينه وبينه عجز .

وقال القاشانى : الملك ، عالم الأجسام ، كما أن الملكوت عالم النفوس . ولذلك وصف ذاته باعتبار تصرفه عالم الملك ، بحسب مشيئته بالتبارك ، الذى هو غاية العظمة ، ونهاية الازدياد فى العلو والبركة . وباعتبار تسخيريه عالم الملكوت ، بمقتضى إرادته بالتسبيح ، الذى هو التنزيه ، كقوله ^(٢) (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) كلاً بما يناسبه ، لأن العظمة والازدياد والبركة تناسب الأجسام ، والتنزه يناسب المجردات عن المادة . فعنى (تبارك) تعالى وتعظم ، الذى يتصرف فى عالم الملك بيد قدرته ، لا يتصرف فيه غيره فبيده كل ما وجد من الأجسام ، لا بيد غيره ، يصرفها كما يشاء ، وهو القادر على كل ما عدم من الممكنات ، يوجدتها على ما يشاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

«الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» أى: قدر الموت والحياة

(١) انظر الصفحة رقم ١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٦ / يس / ٨٣] .

فأمات من شاء وما شاء ، وأحيى من أراد وما أراد ، إلى أجل معلوم . أو أوجد الحياة ، وأزالها حسبما قدره .

قال القاشاني : الموت والحياة من باب العدم والمملكة . فإن الحياة هي الإحساس والحركة الإرادية ولو اضطرارية كالتنفس . والموت عدم ذلك عما من شأنه أن يكون له . وعدم المملكة ليس عدماً محضاً ، بل فيه شائبة الوجود . والألم يعتبر فيه الحل القابل للأمر الوجودي ، فلذلك صح تعلق الخلق به ، كتعلقه بالحياة ، وجعل الغرض من خلقهما ، بلاء الإنسان في حسن العمل وقبحه ، أي العلم التابع للمعلوم الذي يترتب عليه الجزاء ، وهو العلم الذي يظهر على المظاهر الإنسانية بعد وقوع العلوم ، فإنه ليس إلا علم الله السكامن في الغيب ، الظاهر بظهور المعلوم ، لأن الحياة هي التي يتمكن بها على الأعمال ، والموت هو الداعي إلى حسن العمل الباعث عليه ، وبه يظهر آثار الأعمال ، كما أن الحياة يظهر بها أصولها ، وبهما تتفاضل النفوس في الدرجات ، وتتفاوت في الهلاك والنجاة . وقدم الموت على الحياة ، لأن الموت في عالم الملك ذاتي ، والحياة عرضية . وقيل : إن أريد به العدم السابق ، فتقدمه ظاهر ، لسبقه على الوجود . أو العدم اللاحق ، فتقدمه لأن فيه عظة وتذكيرة ، وردعاً عن ارتكاب المعاصي .

« وَهُوَ الْمَزِيْزُ » أي : الغالب الذي يقهر من أساء العمل « الْغَفُوْرُ » أي لذنوب من أناب إليه وأحسن العمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ، مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُوْرٍ)

« الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا » قال ابن جرير^(٣) : طباقاً فوق طبق ، بعضها فوق بعض .

(١) انظر الصفحة رقم ٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال المهايى : أى يوافق بعضها بعضاً بلا تضاد ، ليم أمر الحكمة فى الكوائن والفواسد .

وقال بعض علماء الفلك : اعلم أن لفظ (السماء) يطلق لغة على كل ما علا الإنسان ، فإنه من السمو ، وهو العلو ، فسقف البيت سماء . ومنه قوله تعالى ^(١) (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ) أى فليمدد بجبل إلى سقف بيته . وهذا الفضاء الانهائى سماء . ومنه قوله تعالى ^(٢) : (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) . والسحاب سماء ، ومنه قوله تعالى ^(٣) (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) والكواكب سماوات . فالسموات السبع المذكورة كثيراً فى القرآن الشريف ، هى هذه السيارات السبع ، وهى طباق ، أى : أن بعضها فوق بعض ، لأن فلك كل منها فوق فلك غيره .

« مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ » أى : تخالف وعدم تناسب فى رعاية الحكمة ، بل راعاها فى كل خلقه .

« فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ » أى إن شككت ، فكرر النظر « هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ؟ » أى : خلل . وأصل (الفطور) الصدوع والشقوق . أريد به لازمه . كذا قالوه ، والصحيح أنه على حقيقته أى : هل ترى من انشقاق وانقطاع بين السموات ، بحيث تذهب باتصالات الكواكب فتفرقها ، وتقطع علاقاتها وأحبال تجاذبها ؟ كلا ! بل هى متجاذبة ، مرتبط بعضها ببعض من كل جهة ، كما تقدم فى سورة (ق) فى آية ^(٤) : (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٢٤] .

(١) [٢٢ / الحج / ١٥] .

(٤) [٥٠ / ق / ٦] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (ثُمَّ أَرْجِعْ أَلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ أَلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)
 « ثُمَّ أَرْجِعْ أَلْبَصَرَ » أى كرده « كَرَّتَيْنِ » أى : رجعتين أخريين ، ابتغاء الخلل
 والفساد والعبث . والمراد بالثنائية التكرير . « يَنْقَلِبْ » أى : يرجع « إِلَيْكَ أَلْبَصَرُ خَاسِئًا »
 أى : مطروداً عن إصابة المطلوب . « وَهُوَ حَسِيرٌ » أى : معي كالـ .

تنبيهات :

الأول - ذهب الزمخشري إلى أن قوله تعالى (مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ)
 صفة ثانية لقوله : (سَبْعَ سَمَوَاتٍ) وضع فيها - خلق الرحمن - موضع الضمير للتعظيم ،
 والأصل (فِيهِنَّ) وتابعه القاضى والقاشانى ، وعبارته :

نهاية كمال عالم الملك فى خلق السموات ، لا ترى أحكم خلقاً ، وأحسن نظاماً وطباقاً منها .
 وأضاف خلقها إلى الرحمن ، لأنها من أصول النعم الظاهرة ، ومبادئ سائر النعم الدنيوية ،
 وسلب التفاوت عنها لمطابقة بعضها بعضاً ، وحسن انتظامها وتناسبها . وإنما قال (ثُمَّ
 أَرْجِعْ أَلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ) لأن تكرار النظر ، وتجوال الفكر ، مما يفيد تحقق الحقائق
 وإذا كان ذلك فيها عند طلب الخروق والشقوق ، لا يفيد إلا الخسوء والخسور ، تحقق
 الامتناع ، وما أتعب من طلب وجود الممتنع . انتهى .

ولو جعل قوله تعالى : (مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ) مستأنفاً ، مقررّاً
 بعمومه لتناسب خلقه وإتقانه ، وتناهى حسنه ، فيشمل ما قبله - لكان أولى من تخصيصه
 بوصفية ما قبله ، ويكون كآية (١) : (أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) وآية (٢) : (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي
 أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) وتلطف بعضهم فقال : فى الآية إشارة إلى قياس تقديره : ما ترى فيها من
 تفاوت لأنها من خلقه تعالى . وما ترى فى خلقه من تفاوت .

(١) [٣٢ / السجدة / ٧] . (٢) [٢٧ / النمل / ٨٨] .

الثانى - للإمام ابن حزم رحمه الله كلام فى هذه الآية فى كتاب (الفِصَل) ساقه فى

مباحثه مع المعتزلة ، نأثره هنا لنفاسته ، قال رحمه الله :

التفاوت الممهود هو ما نافر النفوس ، أو خرج عن الممهود ، فنحن نسمى الصورة المضطربة بأن فيها تفاوتاً ، فليس هذا التفاوت الذى نفاء الله تعالى عن خلقه ، فإذاً ليس هو الذى يسميه الناس تفاوتاً ، فلم يبق إلا أن التفاوت الذى نفاء الله تعالى عما خلق هو شيء غير موجود فيه البتة ، لأنه لو وجد فى خلق الله تعالى تفاوت ، لكذب قول الله عز وجل (مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ) ولا يكذب الله تعالى إلا كافر ، فبطل ظن المعتزلة أن الكفر والظلم والكذب والجور تفاوت ، لأن كل ذلك موجود فى خلق الله عز وجل ، مرئى فيه ، مشاهد بالعيان فيه ، فبطل احتجاجهم .

فإن قال قائل : فما هذا التفاوت الذى أخبر الله عز وجل أنه لا يرى فى خلقه ؟

قيل لهم : هو اسم لا يقع على مسمى موجود فى العالم أصلاً ، بل هو معدوم جملة ، إذ لو كان شيئاً موجوداً فى العالم ، لوجد التفاوت فى خلق الله تعالى . والله تعالى قد أكذب هذا ، وأخبر أنه لا يرى فى خلقه .

ثم نقول ، وبالله تعالى التوفيق : إن العالم كله مادون الله تعالى ، وهو كله مخلوق لله تعالى ، أجسامه وأعراضه كلها ، لا نحاشى شيئاً منها . ثم إذا نظر الناظر فى تقسيم أنواع أعراضه ، وأنواع أجسامه ، جرت القسمة جرياً مستوياً فى تفضيل أجناسه وأنواعه ، بحدودها الميزة لها ، وفصولها المفرقة بينها ، على رتبة واحدة ، وهىئة واحدة ، إلى أن يبلغ إلى الأشخاص التى تلى أنواع ، الأنواع ؛ لاتفاوت فى شيء من ذلك البتة ، بوجه من الوجوه ، ولا تخالف فى شيء منه أصلاً . ومن وقف على هذا علم أن الصورة المستقبحة عندنا ، والصورة المستحسنة عندنا . واقعتان معاً تحت نوع الشكل والتخطيط ، ثم تحت نوع الكيفية ، ثم تحت اسم العرض ، وقوعاً مستوياً لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت فى هذا بوجه من التقسيم .

وكذلك أيضاً نعلم أن الكفر والإيمان بالقلب واقعان تحت نوع الاعتقاد ، ثم تحت

فعل النفس ، ثم تحت الكيفية والمرض ، وقوعا مستويا لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت من هذا الوجه من التقسيم . وكذلك أيضا نعلم أن الإيمان والكفر باللسان واقعان تحت نوع فرع الهواء بآلات الكلام ، ثم تحت نوع الحركة وتحت نوع الكيفية ، وتحت اسم المرض ، وقوعا حقا مستويا لا تفاوت فيه ولا اختلاف .

وهكذا القول في الظلم والإنصاف ، وفي العدل والجور ، وفي الصدق والكذب ، وفي الزنا والوطء الحلال . وكذلك كل ما في العالم ، حتى يرجع جميع الموجودات إلى الرؤوس الأول التي ليس فوقها رأس يجمعها إلا كونها مخلوقة لله تعالى . وهي الجوهر والكم والكيف والإضافة . فانتفى التفاوت عن كل ما خلق الله تعالى ، وعادت الآية المذكورة حجة على المعتزلة ، ضرورة لا منفك لهم عنها ، وهي أنه لو كان وجود الكفر والكذب والظلم تفاوتاً كما زعموا ، لكان التفاوت موجوداً في خلق الرحمن . وقد كذب الله تعالى ذلك ، وهي أن يرى في خلقه تفاوت . انتهى كلامه .

الثالث - قال الناصر : في قوله تعالى (يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا) وضع للظاهر موضع المضمّر . وفيه من الفائدة التنبيه على أن الذي يرجع خاسئاً حسيراً غير مدركٍ الفطور ، هو الآلة التي يلتبس بها إدراك ما هو كائن ، فإذا لم يدرك شيء ، دل على أنه لا شيء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ،
وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ » قال ابن جرير ^(١) : وهي النجوم . وجعلها (مصابيح) لإضاءتها . وكذلك الصبح ، إنما قيل له صبح ، للضوء الذي يضيء للناس من النهار . « وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ » قال ابن كثير : عاد الضمير في قوله تعالى

(١) انظر الصفحة رقم ٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(وَجَعَلْنَاهَا) على جنس المصاييح ، لا على عينها ، لأنه لا يرى بالكواكب التي في السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها - والله أعلم - .
وقال القاضي : أى وجعلناها فائدة أخرى هي رجم أعدائكم بانتقاض الشهب المسببة عنها . وقيل : معناه وجعلناها رجوماً وظنوناً لشرائط الإنس - وهم المنجمون - .
قال الشهاب : مرّضه لأنه خلاف الظاهر المأثور . و (الرجم) يكون بمعنى الظن ، مجازاً معروفاً . والآية بمعنى آية الصافات ^(١) (إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ الْأَعْلَىٰ وَيُقْدِفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنِ خِطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعْنَاهُ وَشِهَابٌ ثَاقِبٌ) «وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ» أى في الآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٦] (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)
[٧] (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ)
[٨] (تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ، كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)
[٩] (قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)
[١٠] (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)
[١١] (فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(١) [٣٧ / الصافات / ٦ - ١٠] .

« وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » أى المرجع ذلك العذاب المحرق .

قال الناصر : هذا من الاستطراد . لما ذكر وعيد الشياطين ، استطرده ذلك وعيد الكافرين عموماً .

« إِذَا أَلْقَاوا فِيهَا سَمْعُومًا لَهَا شَهِيقًا » أى لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها ، الأصوات المنكرة المنافية لأصوات الأناسى ، أولأنفسهم . فإنهم يصطرخون فيها بأصوات الحيوانات المنكرة الصوت ، كقوله ^(١) (لَّهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) . أولها نفسها ، تشبيهاً لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق ، وهو الصوت الذى يخرج من الجوف بشدة ، كصوت الحمار .

« وَهِيَ تَفُورُ » أى : تغلى بهم وتعلو .

« تَسْكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ » أى تتهرق أجزاءها من الغيظ على الذين أغضبوا الله ورسوله . شبت فى شدة غليانها ، وقوة تأثيرها فى أهلها ، بإنسان شديد الغيظ على غيره ، مبالغ فى إيصال الضرر إليه ، فتوهم لها صورة كصورة الحالة المحققة الوجدانية ، وهى الغضب الباعث على ذلك . واستمير لتلك الحالة المتوهمة الغيظ - كما فى شرح المفتاح الشريفي - وأما ثبوت الغيظ الحقيقي لها ، بخلق الله فيها إدراكا ، فبحث آخر . لكنه قد قيل هنا : إنه لاجابة إلى ادعاء التجوز فيه ، لأن (تسكاد) تأباه ، كما فى قوله ^(٢) : (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ) وقد صرح به علماء المعاني فى بحث المبالغة والغلو . وجوز أن يراد غيظ الزبانية . فالإسناد مجازي ، أو على تقدير مضاف - كما فى (العناية) - .

« كُلَّمَا أُنْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ » أى : جماعة من الكفرة « سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ » أى : فى الدنيا يفذركم هذا العذاب .

قال فى (الإكليل) : استدل به على أنه لا تسكليف قبل البعثة .

(١) [١١ / هود / ١٠٦] . (٢) [٢٤ / النور / ٣٥] .

« قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » أى : فكذبنا الرسل ، وأفرطنا في التكذيب ، حتى ثقينا الإيزال والإرسال رأساً ، وبالغنا في نسبتهم إلى الضلال .

« وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ » أى : من النذر ما جاءت به ، سماع طالب الحق ، وعقل من نبذ الهوى « مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ » أى : في عداد أهل النار .

تنبيهان :

الأول - قال الناصر : لو تفطن نبيه لهذه الآية لعدّها دليلاً على تفضيل السمع على البصر ، فإنه قد استدلل على ذلك بأخفى منها .

الثانى - قال ابن السمعاني في (القواطع) : استدلل به من قال بتحكيم العقل .
وقال الزمخشري : قيل إنما جمع بين السمع والعقل ، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل .

« فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُخِّقُوا لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ » أى : فأقروا بمجدهم الحق ، وتكذبيهم الرسل ، فبعداً لهم ، اعترفوا أو أنكروا ، فإن ذلك لا ينفعهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)
« إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ » أى يخافونه أو يخافون عذابه ، وهم يروه « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ وَعَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)
« وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ » أى وعليم « بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى بضمائرهما ، فكيف بما نطق به ؟ والمعنى : فاتقوه واخشوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » أى : ألا يعلم السر والجهر، مَنْ خلق الأشياء، والخلق يستلزم العلم كما قال : « وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » أى اللطيف بمبادئه ، الخبير بأعمالهم . وقيل : معنى الآية : ألا يعلم الله من خلقه ، وهو بهذه المثابة (من) مفعول ، والعائد مقدر .

قال الغزالي : إنما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق الأمور وغوامضها ، ومالطف منها ، ثم يسلك في إيصال ما يصلحها سبيل الرفق ، دون العنف . و (الخبير) هو الذى لا يعزب عن علمه الأمور الباطنة ، فلا تتحرك في الملك والملكوت ذرة ، ولا تسكن أو تضطرب نفس ، إلا وعنده خبرها . وهو بمعنى العليم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا » أى لينة سهلة المسالك . « فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا » أى : فى نواحيها وجوانبها على التشبيه .

قال ابن جرير^(١) : لأن نواحيها نظير مناكب الإنسان التى هى من أطرافه .

« وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ » أى التمسوا من نعمه تعالى .

قال الشهاب : فالأكل والرزق ، أريد به طلب النعم مطلقاً ، وتحصيلها أكلاً وغيره .

فهو اقتصار على الأهم الأعم ، على طريق المجاز أو الحقيقة .

قال : وأنت إذا تأملت نعيم الدنيا ، وما فيها ، لم تجد شيئاً منها على المرء غير ما أكله ،

(١) انظر الصفحة رقم ٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وما سواه متمم له ، أو دافع للضرر عنه .

« وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » أى : نشوركم من قبوركم للجزاء .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (فَأَمْشُواْ فِيْ مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهَا)
الأمر بالتسبب والكسب .

وقال ابن كثير : فى الآية تذكىر بنعمته تعالى على خلقه فى تسخيره لهم الأرض ، وتذليله
إياها لهم ، بأن جعلها ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من
العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهياً فيها من المنافع ، ومواقع الزرع والثمار . والمعنى :
سافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها ، فى أنواع المكاسب والتجارات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)

[١٧] (أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ، فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ

نَذِيرٍ)

« ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ » خطاب للكافرين . أى أأمنتم
العلّى الأعلى أن يخسف بكم الأرض فيغيثكم إلى أسفل سافلين . « فَإِذَا هِيَ تَمُورُ » أى :
تضطرب وتهتز هزاً شديداً بكم ، وترتفع فوقكم ، وتنقلب عليكم .

« أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا » وهو التراب ، فيه الحصباء
الصغار ، « فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ » قال ابن جرير (١) : أى عاقبة نذيرى لكم ، إذا كذبتهم به ،
ورددتموه على رسولى .

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد بين تعالى نذيره لهم في غير ما آية ، وهو زهوق باطلهم إذا أصرّوا ، ونصر رسوله ، وغلبة جنده ، كما قال تعالى ^(١) (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) .

قال الشهاب : (النذير) مصدر ، والياء محذوفة ، والقراء مختلفون فيها : فمنهم من حذفها وصلّا ، وأثبتها وقفاً ، ومنهم من حذفها في الحالين اكتفاء بالكسرة وكذا الحال في (نكير) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيفَ كَانَ نَكِيرِ)

[١٩] (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

«وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» أى مع كونهم أشد منهم عدداً وعدداً «فَكَيفَ كَانَ نَكِيرِ» أى نكيرى تكذيبهم . وذلك بإزالة العذاب بهم ، ودحر باطلهم .

قال القاضى : هو تسليمة للرسول ﷺ ، وتهديد لقومه المشركين .

«أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ» أى باسطات أجنحتهن في الجوّ عند طيرانها ، «وَيَقْبِضْنَ» أى ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن ، وقت ، للاستظهار . ولتجدده عبر عنه بالفعل ، إشارة إلى أنه أمر طارئ على الصف . يفعل في بعض الأحيان للثقوى بالتحريك . كما يفعله السابح في الماء ، يقيم بدنه أحياناً ، بخلاف البسط والصف ، فإنه الأصل الثابت في حالة الطيران ، ولذا اختير له الاسم .

«مَا يُمْسِكُهُنَّ» أى في الجو «إِلَّا الرَّحْمَنُ» أى المفيض لكلّ ما قدّر له ، حسب استعدادده بسعة رحمته . ومنه ما دبر للطيور من بنية يتأتى منها الجرى في الجو .

«إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ» قال القاشانى : أى فيعطيه ما يليق به ، ويسوّيه بحسب

مشيئته ، ويودع فيه ما يريد به بمقتضى حكمته ، ثم يهديه إليه بتوفيقه .
ثم بكت تعالى المشركين ، بنفى أن يكون لهم ناصر غيره سبحانه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ ،

إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ)

« أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ » أى معشر المشركين « يَنْصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ » أى إن أراد بكم سوءاً ، فيدفع عنكم بأسه . « إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ » أى من ظنهم أن أربابهم تنفع أو تضر . أو أنها تقربهم إلى الله زلفى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ، بَل لَّجُوا فِي عُتُوٍّ

وَنُفُورٍ)

« أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ » يعنى المطر ونحوها « بَل لَّجُوا » أى تمادوا « فِي عُتُوٍّ » أى عناد وطفيان « وَنُفُورٍ » أى شراد عن الحق واستكبار ، مع وضوح براهينه ، فأصرُّوا على اعتقاد أنهم يُحفظون من النوائب ، ويُرزقون ببركة آلهتهم ، وأنهم الجند الناصر الرازق ، مكابرة وعناداً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ)

« أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

تمثيل للضالين والمهتدين . و (المكب) هو المتعثر الذى يخرّ على وجهه لوعورة طريقه ، واختلاف سطحه ارتفاعاً وانخفاضاً . والذى يمشى سويّاً هو القائم السالم من العثار ، لاستواء طريقه ، واستقامة سطحه .

قال القاضى : والمراد تمثيل المشرك والموحد بالسالكين ، والدينين بالمسلكين . ولعل الاكتفاء بما فى الكَب من الدلالة على حال المسلك ، للإشعار بأن ماعليه المشرك لا يستأهل أن يسمى طريقاً . أى : فذلك ذكر المسلك فى الثانى دون الأول .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

[٢٤] (قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

[٢٥] (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[٢٦] (قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

« قُلْ هُوَ » أى المستحق للعبادة وحده ، وسلوك صراطه « الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ » أى العقول والإدراكات « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أى باستعمالها فيما خلقت له « قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ » أى خلقكم فيها لتعبدوه ، وتقوموا بالقسط الذى أمر به « وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى للجزاء « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » أى الحشر أو الفتح على رسوله وظهور دينه « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى الإنذار به ، والترهيب منه « قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ » أى بين الحجة على ما أنذركم به ، من زهوق باطلكم إذا جاء أجله . وأما تعيين وقته ، فليس إلى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ » أى : ما وعدوا به من العذاب ، وزهوق باطلهم « زُلْفَةً » أى : قريباً ، أو ذا زلفة ، أى قُرْب « سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى ظهر عليها آثار الاستياء من السكابة والغم والانكسار والحزن « وَقِيلَ » أى لهم تبكيता « هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ » أى تطلبون وتستمعجلون به ، من الدعاء ، أو تدعون أن لا يموت ، من (الدعوى) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللَّهُ وَمَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللَّهُ وَمَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » كان كفار مكة يتربصون بالنبي ﷺ ريب المنون ، تخلصاً من دعوته وانتشارها ، فأمر أن يقول لهم ذلك . أى أخبرونى إن أمانى الله ومن معى من المؤمنين ، أو رحمتنا بتأجيل آجالنا وانتصارنا ، فمن يجيركم من عذاب أليم قضى الله وقوعه بكم لكفركم ؟ .

قال ابن كثير : أى خلصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا بالتوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال ، فسواء عذبنا الله أو رحمتنا ، فلا مناص لكم من عذابه ونكاله الواقع بكم . والمعنى بالعذاب : إما الدنيوى ، وهو خزيهم بالانتصار عليهم ، ودحور ضلالهم . أو الآخروى ، وهو أشد وأبقى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا » أى اعتمدنا فى أمورنا ، لا على ما تشكلون عليه من رجالكم وأموالكم . « فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى فى ذهاب عن الحق ، وانحراف عن طريقه منا ومنكم ، إذا جاء نصر الله والفتح فى الدنيا ، ونشأته الثانية فى الأخرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوُكُمْ غَوْرًا » أى غاراً لا تناله الدلاء ، أو ذاهباً فى الأرض « فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ؟ » أى جار ظاهر سهل التناول .

قال الرازى : المقصود تقريرهم ببعض نعمه تعالى ، ليريه قبح ما هم عليه من الكفر . أى : أخبرونى إن صار مأوىكم ذاهباً فى الأرض ، فمن يأتىكم بماء معين ؟ فلا بد وأن يقولوا : هو الله . فيقال لهم حينئذ : فلم تجعلون من لا يقدر على شىء أصلاً ، شريكاً له فى العبودية . وهو كقوله تعالى^(١) : (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ؟) أى بل هو الذى أنزله وسلكه ينابيع ، رحمة بالعباد ، فله الحمد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٨ - سورة ن

وتسمى سورة القلم . وهي مكية . وآيها ثنتان وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [١] (نَ ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)
 [٢] (مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)
 [٣] (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)
 [٤] (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)

« ن » بالسكون على الوقف : اسم للحرف المعروف ، قصد به التحدى . أو اسم للسورة ، منصوب بـ (اذكر) أو مرفوع خبراً المحذوف « وَالْقَلَمِ » أى الذى يخط به « وَمَا يَسْطُرُونَ » أى يكتبون . و (ما) مصدرية أو موصولة . وقوله « مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » جواب القسم ، قصد به تكذيب المشركين فى إفكهم المحدث عنه بآية^(١) : (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) .

قال الزجاج : (أَنْتَ) هو اسم (ما) ، و (بِمَجْنُونٍ) الخبر . وقوله (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) كلام وقع فى البين . والمعنى : انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، كما يقال : أنت بمحمد الله عاقل ، وأنت بمحمد الله فهم . ومعناه : أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت ، والصفة المذمومة إنما زالت ، بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه . فالباء فى (بِنِعْمَةٍ) متعلقة بمعنى النفى المدلول عليه بـ (ما) والباء فى (بِمَجْنُونٍ) زائدة .

« وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا » أى ثواباً على أذى المشركين ، واحتمال هذا الطعن ، والصبر عليه « غَيْرَ مَمْنُونٍ » أى غير منقوص ولا مقطوع .

(١) [١٥ / الحجر / ٦] .

قال ابن جرير^(١) : من قولهم (جبل منين) إذا كان ضعيفاً ، وقد ضعفت منته ، أى : قوته . أو غير ممنون به عليك ، زيادة في العناية به ﷺ ، والتنويه بمقامه .
« وَإِنَّكَ لَمَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » قال ابن جرير^(١) : أى أدب عظيم . وذلك أدب القرآن الذى أدبه الله به ، وهو الإسلام وشرائعه .
قالت عائشة^(٢) : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن . أى كما هو فى القرآن .
قال الرازى : وهذا كالتفسير لقوله (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) والدلالة القاطعة على براءته مما رمى به ، لأن الأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والفصاحة التامة ، والعقل الكامل ، والبراءة من كل عيب ، والاتصاف بكل مكرمة ، كانت ظاهرة منه . وإذا كانت ظاهرة محسوسة فوجودها ينافى حصول الجنون . فكذب من أضافه إليه وضل ، بل هو الأخرى بأن يرمى بما قذف به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ)

[٦] (بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ)

[٧] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ » أى أولئك الجاحدون المفتوهون بتلك العظيمة .
« بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ » أى المجنون . والباء مزيدة . أو الفتنة والفتون ذهاباً ، إلى أن المصدر يجيء على زنة المفعول والباء أصلية بمعنى (فى) . أى : من كوشف بأسرار العلوم ، وأوتى جوامع الكلم ، أم من حجب عما فى نفسه من آيات الله والعبر ، وفتن بعبادة الصنم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .
(٢) أخرجه مسلم فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين ، حديث رقم ١٣٩ (طبعتنا) ،

وهو حديث طويل جمّ الفوائد .

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ » أى : عن طريق الحق الذى أمر به ،
« وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى بمن اتبع الحق ، وسلك سبيله ، فسيمجى الفريقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ)

[٩] (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

[١٠] (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ)

[١١] (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ مَبِيمٍ)

[١٢] (مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

[١٣] (عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ)

[١٤] (أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ)

[١٥] (إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ، ائْتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

[١٦] (سَنَسِفُهُ ، عَلَى الْخُرُطُومِ)

« فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ » أى بآيات الله ، وما جاءهم من الحق .

قال الزمخشري : تهيج وإلهاب على معاصاتهم .

« وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ » أى : ودوا لو تركن إلى آلهتهم ، وترك ما أنت عليه

من الحق ، فبالتوكل - رواه ابن جرير^(١) عن مجاهد - ثم قال : أى : لو تلى لهم فى دينك
بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم ، فيلغون لك فى عبادتك إلهك ، كما قال جل ثناؤه^(٢) .

(وَلَوْلَا أَنْ مَبْتَئْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ)

(١) انظر الصفحة رقم ٢١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٧٤ ، ٧٥] .

وَضِعْفَ الْمَمَآتِ) وإنما هو مأخوذ من الدهن ، شبه التليين في القول بتليين الدهن .
« وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَّافٍ » أى : كثير الحلف . قال الزمخشري : وكفى به مزجرة
لمن اعتاد الحلف ، ومثله قوله تعالى^(١) (وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ) . « مَهِينٍ »
أى : حقير الرأى والتميز .

« هَمَّازٍ » أى : عيَّاب طعان : قال ابن جرير^(٢) : والهمز أصله الغمز . ف قيل للمغتاب :
هاز ، لأنه يطعن في أعراض الناس بما يكرهون ، وذلك غمز عليهم . « مَشَّائِمٍ بِنَعِيمٍ »
أى نقال لحديث الناس بعضهم في بعض ، للإفساد بينهم .

« مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ » أى بخيل بالمال ، ضنين به . والخير المال . أو صاد عن الإسلام .
« مُعْتَدٍ » أى : على الناس ، متجاوز في ظلمهم . « أُثِيمٍ » كثير الآثام .

« عُتْلَمٍ » أى جاف غليظ . دعى « بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ » أى : دعى ملصق في النسب ، ليس
منهم . أو مريب يعرف بالشر . قال ابن جرير^(٣) : ومعنى (بعد) في هذا الموضع معنى (مع) .
وقال الشهاب : الإشارة لجميع ما قبله من النقائص ، لا للأخير فقط . وهى للدلالة على
أن ما بعده أعظم في القباحة . ف (بعد) هنا كـ (ثم) الدالة على التفاوت الرتبى ، ، كما مر في
قوله^(٤) (بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) .

« أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ » قال الزمخشري : متعلق بقوله (وَلَا تُطِيعْ) يعنى : ولا
تطعه مع هذه المثالب ، لأن كان ذامال . أى : ليساره وحظه من الدنيا . ويجوز أن يتعلق بما
بعده ، على معنى لكونه متمولاً مستظهِراً بالبنين ، كذب بآياتنا .
« إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ أَيْتُنَا » أى : تقرأ عليه آيات كتابنا « قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ »

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٤) [٦٦ / التحريم / ٤] .

أى : هذا مما كتبه الأولون ، استهزاء به ، وإنكاراً منه أن يكون ذلك من عند الله .
 وقوله : « سَنَسِمُهُ وَ عَلَى الْخُرْطُومِ » عِدَّةٌ منه تعالى بقاية إذلاله ، بعد تناهى كبره وعجبه
 وزهوه وعتوه . تقول العرب : وسّمته بيسم السوء : يريدون أنه ألصق به من العار مالا
 يفارقه . قال جرير (١) :

لما وضعتُ على الفَرَزْدَقِ مِيسَمِي وعلى البعِثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ
 قال الزخشرى : الوجه أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه ،
 لتقدمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية ، واشتقوا منه (الأنفة) وقالوا : الأنف في
 الأنف ، وحى أنفه ، وفلان شامخ العينين . وقالوا في الدليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه . فعبر
 بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين وإذالة ، فكيف
 بها على أكرم موضع منه ؟ ولقد وسم العباس أباعره في وجوها ، فقال له رسول الله ﷺ :
 أكرموا الوجوه ، فوسمها في جواعرها . وفي لفظ (الخرطوم) استخفاف به واستهانة ،
 لأن أصل الخرطوم للخزير والفيل . وقيل : سفعله يوم القيامة بعلامة مشوّهة يبين بها عن
 سائر الكفرة ، كما عادى رسول الله ﷺ عداوة بان بها عنهم . انتهى .

تنبيه :

قيل : عنى بالآية الأخنس بن شريق . قال ابن جرير (٢) : وأصله من ثقيف ، وعداده
 في بنى زهرة . أى : لأنه التحق بهم حتى كان منهم في الجاهلية . ولذا سمي زنيا للصوفة
 بالقوم ، وليس منهم وقيل : هو الوليد بن المغيرة ، ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة من مولده .

(١) من قصيدته التي مطلعها :

لِعَنَ الدِّيارُ كأنها لم تُحَلَّلِ بين الكِناس وبين طَلَحِ الْأَعْزَلِ
 الكناس : بيلاد غنى . والأعزل : لبنى كلب وبه ماء يسمى الأعزل . والطلح شجر
 من العضاء . (شرح ديوان جرير ص ٤٤٢) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ)

[١٨] (وَلَا يَسْتَشْنُونَ)

« إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ » أى بلونا مشركى مكة ، فاخترنا بهذا التنزيل الحكيم ، هل يشكرون نعمته ، فيحيوا حياة طيبة ، أو يصرون على تكذيبه ، فلا تكون عاقبتهم إلا كعاقبة أهل الجنة فى امتحانهم الآتى ، ثم دمارهم .

وقيل : معناه أصبناهم ببليية ، وهى القحط والجوع ، بدعوة رسول الله ﷺ ، (كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) وهم قوم من أهل الكتاب - على ما روى عن ابن عباس - أو ناس من الحبشة - فى قول عكرمة - أى : كتابيون . فيتفق مع ما قبله ، وليس من ضرورة الاعتبار بالمثل والعظة به ، تعيين أهله ، لولا حجة المأثور « إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ » أى : ليقطعن ثمارها مبكرين بحيث لا يعلم مسكين بذلك « وَلَا يَسْتَشْنُونَ » قال المہامی : أى : ولا يخرجون شيئاً من حق الساكنين ، واقتصر عليه . وحكاہ الرازى والقاضى قولاً ثانياً . والأول أن معناه : ولا يقولون إن شاء الله - واقتصر عليه ابن جرير ^(١) والأول أظهر ، والاستثناء بمعنى الإخراج الحسى ، والجملة معطوفة على لَيَصْرِمُنَّهَا) ومقسم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

[٢٠] (فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)

« فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ » أى فطرق جنة هؤلاء القوم ، طارق من أمر الله

لتدميرها .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال ابن جرير^(١) : ولا يكون الطائف في كلام العرب إلا ليلاً ، ولا يكون نهاراً . وقد يقولون : أظفت بها نهاراً . وذكر الفراء أن أبا الجراح أنشده^(٢) :

أَظَفْتُ بِهَا نَهَارًا غَيْرَ لَيْلٍ وَأَلْهَى رَبَّهَا طَلَبُ الرَّخَالِ
و (الرخال) أولاد الضأن الإناث .

فقوله : « وَهُمْ نَائِمُونَ » أى مستغرقون في سباتهم ، غافلون عما يكرهم . تأكيد على الأول ، وتأسيس على الثانى « فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » أى كالبلستان الذى صرم ثمره ، بحيث لم يبق فيه شيء . أو كالليل الأسود لاحتراقها . وأنشد فى ذلك ابن جرير لأبى عمرو^(٣) ابن العلاء :

أَلَا بَكَرَتْ وَعَادِلَتِي تَلُومُ تَهْجِدُنِي وَمَا انْكَشَفَ الصَّرِيمُ

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .
(٢) البيت من شواهد الفراء فى معانى القرآن (الورقة ٣٩٣) عند قوله تعالى : فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . قال : لا يكون الطائف إلا ليلاً ، ولا يكون نهاراً . وقد تكلم به العرب فيقولون : أظفت به نهاراً ، وليس موضعه بالنهار ، ولكنه بمنزلة قولك : لو ترك القطا ليلاً لنام . لأن القطا لا يسرى ليلاً .

قال : أنشدنى أبو الجراح العقيلي : (أظفت بها نهاراً ...) البيت اه .
والرخال جمع رخل (بكسر الراء وفتحها) : الأنثى من أولاد الضأن . والذكر : حمل . والجمع أرخل ورخال (يكسر الراء وضمها) ورخلان أيضاً (حاشية ابن جرير) .
(٣) نسب المؤلف البيت إلى أبى عمرو بن العلاء . ولعله يريد أنه مما أنشده أبو عمرو . يقول : استيقظت هذه المرأة قبل أن ينكشف الليل عن الصبح . توقظني حين هبت عاذلتى تلومنى . قال فى اللسان : هجد (قال ابن بزرج : أهجدت الرجل : أنمته ، وهجده) بالتشديد أيقظته والصريم : الليل .

وقال أيضاً^(١) :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ الْعَجُونُ الْبَهِيمُ فَمَا يَنْجَابُ عَنْ صُبْحِ صَرِيمٍ

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ)

[٢٢] (أَنْ أَعْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ)

[٢٣] (فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ)

[٢٤] (أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ)

[٢٥] (وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ)

[٢٦] (فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ)

[٢٧] (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

« فتنادوا » أى فنادى بعضهم بعضاً « مُصْبِحِينَ » أى وقت الصبح ، ولم يشعروا

= وقال الفراء فى معانى القرآن (٣٣٩) فأصبحت كالصریم : أى احترقت ، فصارت سوداء مثل الليل السوداء . وفى اللسان (صرم) عن ثعلب : فأصبحت كالصریم أى احترقت فصارت سوداء مثل الليل اه . ويقال : كالشئء المصروم ، الذى ذهب ما فيه . وقيل : الصریم أرض سوداء لا تنبت شيئاً . وقال الجوهري : أى احترقت واسودت (حاشية ابن جرير) .

(١) الجون : الأسود . والبهيم : الخالص السواد ، لا بياض فيه . وينجاب : ينكشف ويزول . وصریم : أى ليل .

وهذا الشاهد فى معنى الشاهد الذى قبله ، وهو أن الصریم بمعنى الليل الشديد السواد (حاشية ابن جرير) .

بما جرى عليهم بالليل « أَنْ أَعْدُوا » أى اخرجوا غدوة « عَلَى حَرِّكُمْ » أى زرعكم « إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ » أى قاصدين قطع ثمارها ، وقد قطعها البلاء من أصلها « فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ » أى يكتمون ذهابهم ويتسارون فيما بينهم « أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ » أى فقير . فالجملة مفسرة . أو (أن) مصدرية . أى بأن .

قال الزمخشري : والنهي عن الدخول للمسكين ، نهى لهم عن تمكينه منه . أى لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل . كقولك : لا أرينك ههنا .

« وَاعْدُوا عَلَى حَرِّ » أى غدوا إلى جنتهم ، على نشاط وسرعة وجِدٍّ من أمرهم ، أو على منع وغضب « قَدَرِينَ » أى فى زعمهم على ما أصروا عليه من الصرام وحرمان المساكين . « فَلَمَّا رَأَوْهَا » أى فلما صاروا إليها ، ورأوها محترقا حرثها « قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » أى أنكروها وشكوا فيها . هل هى جنتهم أم لا . فقال بعضهم لأصحابه : ظنا منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم وأن التى رأوها غيرها : إنا ، أيها القوم ، لضالون طريق جنتنا ! فقال من علم أنها جنتهم ، وأنهم لم يخطئوا الطريق : بل نحن ، أيها القوم ، محرومون ، حرمانا منعمة جنتنا بذهاب حرثها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ)

[٢٩] (قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

[٣٠] (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ)

[٣١] (قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

[٣٢] (عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ)

« قَالَ أَوْسَطُهُمْ » أى أعدهم وخيرهم رأيا « أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ » أى :

تذكرون الله وتوبون إليه من خبث نيتكم ، وتخشون انتقامه من المجرمين . وكان أوسطهم وعظهم حين عزموا على عزيمتهم الخبيثة ، فعصوه ، فعيرهم . « قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى فى ترك استثناء حق المساكين ، ومنع المعروف عنهم من تلك الجنة « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْنَ « أَى يُلوم بعضهم بعضاً . « قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى متجاوزين حدود الله تعالى فى تفریطنا وعزمنا السيئ « عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا » أى بتوبتنا إليه ، وندمنا على خطأ فعلنا ، وعزمنا على عدم العود إلى مثله . « إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ » أى فى العفو عما فرط منا ، والتعويض عما فاتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ، وَلَٰعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

« كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ » أى فى الدنيا لمن خالف الرسل ، وكفر بالحق ، وبنى الفساد فى الأرض . « وَلَٰعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ » أى أعظم منه « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » أى لارتدعوا وتابوا وأنابوا . فالجواب مقدر . قال الشهاب : لأنه ليس قيلاً لما قبله ، إذ لا مدخلية لعلمهم فى كون العذاب أكبر .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : قال ابن الفرس : استدلل بهذه القصة عبد الوهاب على أن من فرّ من الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط ، فإن ذلك لا يسقطها . ووجه ذلك : أنهم قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين ، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم . وفيها كراهة الجذاذ والحصاد بالليل ، كما ورد التصريح بالنهى عنه فى الحديث ، لأجل الفقراء .

هذا ، وحكى الزنخشري عن قتادة أنه سئل عن أصحاب الجنة : أهم من أصحاب الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتنى تعباً .

وعن مجاهد : تابوا فأبدلوا خيراً منها - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٣٤] (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ)
 [٣٥] (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)
 [٣٦] (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)
 [٣٧] (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ)
 [٣٨] (إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ)
 [٣٩] (أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ)
 [٤٠] (سَلَامٌ أَيْسُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ)
 [٤١] (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَاتُونَا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)
 [٤٢] (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)
 [٤٣] (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ)

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ » أى فى الكرامة والثوبة الحسنى ، والعاقبة الحميدة . « مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » أى بما ينبو عنه العقل السليم ، فإنهما لا يستويان فى قضيته . « أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ » أى من الأمور لأتقسكم ، وتشتهونه لكم ، كقوله (١) : (أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ) وهذا توبيخ لهم وتقريع فيما كانوا يقولون من الباطل ،

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٠] .

وَيَتَمَنُونَ مِنَ الْأَمَانِي السَّكَاذِبَةِ «أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَاءً تَحْكُمُونَ» أى تقضون من أمانيتكم ومزاعمكم .

قال الزمخشري : يقال : لفلان على يمين بكذا ، إذا ضمنته منه ، وحلفت له على الوفاء به .
يعنى : أم ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغالطة متناهية فى التوكيد . (إنَّ لكم لما تحكمون)
جواب القسم ، لأن معنى (أم لكم أيمان علينا) أم أقسمنا لكم . فد (بالغة) - كما قال
الشهاب - معناه المراد منه ، متناهية فى التوكيد . وأصله بالغة أقصى ما يمكن ، تخذف منه
اختصاراً ، وشاع فى هذا المعنى .

« سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ » أى : الحكم « زَعِيمٌ » أى كفيل به ، يدعيه ويصححه .
« أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ » أى ناس يشاركونهم فى هذا الزعم ، ويوافقونهم عليه . « قَلِيلًا تَوَّأَ
بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » أى : فى دعواهم .

قال الزمخشري : يعنى أن أحدا لا يسلم لهم بهذا ، ولا يساعدهم عليه ، كما أنه لا كتاب
لهم ينطق به ، ولا عهد به عند الله ، ولا زعيم لهم يقوم به . ففيه تنبيه على نفي جميع ما يمكن أن
يتشبثوا به من عقل أو نقل .

« يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » قال ابن عباس : أى عن أمر شديد مفض من هول يوم
القيامة . ألا تسمع العرب تقول : شالت الحرب عن ساق ؟ - رواه ابن جرير (١) .

« وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ » أى لما أحاط بهم من العذاب الهائل الحائل .
« خَاشِعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ » أى : تغشاهم ذلة العصيان السالف لهم . « وَقَدْ
كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ » أى : لآمانع يمنهم منه . والمراد من
السجود : عبادة الله وحده ، وإسلام الوجه له ، والعمل بما أمر به من الصالحات .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيه :

ما أثرناه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى (عَنْ سَاقٍ) هو المعنى الظاهر المناسب للتهويل المطرد فى توصيف ذلك اليوم . فى أمثال هذه الآية ، وعليه اقتصر الزمخشري ، وعبارته : الكشف عن الساق ، والإبداء عن الخدام ، مَثَلٌ فى شدة الأمر ، وصعوبة الخطب . وأصله فى الروع والهزيمة ، وتشمير الخدرات عن سوقهن فى الحرب ، وإبداء خدامهن عند ذلك . قال حاتم (١) :

أخو الحرب ، إن عَصَّتْ به الحربُ عَضَّهَا وإن شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا الحربُ شَمَرًا
وقال ابن الرقيات (٢) :

تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ ، وَتُبْدِي عَنْ خِدَامِ الْعَقِيلَةِ الْعِذَاءَ
وجاءت منكّرة للدلالة على أنه أمر مبهم فى الشدة ، منكّر خارج عن المألوف كقوله (٣) :
(يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكُرَ) ، كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل .

(١) من قصيدته التى مطلعها :

حَنَنْتُ إِلَى الْأَجْبَالِ ، أَجْبَالِ طِيٍّ وَحَنَنْتُ قَلُوضِي أَنْ رَأَتْ سَوَاطِ أَحْمَرًا
ص ٦٧ من الديوان .

(٢) فى الديوان : * عَنْ بُرَاهَا الْعَقِيلَةِ الْعِذَاءَ *

والبيت من قصيدته التى مطلعها :

أَقْفَرْتُ بَعْدَ عَبْدِ شَمْسٍ كُدَاءً فَكُدَيْتُ فَالْرُكْنُ فَالْبَطْحَاءُ
كُدَاءٌ : جبل بمكة وهو عرفة . كُدَيْتُ : جبل قريب منه . الركن : هو الركن اليماني ، ركن البيت الحرام . البطحاء : مكة (الديوان ص ٨٧) .

وقال شارح شواهد الكشف : إنما خص الشيخ لوفور عقله وممارسته الشدائد ، وإما لفطر محبته للأولاد . والخدمة : الخلخال . والعقيلة من النساء التى عقلت فى بيتها ، أى خدرت وحبست . وعقيلة كل شيء أكرمه . ورفع الشعواء فى البيت قبله ، وخفض العذراء ، إقواء . يتساهل الشعراء فيه . (٣) [٥٤ / القمر / ٦] .

وقال أبو سعيد الضرير : أى يوم يكشف عن أصل الأمر . وساق الشيء : أصله الذى به قوامه ، كساق الشجر وساق الإنسان . أى : تظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها . فالساق بمعنى أصل الأمر ، وحقيقته . استمارة من ساق الشجر ، وفى (الكشف) تجوز آخر ، أو هو ترشيح له .

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله فى (الفصل) : ماصح عن النبي ﷺ عن يوم القيامة أن الله عز وجل يكشف عن ساقه ، فيخرجون سجداً . فهذا كما قال الله عز وجل فى القرآن : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ) . وإنما هو إخبار عن شدة الأمر ، وهول الموقف ، كما تقول العرب : قد شمرت الحرب عن ساقها . قال جرير (١) :

ألا رب ساعى الطرف من آل مازن إذا شمرت عن ساقها الحرب شمرًا
والعجب ممن ينكر هذه الأخبار الصحاح . وإنما جاءت بما جاء به القرآن نصاً . ولكن من ضاق علمه أنكر ما لا علم له به . وقد عاب الله هذا فقال (٢) (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) انتهى .

هذا وقد ذهب أبو مسلم الأصفهاني إلى أن الآية وعيد دنيوى للمشركين ، لا أخرى . قال : إنه لا يمكن حمله على يوم القيامة ، لأنه تعالى قال فى وصف هذا اليوم (٣) : (وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ) ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه : إما آخر أيام الرجل فى دنياه ، كقوله تعالى (٤) : (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ) ثم إنه يرى الناس يدعون

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لمن رسم دارهم أن يتغيرا تراوحه الأرواح والقطر أعصرًا

أى أن القطر يتراوحه مرة ، والرياح تراوحه أخرى . والأعصر : الدهور (شرح

ديوان جرير ص ٢٤٠) . (٢) [١٠ / يونس / ٣٩] .

(٣) [٦٨ / القلم / ٤٢] . (٤) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] .

إلى الصلوات إذا حضرت أوقاتها ، وهو لا يستطيع الصلاة ، لأنه الوقت الذى لا ينفع نفساً إيمانها . وإما حال الهرم والمرض والعجز . وقد كانوا قبل ذلك يدعون إلى السجود ، وهم سالمون مما بهم الآن ، إما من الشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت ، أو من العجز والهرم . ونظير هذه الآية قوله ^(١) (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ) انتهى .

قال الرازى : واعلم أنه لا نزاع فى أنه يمكن حمل اللفظ على ما قاله أبو مسلم . فأما قوله إنه لا يمكن حمله على القيامة ، بسبب أن الأمر بالسجود حاصل ههنا ، والتكاليف زائلة يوم القيامة ، فجوابه : أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقريع والتخجيل ، فلم قلتم إن ذلك غير جائز ؟

ثم تأثر تعالى تخويفهم بمعظمة يوم القيامة ، بترهيبهم بما عنده وفى قدرته ، من القهر ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

« فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ » أى كله إلى فإنى أكفيكه ، وهذا من بليغ الكناية . كأنه يقول : حسبك انتقاماً منه ، أن تسكل أمره إلى ، وتحل بينى وبينه ، فإنى عالم بما يجب أن يفعل به ، قادر على ذلك . « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنكيدهم بالإمهال وإدامة الصحة ، وزيادة النعم ، من حيث لا يعلمون أنه استدراج ، وسبب لهلاكهم . يقال : استدرجه إلى كذا ، أى : استنزه إليه درجة فدرجة ، حتى يورطه فيه .

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَأْمِلْ لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

« وَأْمِلْ لَهُمْ » أى أمهلهم وأنسى في آجالهم ملاوة من الزمان ، لتكمل حجة الله عليهم . « إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » أى كيدى بأهل الكفر شديد قوى .

قال الزمخشري : الصحة والرزق والمدة في العمر ، إحسان من الله وإفضال ، يوجب عليهم الشكر والطاعة ، ولكنهم يجعلونه سبباً في الكفر باختيارهم . فلما تدرجوا به إلى الهلاك ، وصف النعم بالاستدراج . وقيل : كم من مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه . وسعى إحسانه وتمكينه (كيداً) ، كما سماه استدراجاً ، لكونه في صورة الكيد ، حيث كان سبباً للتورط في الهلكة . ووصفه بالمثانة لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ)

[٤٧] (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ)

« أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا » أى على ما أتيتهم به من النصيحة ، ودعوتهم إليه من الحق . « فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ » أى من عزة ذلك الأجر مثقلون . أى أثقلهم الأداء ، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك ، وتجنبوا الدخول فيا دعوتهم إليه . والمعنى : لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً ، فيثقل عليهم حمله حتى يثبطهم عن الإيمان . « أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ » أى منه ما يحكمون به ، فيجادلونك بما فيه ، ويزعمون أنهم على كفرهم برهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به ، وأنهم مستغنون عن وحيه وتنزيله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ)

[٤٩] (لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُوْا نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)

[٥٠] (فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَفَجَعَلَهُ مِّنَ الصَّالِحِينَ)

« فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » وهو إمامهم ، وتأخير ظهورك عليهم . أى لا يثنيك ، عن تبليغ ما أمرت به ، أذاهم وتكذيبهم ، بل امض صابراً عليه « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ » يعنى : يونس عليه السلام « إِذْ نَادَىٰ » أى دعا ربه فى بطن الحوت « وَهُوَ مَكْظُومٌ » أى مملوء غيظاً وغماً . والمعنى : لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والوئى عن التبليغ ، فتبتلى ببلائه « لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُوْا نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ » وهو قبول توبته ورحمته ، تضرعه وابتهاله « لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ » قال الزمخشري : يعنى أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ بالعراء ، ولولا توبته لكانت حاله على الذم . والعراء : الفضاء من الأرض .

« فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ » أى برحمته . قال القاشانى : لمكان سلامة فطرته ، وبقاء نور استعدادده ، وعدم رسوخ الهياة الغضبية ، والتوبة عن فرطات النفس ، فقربه تعالى إليه « فَجَعَلَهُ مِّنَ الصَّالِحِينَ » أى لمقام العبوة والرسالة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)

[٥٢] (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

« وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ » قال الزمخشري : يعنى أنهم

من شدة تحديقهم ، ونظرهم إليك شزراً ، بعيون العداوة والبغضاء ، يكادون يُزَلُّون قدمك ، أو يهلكونك . من قولهم (نظر إلى نظراً يكاد يصرعني ، ويكاد يأكلني) أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل ، لفعله . قال (١) :

يتقارضون ، إذا التقوا في موطن ، نظراً يُزَلُّ مواطئ الأقدام
وأُشد ابن عباس - وقد مرّ بأقوام حددوا النظر إليه - :

نظروا إلى بآعين محمرة نظر التيوس إلى شِفَارِ الجازِرِ
وبينهم تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم في حال قراءة النبي ﷺ للقرآن ، وهو قوله تعالى : « لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ » أى القرآن ، معادة لحكمته . « وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ »
أى من الهذيان الذى يهذى به في جنونه ، لعدم تمالك أنفسهم من الحسد منه ، والتنفير عنه .
« وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أى عظة وحكمة وتذكير وتنبية لهم ، على ما في عقولهم وفطرتهم من التوحيد . فكيف يجنّ من جاء بمثله ؟ - وبالله التوفيق - .

(١) قال شارح شواهد الكشاف :

كل أمر به يتجازى الناس فهو قرض . وهما يتقارضان الثناء ، أى كل واحد منهما
يثنى على صاحبه .

يقول : إذا التقوا في موطن ينظر كل واحد منهم إلى الآخر نظر حسد وحنق ، حتى
يكاد يصرعه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٩ - سُورَةُ الْحَاقَّةِ

مكية . وآياتها إحدى وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْحَاقَّةُ)

[٢] (مَا الْحَاقَّةُ)

[٣] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)

« الْحَاقَّةُ » أى الساعة الحاقة التى تحق فيها الأمور ، ويجب فيها الجزاء على الأعمال . من قولهم : حق عليه الشئ ، إذا وجب . وقوله : « مَا الْحَاقَّةُ » من وضع الظاهر موضع المضمرة ، تفخيماً لشأنها ، وتعظيماً لهولها . « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ » قال بعضهم : من عوائد العرب فى محاوراتهم اللطيفة ، إذا أرادوا تشويق المخاطب فى معرفة شئ ودرايته ، أنوآ بإجمال وتفصيل . أى : أى شئ أعلم المخاطب ماهى ؟ تأ كيداً لتفخيم شأنها ، حتى كأنها خرجت عن دائرة علم المخاطب . على معنى : أن عظم شأنها ، وما اشتملت عليه من الأوصاف ، مما لم تبلغه دراية أحد من المخاطبين ، ولم تصل إليه معرفة أحد من السامعين ، ولا أدركه وهمه ، وكيفها قدر حالها ، فهى وراء ذلك وأعظم . ومنه يعلم أن الاستفهام كناية عن لازمه ، من أنها لاتعلم ، ولا يصل إليها دراية دار ، ولا تبلغها الأفكار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَى)

[٥] (فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَاهُ وَأَسْلَمَ)

[٦] (وَأَمَّا عَادُ فَهَبَّ أَعْيُنَهُمْ فَانظُرُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي كَانُوا يُسْتَكْبَرُونَ)

[٧] (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَیْنَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا

صَرَغِي كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَحْلِ خَاوِيَةٍ)

[٨] (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ)

« كَذَبْتَ ثُمُودُ وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ » أى بالساعة التى تفرق الناس بأهوالها وهجومها عليهم . قال الزمخشري : ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع فى الحاقة ، زيادة فى وصف شدتها . ولما ذكرها ونخمها ، أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها ، وما حل بهم بسبب التكذيب ، تذكيراً لأهل مكة ، ونحوها لهم من عاقبة تكذيبهم .

« فَأَمَّا ثُمُودُ » وهم قوم صالح عليه السلام « فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ » أى بالواقعة المجاوزة للحد فى الشدة ، أو بطغيانهم . و (الطاغية) مصدر كالعافية .

« وَأَمَّا عَادُ » وهم قوم هود عليه السلام « فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ » أى : شديدة العصف والبرد . « عَارِيَّةٌ » أى : متجاوزة الحد المعروف فى الهبوب والبرودة .

« سَخَّرَهَا » أى : سلطها « عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَیْنَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » أى متتابعات من (حسمت الدابة) ، إذا تابعت بين كتيها . شبه تتابع الريح المستأصلة بتتابع السكى القاطع للداء . أو معناه : نحسات ، حسمت كل خير واستأصلته . أو قاطعات ، قطعت دابرهم . هذا

على أن (حُسُومًا) جمع حاسم ، كشهود وقمود . فإن كان مصدراً فنصبه بمضمر . أى تحسم حُسُومًا ، أو بأنه مفعول له . أى سخرها عليهم للحسوم ، أى الاستئصال . وقد قيل : إن تلك الأيام هى أيام المعجز . والعامية تقول : (المعجوز) وهى التى تكون فى عجز الشتاء ، أى آخره .

« فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغِي » أى هلكى ، جمع صريع « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَحْلِ خَاوِيَةٍ » أى ساقطة مجتمعة من أصولها كآية^(١) : (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَحْلِ مُنْقَمِرٍ)

« فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ » أى : بقاء . أو نفس باقية ، أو بقية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَةُ بِالْخَاطِئَةِ)

[١٠] (فَمَصَّوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً)

[١١] (إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)

[١٢] (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ)

« وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ » أى : من الأمم المكذبة ، كقوم نوح وعاد وثمود « وَالْمُؤْتَفِكَةُ » وهى قرى قوم لوط « بِالْخَاطِئَةِ » أى : بالخطأ ، أو الأفعال الخاطئة ، على المجازى فى النسبة . « فَمَصَّوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً » أى : زائدة فى الشدة . « إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ » أى : كثر وتجاوز حده المعروف ، بسبب إصرار قوم نوح على الكفر والمعاصى ، وتكذيبه ، عليه السلام « حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ » أى السفينة التى تجرى فى الماء . قال ابن جرير^(١) : خاطب الذين نزل فىهم القرآن ، وإنما حمل أجدادهم نوحاً وولده ، لأن الذين خوطبوا بذلك ، ولد الذين حملوا فى الجارية ، فكان حمل الذين حملوا فيها من الأجداد ، حملاً لذريتهم .

« لِنَجْعَلَهَا » أى تلك الفعل التى هى إنجاء المؤمنين ، وإغراق الكافرين « لَكُمْ تَذْكِرَةً » أى : آية وعبرة تذكرون بها صدق وعده فى نصر رسله ، وتدمير أعدائه . « وَتَعِيَهَا » أى تحفظها « أُذُنٌ وَاعِيَةٌ » أى حافظة لما سمعت عن الله ، متفكرة فيه .

(١) انظر الصفحة رقم ٥٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ)

[١٤] (وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً)

[١٥] (فِيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ)

[١٦] (وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ)

[١٧] (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ)

« فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ » أى : لخراب العالم .

قال أبو السعود : هذا شروع في بيان نفس الحاقة ، وكيفية وقوعها ، إثر بيان عظم شأنها بإهلاك مكذبيها .

« وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً » أى : رفمتا وضربتتا ببعضهما

من شدة الزلازل . وفي توصيفها بالوحدة تعظيم لها ، وإشعار بأن المؤثر لك الأرض والجبال وخراب العالم ، هى وحدها ، غير محتاجة إلى أخرى .

« فِيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ » أى : نزلت النازلة ، وهى القيامة .

« وَاَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ » أى : انصدعت « فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ » متمزقة .

« وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا » أى : جوانبها وأطرافها حين تشقق . « وَيَحْمِلُ عَرْشَ

رَبِّكَ فَوْقَهُمْ » أى : فوق الملائكة الذين هم على أرجائها « يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ » أى : من الملائكة أو من صفوفها .

قال ابن كثير : يحتمل أن يكون المراد بهذا العرش (العرش العظيم) ، أو العرش الذى يوضع فى الأرض يوم القيامة ، لفصل القضاء ، - والله أعلم - انتهى .

ومثله ، من الغيوب التى يؤمن بها ، ولا يجب اكتنائها . وتقدم فى سورة الأعراف ،

في تفسير آية^(١) (ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) كلام لبعض علماء الفلك على هذه الآية، فتذكره .
 وذهب بعض منهم إلى أن المراد بالعرش ملكة تعالى للسموات والأرض ، وبـ (الثمانية)
 السموات السبع والأرض . وعبارته : (وَيَحْمِلُ) بالجذب (عَرْشَ رَبِّكَ) أى : ملك
 ربك للأرض والسموات (فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ) أى : فوق الملائكة الذين هم على أرجائها
 يوم القيامة ، (ثَمَنِيَّةٌ) أى : السموات السبع والأرض .

قال : وهذا يدل على أن (السبع) ليس للكثرة ، بل المراد به الحقيقة . فهم ثمانية
 يحملون العرش ، أى : ملك الأرض والسموات السبع بالجذب ، كما هو حاصل اليوم .
 ولكن ذلك يكون بشكل عظيم جدًا .

ثم قال : ولا وجه لمعرض يقول : إن حملة العرش مسبحة ، لقوله تعالى^(٢) : (الَّذِينَ
 يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) فكيف تسبح السموات والأرض؟
 لأنه يجب بقوله تعالى^(٣) : (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) . اهـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

[١٩] (فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ)

[٢٠] (إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلْكٌ حِسَابِيهِ)

[٢١] (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ)

[٢٢] (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)

[٢٣] (قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

[٢٤] (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(١) [٧ / الأعراف / ٥٤] . (٢) [٤٠ / غافر / ٧] . (٣) [١٧ / الإسراء / ٤٤] .

« يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ » أى : على ربكم للحساب والمجازاة « لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ »
أى سريرة كانت تخفى فى الدنيا بستر الله .

« فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَبَيِّنَاتٍ » أى : علامة لفوزه « فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا
كِتَابِي » أى : تعالوا ، أو خذوا . والهاء للسكت ، لا ضمير غيبة .

قال الشهاب : فحقها أن تحذف وصلا ، وتثبت وقفاً ، لتصان حركة الموقف عليه ،
فإذا وصل استغنى عنها . ومنهم من أثبتها فى الوصل لإجرائه مجرى الوقف ، أو لأنه وصل
بنية الوقف . وإثباتها وصلاً قراءة صحيحة ، ولا يلتفت لقول بعض النحاة : إنها لحن .

« إِنِّي ظَنَنْتُ » أى : علمت « أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَّ » أى جزأى يوم القيامة . أى :
فأعددت له عذته من الإيمان والعمل الصالح .

« فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » أى : ذات رضا ، ملتبسة به ، فيكون بمعنى (مرضية) .
أو الأصل : راض صاحبها ، فأسند الرضا إليها ، لجعلها ، لخلوصها عن الشوائب ، كأنها
نفسها راضية مجازاً . ويجوز أن يكون فيه استعارة مكنية وتخييلية ، كما فصل فى (المطول) .
« فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا » جمع قِطْف بكسر القاف ، وهو ما يقطف من ثمرها
« دَانِيَةٍ » أى قريبة سهلة التناول .

« كُلُوا » أى : يقال لهم كلوا « وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ »
أى : الماضية فى الحياة الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيْهِ)

[٢٦] (وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيْهِ)

[٢٧] (يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ)

[٢٨] (مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيْهِ)

[٢٩] هَلَّاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ

[٣٠] خُذُوهُ فَغُلُّوهُ

[٣١] ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ

[٣٢] ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ

[٣٣] إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ

[٣٤] وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ

[٣٥] فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ

[٣٦] وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غِسْلِينٍ

[٣٧] لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ

« وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَبِشْمًا لَهُ فَيَقُولُ « أَيْ : عندما يلاق العذاب « يَلَيْتَنِي

لَمْ أُوْتِ كِتَابِيهِ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ » أَيْ : أَيْ شَيْءٍ حَسَابِي .

« يَلَيْتَنِيهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ » قال ابن جرير^(١) : أَيْ ياليت الموتة التي مَثَّهَا فِي الدُّنْيَا

كَانَتْ هِيَ الْفَرَاغُ مِنْ كُلِّ مَا بَعْدَهَا ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَهَا حَيَاةٌ وَلَا بَعْثٌ . وَ (الْقَضَاءُ) هُوَ الْفَرَاغُ .

وَقِيلَ : إِنَّهُ تَمَنَّى الْمَوْتَ الَّذِي يَقْضَى عَلَيْهِ ، فَتَخْرُجُ مِنْهُ نَفْسُهُ .

« مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَا لِي بِهِ » أَيْ : مَا دَفَعَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئًا .

« هَلَّاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ » أَيْ مَلَكَ وَتَسَلَّطَى عَلَى النَّاسِ . أَوْ حُجَّتِي ، فَلَا حُجَّةَ لِي

أَحْتَجُّ بِهَا .

« خُذُوهُ » أَيْ : يُقَالُ لَخَزَنَةِ النَّارِ : خُذُوهُ بِالْقَهْرِ وَالشَّدَّةِ « فَغُلُّوهُ » أَيْ : ضَمُّوْا يَدَهُ

إِلَى عَقْفِهِ ، إِذْ لَمْ يَشْكُرْ مَا مَلَكَتَهُ .

(١) انظر الصفحة رقم ٦٢ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« ثُمَّ أُنْجِجَ صَلَوُهُ » أى : أدخلوه ليصلى فيها ، لأنه لم يشكر شيئاً من النعم ، فأذيقوه شدائد النقم .

ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ « أى حلقة منتظمة بأخرى ، وهى بثالثة ، وهلم جرا .
« ذَرُعُهَا » أى : مقدارها « سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَأَسْلُكُوهُ » فأدخلوه فيها . أى : لقوه بها ، بحيث يكون فيما بين حلقتها مرهقاً ، لا يقدر على حركة .

قال القاشانى : والسبعون فى العرف عبارة عن الكثرة غير المحصورة ، لا العدد المعين ثم علل استحقاقه ذلك ، على طريقة الاستئناف ، بقوله : « إِنَّهُ وَكَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ » أى : المستحق للعظمة وحده ، بل كان يشرك معه الجاد المهيمن .

« وَلَا يَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ » أى : إطعامه ، فضلاً عن بذله ، لتناهى شحّه .
« فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنًا حَمِيمٌ » أى : قريب تأخذه الحمية له .
« وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ » أى : من غسالة أهل النار وصديدهم .

قال ابن جرير (١) : كان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول : كل جرح غسلته فخرج منه شيء فهو (غسلين) - فعلين - من الغسل من الجراح والدبر ، وزيد فيه الياء والنون بمنزلة عفرين .

« لَا يَأْكُلُهُو إِلَّا الْخَاطِطُونَ » أى . الآثمون ، أصحاب الخطايا . يقال : خطى الرجل ، إذا تعمد الخطأ . قال الرازى : الطعام ما هيئ للأكّل . فلما هيئ الصيد ليأكله أهل النار كان طعاماً لهم . ويجوز أن يكون المعنى أن ذلك أقيم مقام الطعام ، فسمى طعاماً . كما قال (٢) :
* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ *

(١) انظر الصفحة رقم ٦٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) صدره : * وَخِيلٌ قَدْ دَلَقَتْ لَهَا بَخِيلٍ *

وقائله عمرو بن معدى كرب (نوادر أبى زيد ص ١٤٩) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ)

[٣٩] (وَمَا لَا تُبْصِرُونَ)

[٤٠] (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)

[٤١] (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ)

[٤٢] (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

[٤٣] (تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ » أى : بالمشاهدات والمغيبات . وهذا القسم - كما قال الرازى - يعم جميع الأشياء على الشمول ، لأنها لا تخرج من قسمين : مبصر وغير مبصر ، فشمع الخالق والخلق ، والدنيا والآخرة ، والعالم العلوى والسفلى ، وهكذا . وتقدم فى (الواقعة) الكلام على كلمة (لا أقسم) فتذكر .

« إِنَّهُ » أى : القرآن « لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » وهو محمد ﷺ ، يبلغه عن الله تعالى ، لأن الرسول لا يبلغ عن نفسه .

« وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ » أى : كما تزعمون ، فإن بين أسلوبه وحقائقه ، وبين وزن الشعلة وخيالاته ، بعد المشرقين .

« قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ » . تصدقون بما ظهر صدقه وبرهانه ، عناداً وعتوًّا . والقلة كناية عن النفي والعدم . ونصب (قَلِيلًا) على أنه نعت لمصدر ، أو زمان مقدر . أى إيماناً وزماناً . والناصب (تُوْمِنُونَ) أو (تَذَكَّرُونَ) . و (مَا) زائدة - هذا ما قاله ابن عادل - وقال ابن عطية : يحتمل أن تكون نافية ومصدرية .

« وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ » أى كما تدعون أخرى بأنه من سجع الكهان « قَلِيلًا »

مَا تَذَكَّرُونَ» أى تتعظون وتعتبرون . قيل : نفى الإيمان فى الأول ، والدكرى فى الثانى ، لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بين ، لا ينكره إلا معاند . فلا عذر لقائله فى ترك الإيمان ، وهو أكفر من حمار . وأما مباينته للكهانة ، فيتوقف على تذكر ما ، لأن الكاهن يأخذ جُملاً ، ويجب عما سئل عنه ، ويتكلف السجع ، ويكذب كثيراً ، وإن التبس على الحق لإخباره عن بعض المغيبات بكلام منشور ، فتأمل .

« تَزِيلُ » أى هو تنزيل « مِنْ رَبِّ أَلْمِمينَ » أى ممن رباهم بصنوف نعمه ، ومنها ما نزله وأوحاه ليهتدوا به إلى سبل السعادة ، ومناهج الفلاح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ)

[٤٥] (لَا خِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)

[٤٦] (ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)

[٤٧] (فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

« وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ » أى افترى علينا . وسمى الكذب تقوُّلاً ، لأنه قول متكلف ، كما تشعر به صيغة التفعُّل . و (الْأَقَاوِيلِ) إما جمع (قول) على غير القياس ، أو جمع الجمع كالأنعام ، جمع أقوال وأنعام . قيل : تسمية الأقوال المقترة (أقاويل) تحقيراً لها ، كأنها جمع أفعولة من القول ، كالأضاحيك .

« لَا خِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ » قال ابن جرير^(١) : أى لا خذنا منه بالقوة منا والقدرة ، ثم لقطعنا منه نياط القلب . وإنما يعنى بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة ، ولا يؤخره بها . وقد قيل : إن معنى قوله (لَا خِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) لا خذنا منه باليد اليمنى

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

من يديه . قال : وإنما ذلك كقول ذى السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه لبعض أعوانه : خذ بيده ، فألقه ، وافعل به كذا وكذا : قالوا : وكذلك معنى قوله (لَا خَذَنَّا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) أى لَا هَنَاءُ . كالذى يفعل بالذى وصفنا حاله . انتهى .

وقال الزمخشري : المعنى لو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً ، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم ، معاملة بالسخط والانتقام . فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول . وهو أن يؤخذ بيده ، وتضرب رقبتة . وخص اليمين عن اليسار ، لأن القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه في جيده ، وأن يكفحه بالسيف ، وهو أشد على المصور ، لنظره إلى السيف ، أخذ بيمينه . فعنى (لَا خَذَنَّا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) لأخذنا بيمينه . كما أن قوله (لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) لقطعنا وتينه ، وهذا بين . انتهى .

وما قرره الزمخشري أبلغ في المراد ، وهو بيان المعاقبة بأشد العقوبة ، إذ على الأول يفوت التصوير والتفصيل والإجمال ، لأن قوله (بِالْيَمِينِ) بعد (لَا خَذَنَّا مِنْهُ) بيان بعد الإبهام ، ويصير قوله (مِنْهُ) زائداً من غير فائدة ، ويرتكب المجاز من غير فائدة أيضاً - كما في (العناية) - .

«فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ» أى ليس أحد منكم يحجزنا عنه ، ويحول بيننا وبين عقوبته ، لو تَقَوَّلَ علينا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَإِنَّهُ لَتَذَكَّرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

[٤٩] (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ)

[٥٠] (وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[٥١] (وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ)

[٥٢] (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

« وَإِنَّهُ » أى القرآن « لَتَذَكُّرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ » أى عظة لمن يتقى عقاب الله بالإيمان به وحده ، وما نزل من عنده . « وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ » أى له ، إشاراً للدنيا والهوى . أى فنجازيكم على إعراضكم . « وَإِنَّهُ وَلِحَسْرَةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » أى ندامة عليهم ، إذا رأوا ثواب المؤمنين به . « وَإِنَّهُ وَلِحَقِّ الْيَقِينِ » أى للحق اليقين الذى لا ريب فيه . « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » أى دُم على ذكر اسمه ، وادأب على الدعوة إليه وحده ، وإلى ما أوحاه إليك . فالماقبة لك ، ولن اتبعك من المؤمنين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٠ - سورة المعارج

وتسمى سورة « سَأَلَ سَائِلٌ » . وهى مكية . وآيها أربع وأربعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

[١] (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

[٢] (لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ)

[٣] (مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ)

« سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ » قال مجاهد: أى دعا داعٍ بعذاب يقع في الآخرة، وهو قولهم ^(١) (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) . والسائل هو النضر بن الحارث بن كلدة - فيما رواه النسائي عن ابن عباس - وقد قيل: إن الموعود بوقوعه عذاب الدنيا . وقد قتل النضر ببدر، ففي الآية إخبار عن مغيب وقع مصداقه . و (لِلْكَافِرِينَ) صفة ثانية لـ (عَذَابٍ) ، أو صلة لـ (واقع) . واللام للتعليل، أو بمعنى (على) . « لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِّنَ اللَّهِ » أى رادّ يردّه من جهته، لتعلق إرادته به . وهذا كقوله تعالى ^(٢) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) .

وقوله تعالى « ذِي الْمَعَارِجِ » قال الرازي: الماعز جمع معرج، وهو المصعد . ومنه قوله تعالى ^(٣) (وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) . والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً :

أحدها - قال ابن عباس في رواية: أى ذى السموات . وسماها معارج لأن الملائكة يمرجون فيها .

(١) [٨ / الأتفال / ٣٢] .

(٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٣٣] .

وثانيها - قال قتادة : ذى الفواضل والنعم . وذلك لأن لأياديه ووجوده إنعامه مراتب ،
وهي تصل إلى الناس على مراتب مختلفة .

وثالثها - أن الماعز هي الدرجات التي يعطيها أولياءه في الجنة . وقوله تعالى :
القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)
« تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »
قال ابن جرير^(١) : أى تصعد الملائكة والروح ، وهو جبريل ، إليه عز وجل ، في يوم
كان مقدار صعودهم ذلك ، في يوم لغيرهم من الخلق ، خمسين ألف سنة . وذلك أنها تصعد
من منتهى أسفل الأرض ، إلى منتهى أمره من فوق السموات السبع .
وقيل : بل معناه تعرج الملائكة والروح إليه في يوم يفرغ فيه من القضاء بين خلقه ،
كان قدر ذلك اليوم الذى فرغ فيه من القضاء بينهم قدر خمسين ألف سنة .
وقد قيل : إن (في يوم) متعلق بـ (واقع) . والمراد به يوم القيامة .
فمن ابن عباس : هو يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة .
والمقدار المذكور إما حقيقى ، أو مجاز عن الاستطالة .
قال الشهاب : وهكذا زمان كل شدة ، كما قيل :

تَمْتَعُ بِأَيَّامِ السَّرُورِ ، فَإِنَّهَا قِصَارٌ ، وَأَيَّامُ الْغُمُومِ طَوَالٌ

ونقل الرازى عن أبى مسلم أن هذا اليوم هو يوم الدنيا كلها ، من أول ما خلق الله إلى
آخر الفناء . فبين تعالى أنه لا بد في يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم ، وهذا اليوم مقدر
بخمسين ألف سنة . ثم لا يلزم على هذا أن يصير وقت القيامة معلوما ، لأننا لا ندري كم
مضى وكم بقى . انتهى . وهو بعيد ، وهذه الآية كآية^(٢) (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنْ

(١) انظر الصفحة رقم ٧٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٢ / السجدة / ٥] .

السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) ولا منافاة في التقدير ، لأن المعنى به الاستطالة ، لشدة على الكفار ، أو لكثرة ما فيه من الحالات والمحاسبات . والقرآن يفسر بعضه بعضاً - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا)

[٦] (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ وَبَعِيدًا)

[٧] (وَنَرَاهُ قَرِيبًا)

[٨] (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ)

[٩] (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ)

[١٠] (وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا)

[١١] (يُبْصَرُونَهُمْ ، يَوْدُ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

[١٢] (وَصَاحِبَتُهُ وَأَخِيهِ)

[١٣] (وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ)

[١٤] (وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ)

« فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا » أى : على ما يقولون . ولا يضق صدرك ، فقد قرب الانتقام منهم .

« إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ وَبَعِيدًا » أى : العذاب الديوى أو الأخرى « بَعِيدًا » أى : وقوعه ، لعدم

إيمانهم بوعيده تعالى . « وَنَرَاهُ قَرِيبًا » أى قريب الحضور . « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ

كَالْمُهْلِ » أى كالشيء المذاب ، أو دردى الزيت . و(يوم) إمّاظف ل(قريباً) ، أو لمحذوف .

« وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ » أى : كالصوف .
 « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا » أى قريب قريباً عن شأنه ، لشغله بشأن نفسه .
 « يُبَصِّرُهُمْ » أى يعرفون أقباءهم ، ومع ذلك يفر بعضهم من بعض . وفيه تنبيه
 على أن المانع من هذا السؤال هو الاندهاش مما نزل ، لا احتجاج بعضهم من بعض .
 « يَوْمَ الْمُجْرِمِ » أى يتمنى الكافر « لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ » أى
 الذين هم محل شفقتة .
 « وَصَحِبَتِهِ » أى التى هى أحب إليه « وَأَخِيهِ » أى الذى يستعين به فى النوائب .
 « وَفَصِيلَتِهِ » أى عشيرته « أَلَّتْهُ تَسْوِيهِ » أى تضمه إليها عند الشدائد .
 « وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ » أى الافتداء . أو المذكور . أو من فى الأرض .
 عطف على (يفتدى) . و (ثم) للاستبعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْلَىٰ)

[١٦] (نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ)

[١٧] (تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ)

[١٨] (وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ)

« كَلَّا » أى لا يكون ذلك « إِنَّهَا » أى النار للوعود بها المجرم « لَأُظْلَىٰ » أى لهب
 خالص . « نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ » أى الأطراف ، كاليد والرجل . أو جمع (شواة) وهى جلدة
 الرأس . « تَدْعُوا » أى إلى صليتها « مَنْ أَدْبَرَ » أى عن الحق « وَتَوَلَّىٰ » أى عن الطاعة .
 « وَجَمَعَ » أى المال « فَأَوْعَىٰ » أى جعله فى وعاء وكثره ، ومنع حق الله منه ، فلم يتركه ،
 ولم ينفق فيما أوجب الله عليه إنفاقه فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

[٢٠] (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا)

[٢١] (وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

« إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا » أى قليل الصبر ، شديد الحرص ، كما بيّنه بقوله :
 « إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ » أى الضرّ والبلاء « جَزُوعًا » أى كثير الجزع من قلة صبره . « وَإِذَا
 مَسَّهُ الْخَيْرُ » أى كثر ماله ، وناله الغنى « مَنُوعًا » أى لما فى يده ، بخيل به ، لشدة حرصه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[٢٣] (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[٢٤] (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ)

[٢٥] (لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[٢٦] (وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ)

[٢٧] (وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)

[٢٨] (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ)

[٢٩] (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

[٣٠] (إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[٣١] (فَمَنْ أَبْشَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[٣٢] (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

[٣٣] (وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)

[٣٤] (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

[٣٥] (أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ)

« إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ » أى مقيمون ، لا يضيعون منها شيئاً . « وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » أى المتعفف الذى أدبرت عنه الدنيا ، فلا يسأل الناس . وقيل : الذى لا ينمى له مال . وقيل : المصاب ثمره ، أخذاً من قول أصحاب الجنة فى السورة قبل ^(١) (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) . واللفظ أعم من ذلك كله .

وقد روى ابن جرير عن ابن عمر أنه سئل عن الحق المعلوم أهو الزكاة ؟ فقال : إن عليك حقوقاً سوى ذلك .

ومثله عن ابن عباس قال : هو سوى الصدقة ، يصل بها رَحماً ، أو يقرى بها ضيفاً ، أو يحمل بها كلاً ، أو يعين بها محروماً .

وعن الشعبي : أن فى المال حقاً سوى الزكاة .

« وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الدِّينِ » أى الجزاء . « وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ » قال ابن جرير ^(٢) : أى وَرَجُلُونَ أَنْ يَعَذِّبَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، فهم من خشية ذلك لا يضيعون له فرضاً ، ولا يتعدون له حدّاً . « إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ » أى أن ينال من عصاه ، وخالف أمره . « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ » أى لغلبة ملكة الصبر ،

(١) [٦٨ / القلم / ٢٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وامتلاك ناصيته . « إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ أَتَّبَعَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ » قال ابن جرير^(١) : أى التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته ، أو ملك يمينه . . « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » أى الذين عدوا ما أحل الله لهم ، إلى ما حرمه عليهم . « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » قال ابن جرير^(١) : أى لأمانات الله التى ائتمنهم عليها من فرائضه ، وأمانات عباده التى ائتمنوا عليها ، وعهوده التى أخذها عليهم بطاعته فيما أمرهم به ونهاهم ، وعهود عباده التى أعطاهم ، على ما عقده لهم على نفسه راعون ، يرقبون ذلك ويحفظونه فلا يضيعونه . « وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ » أى لا يكتمون ما استشهدوا عليه ، ولكنهم يقومون بأدائها حيث يلزمهم أداؤها ، غير مغيرة ولا مبدلة . « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » أى لا يضيعون لها ميقاتاً ولا حداً . قيل : الحفظ عن الضياع ، استعير للإتمام والتكميل للأركان والهيئات . ولذا قال القاضى : وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخرًا ، باعتبارين : للدلالة على فضلها ، وإناقبتها على غيرها . « أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ » أى بثواب الله تعالى ، لاتصافهم بمكارم الأخلاق .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ)

[٣٧] (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ)

[٣٨] (أَيُّطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ)

[٣٩] (كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّ يَعْلَمُونَ)

«فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ» أى مسرعين للحضور ، ليظفروا بما يتخذونه هزواً .

وعن ابن زيد : (المهطع) الذى لا يطرف .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشِّمَالِ عَزِينَ » أى متفرقين حلقاً ومجالس ، جماعة جماعة ، معرضين عنك ، وعن كتاب الله . « أَبْطَمَعُ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ » أى ولم يتصف بصفات أهلها المنوة بها قبل . « كَلَّا » أى لا يكون ذلك ، لأنه طمع في غير مطمع . « إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ » أى من النطف . يعنى : ومن قدر على ذلك ، فلا يمجزه إهلاكمهم ، فليحذروا عاقبة البغى والفساد . ولذا قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ)

[٤١] (عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)

[٤٢] (فَذَرْنُهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ)

[٤٣] (يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفِضُونَ)

[٤٤] (خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ ، ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)

« فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ » يعنى مشرق كل يوم من السنة ومغربه ، أو مشرق كل كوكب ومغربه ، أو الأقطار التى تشرق فيها الشمس وتغرب . « إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين ، إن أردنا ذلك . « فَذَرْنُهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ » أى أخذهم فيه وهلاكهم . « يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفِضُونَ » أى يسرعون . و (النصب) الصنم المنصوب للعبادة ، أو العلم المنصوب على الطريق ليهتدى به السالك ، أو ما ينصب علامة لنزول الملك وسيره . فهم يسرعون إسراع عبدة الأصنام نحو صنمهم ، أو إسراع من ضل عن الطريق إلى أعلامها . أو إسراع الجند إلى راية الأمير . « خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ » أى من الخزي والهوان . « تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ » أى تغشاهم ذلة من هول ملاحق بهم . « ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ » أى بأنهم ملاقوه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧١ - سُورَةُ نُوحٍ

عليه السلام

قال المهايي: سميت به لاشتغالها على تفاصيل دعوته وأدعيته . وهي مكية . وآيها ثمان وعشرون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢] (قَالَ يَتَقَوَّمُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[٣] (أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا)

[٤] (يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » يعنى عذاب الطوفان « قَالَ يَتَقَوَّمُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » أى يعفو عنها . و (مِنْ) إما مزيدة ، أو تبعيضية . وهو ما وعدهم العقوبة عليها . وأما ما لم يعدهم العقوبة عليها ، فقد تقدم عفوه لهم عنها . أو هو ما سبق ، فإن الإسلام يجب ما قبله « وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو أقصى ما قدره بشرط الإيمان . أى فلا يماجلكم بمذاب غرق أو نحوه . « إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ » أى الذى كتبه على من كذب وتولى « إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من أهل الغم والنظر لَأَنْتُمْ .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٥] (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا)
 [٦] (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا)
 [٧] (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِيْٓ أَذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا
 ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا)
 [٨] (ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا)
 [٩] (ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا)
 [١٠] (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)
 [١١] (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)
 [١٢] (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَارًا)
 [١٣] (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا)
 [١٤] (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)

« قَالَ » أى نوح بعد أن بذل غاية الجهد ، وضافت عليه الحيل ، فى تلك المدد الطوال ،
 « رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي » أى إلى التوحيد والعمل الصالح « لَيْلًا وَنَهَارًا » أى دائماً بلا فتور
 ولا توان . « فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا » أى من الحق الذى أرسلتنى به « وَإِنِّي
 كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ » أى إلى الإيمان « لِتَغْفِرَ لَهُمْ » أى بسببه « جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِيْٓ أَذَانِهِمْ »
 أى سدوا مسامعهم من استماع الدعوة « وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ » أى تغطوا بها من كراهة النظر
 إلى وجه من ينصحبهم فى الدين « وَأَصْرُوا » أى على الشر والكفر « وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا »
 أى تعاظموا عن الإذعان للحق ، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة « ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ

جَهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَفْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا» أى دعوتهم مرة بعد مرة ، على وجوه متنوعة ، ما بين مجاهرة وإظهار بلا خفاء ، وما بين إعلان وصياح بهم ، وما بين إسرار فيما بيني وبينهم فى خفاء . وهذه المراتب أقصى ما يمكن للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . « فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى سلوه العفو عما سلف بالتوبة النصوح « إِنَّهُ وَكَانَ غَفَّارًا » أى لذنوب من تاب وأناب . « يُرْسِلِ السَّمَاءَ » أى المطر « عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا » أى متتابعاً . « وَيُعْذِرْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ » أى فيكثرها عندهم « وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا » أى لسقيا جناتكم ومزارعكم . « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » أى لا ترون له عظمة ، إذ تشركون معه ما لا يسمع ولا يبصر . فنفى الرجاء مراد به نفى لازمه ، وهو الاعتقاد ، مبالغة . وجوز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف ، أى ما لكم لا تحافون عظمة الله . ومنه قوله (١) :

* إِذَا لَسَعْتَهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لِسْعَهَا *

قال الشهاب : وهو أظهر .

(١) قائله أبو ذؤيب الهذلي ، من قصيدته التى مطلعها :

أَسَاءَلْتُ رَسَمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تُسْأَلِ عَنِ السَّكَنِ أَمْ عَنْ عَهْدِهِ بِالْأَوَائِلِ ؟
السكن : جمع ساكن وهم أهل الدار وسكانها من يهوى - أى يرتفع إليهم ويريدهم ،
ومنه قوله تعالى : فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ - والسكن : المنزل نفسه .
ويروى بيت الشاهد هكذا :

إِذَا لَسَعْتَهُ الدَّبْرُ لَمْ يَرْجُ لِسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَاسِلِ

قال : وربما أنشدت * وحالفها * وقوله : لم يرج لسمها أى لم يخش لسمها . والنوب :
التي تنوب ، تنجى وتذهب .

انظر الصفحة رقم ١٤٣ ، من ديوان الهذليين ، القسم الأول .

« وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا » أى تاراتٍ ، تراباً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم أجنةً ، وهكذا طوراً بعد طور . أى ومقتضى علم ذلك شدة الرهبة من بطشه وأخذه ، لعظيم قدرته . هذا فى أنفسكم . وهكذا يستدل على باهر عظمته ، وقاهر قدرته من آياته الكونية . كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا)

[١٦] (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)

[١٧] (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا)

[١٨] (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)

[١٩] (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا)

[٢٠] (لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا)

« أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » أى يزيل ظلمة الليل ، وينير وجه الأرض . « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » أى أنشأكم منها . « ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا » أى للحساب والجزاء . « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا » أى تستقرون عليها وتمهدونها . « لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » أى طرقاً مختلفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَ

إِلَّا خَسَارًا)

[٢٢] (وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا)

[٢٣] (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)

[٢٤] (وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا)

[٢٥] (مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا)

« قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي » أى خالفوا أمرى وردّوا على ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد ، « وَأَتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا » أى رؤساءهم المتبوعين ، أهل المال والجاه ، المعرضين عن الحق ، الذين غرّتهم أموالهم وأولادهم ، فهلكوا بسببهما ، وخسروا سعادة الدارين .

« وَمَكْرُؤًا مَكَرًّا كُبَّارًا » أى متناهيًا كبره ، فإن (الكبار) أكبر من (الكبير).

« وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا »

قال قتادة : كانت آلهة تعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العرب بعد ذلك .

قال : فكان (ود) اسكب بدومة الجندل ، وكانت (سواع) لهذيل ، وكان (يغوث)

لبنى غطفان من مراد بالجرف ، وكان (يعوق) لهمدان ، وكان (نسر) لذى الكلاع من

حمير .

وقال (فى رواية) : والله ما عدا - أى كلٌّ منها - خشبة أو طينة أو حجرًا .

وقال ابن جرير^(١) : كان من خبرهم - فيما بلغنا - من محمد بن قيس قال : كانوا قومًا

صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون

بهم : لو صورناهم كن أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصورهم . فلما ماتوا وجاء آخرون

دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وروى البخارى^(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال . صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب ، بمدُ : أما (ود) ، فكانت لكب بدومة الجندل ، وأما (سواع) فكانت لهذيل ، وأما (يغوث) فكانت لمراد ثم ابنى غُطَيْف بالجرف عند سبأ ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان ، وأما (نسر) فكانت لمحير لآل ذى الكَلَّاع : أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبُّوا إلى مجالسهم التى كانوا يجالسون أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا . فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ ، عبدت .

تنبيهات :

الأول - قال الرازى : فى انتقالها عن قوم نوح إلى العرب . إشكال ، لأن الدنيا قد خربت فى زمان الطوفان ، فكيف بقيت تلك الأصنام ، وكيف انتقلت إلى العرب . ولا يمكن أن يقال إن نوحاً عليه السلام وضعها فى السفينة وأمسكها ، لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها ، فكيف يمكن أن يقال إنه وضعها فى السفينة سعيّاً منه فى حفظها ؟ انتهى كلامه .

ونحن نقول : إن جوابه بديهيّ ، وهو أن انتقالها إلى العرب بواسطة نقل أحوال قوم نوح وأبنائهم وعوائدهم ، على ألسنة الرّحل والسّمّار ، لأن سيرة القرن المتقدم فى العصر المتأخر ، وسنة الخالف أن يؤرخ السالف . وجلى أن النفس أميل إلى الجهل منها إلى العلم ، لاسيما إذا زين لها المنكر بصفة تميل إليها ، فتكون ألصق به . وهكذا كان بعد انقراض العلم وحملته ، أن حدث ما حدث من عبادتها ، كما أشارت إليه رواية ابن عباس عند البخارى : حتى إذا هلك أولئك ، وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ ، عبدت . وعجيب من الرازى أن لا يجد مخرجاً من سؤاله ، وهو على طرف الثّمَام .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧١ - سورة نوح ، ١ - باب ودّاً ولا سواعاً ولا يغوثَ ويَعُوقَ ، حديث رقم ٢٠٦٦ .

الثاني - قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) : حكى الواقدي قال : كان (ود) على صورة رجل ، و (سواع) على صورة امرأة و (يفوث) على صورة أسد ، و (يعوق) على صورة فرس ، و (نسر) على صورة طائر . وهذا شاذ ، والمشهور أنهم كانوا على صورة البشر ، وهو مقتضى ما تقدم من الآثار في سبب عبادتها . انتهى .

الثالث - قال ابن القيم في (إغاثة اللهيان) أول ما كاد به الشيطان عبادة الأصنام ، من جهة العكوف على القبور ، وتصاوير أهلها ، ليتذكروهم بها ، كما قص الله سبحانه قصصهم في كتابه فقال : (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ..) الآية .

ثم قال : وتلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلعب بكل قوم على قدر عقولهم : فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم ، كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام ، ولهذا لعن^(١) النبي ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج ، ونهى عن الصلاة إلى القبور ، وسأل^(٢) ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً ، وقال^(٣) : اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وأمر بتسوية القبور ، وطمس التماثيل ، فأبى المشركون إلا خلافه في ذلك كله ، إما جهلاً ، وإما عناداً لأهل التوحيد ، ولم يضرهم ذلك شيئاً إلى آخر ما ذكره رحمه الله .

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٦٢ - باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، حديث رقم ٢٨٥ ، عن عائشة .
وإلى الحديث الذي أخرجه كذلك في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٧١ - باب بناء المسجد على القبر ، حديث رقم ٢٨١ ، عن عائشة أيضاً .

(٢) يشير إلى الحديثين اللذين رواهما مسلم في صحيحه في : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث رقم ٩٢ عن فضالة بن عبيد ، و ٩٣ عن علي بن أبي طالب .

وقوله تعالى: « وَقَدْ أَضَلُّوا » أى : الرؤساء « كَثِيرًا » ، أى خلقًا كثيرًا ، أو الأصنام كقوله تعالى^(١) : (رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ) . « وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا » أى خذلانا واستدراجا . وإنما دعا ذلك ليأسه من إيمانهم .

قال أبو السعود : ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، للتسجيل عليهم بالظلم المفرط ، وتعليل الدعاء عليهم به « تَمَمَّا خَطِيئَتِهِمْ » أى من أجلها « اغْرُقُوا » أى بالطوفان « فَأَدْخِلُوا نَارًا » أى أذيقوا به عذاب النار « فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا » .

قال الزمخشري : تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله ، وأنها غير قادرة على نصرهم ، وتسكم بهم ، كأنه قال فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم وبمعونتهم من عذاب الله ، كقوله تعالى^(٢) : (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا) .

وقال الرازي : لما ثبت أنه تعالى هو القادر على كل المقدورات ، بطل القول بالوسائط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)

[٢٧] (إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)

[٢٨] (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا)

« وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » أى أحداً .

قال ابن جرير^(٣) : يعنى به (الديار) من يدور فى الأرض فيذهب ويحى فيها ، وهو (فيعمال) من الدوران ، ديوارا اجتمعت الياء والواو ، فسبقت الياء الواو وهى ساكنة ، وأدغمت الواو فيها ، وصيرتا ياء مشددة . والعرب تقول : ما بها ديار ولا عريب ولا دوى ولا صافر ولا نافخ ضربة

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٦] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٤٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ » عن طريق الحق . « وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » قال أبو السعود : أى إلا من سيفجر ويكفر . فوصفهم بما يصيرون إليه ، وكأنه اعتذار مما عسى يرد عليه ، من أن الدعاء بالاستئصال ، مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن ، منكر ، وإنما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم ، بعد ما جرّبهم ، واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة .

وقال بعضهم : ملّ نوح عليه السلام من دعوة قومه وضجر ، واستولى عليه الغضب ، ودعا ربه لتدمير قومه وقهرهم ، وحكم بظاهر الحال أن المحجوب الذى غلب عليه الكفر لا يلد إلا مثله ، فإن النطفة التى تنشأ من النفس الخبيثة المحجوبة ، وتتربى بهياتها المظلمة ، لا تقبل إلا نفساً مثلها ، كالبنذر الذى لا يثبت إلا من صنفه وسنخه . انتهى .

« رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ » قال ابن جرير^(١) : أى رب اغفر عني ، واستر على ذنوبي وعلى والدي ، « وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا » قال ابن جرير^(١) : أى ولمن دخل مسجدي ومصلاي ، مصلياً مؤمناً بواجب فرضك عليه . وقيل : بيتي منزلي . « وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا » أى هلاكاً وخساراً .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠١ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٢ - سُورَةُ الْجِنِّ

قال المهايمى : سميت بها لاشتمالها على تفاصيل أقوالهم فى تحسين الإيمان ، وتقبيح الكفر ، مع كون أقوالهم أشد تأثيرا فى قلوب العامة ، لتعظيمهم إياهم .
وهى مكية . وآياتها ثمان وعشرون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا)

[٢] (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)

« قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ » أى لهذا القرآن الحكيم . والمشهور أن النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقد يستعمل إلى الأربعين كالرهب - كما في (المجل) - . قال القاشاني : قد مر أن في الوجود نفوساً أرضية قوية ، لا في غلظ النفوس السبعية والبهيمية وكشافها ، وقلة إدراكها ، ولا على هيات النفوس الإنسانية واستعداداتها ، يلزم تعلقها بالأجرام السكيفة ، الغالب عليها الأرضية ، ولا في صفاء النفوس المجردة ولطافتها لتتصل بالعالم العلوي ، وتتجرد متعلقةً بأجرام عنصرية لطيفة ، علبت عليها الهوائية أو النارية أو الدخانية ، على اختلاف أحوالها . سماها بعض الحكماء الصور المعلقة ، ولها علوم وإدراكات من جنس علومنا وإدراكاتنا . ولما كانت قريبة بالطبع إلى الملكوت السماوية ، أمكنها أن تتلقى من عالمها بعض الغيب ، فلا تستبعد أن ترتق إلى أفق السماء ، فتسترق السمع من كلام الملائكة ، أى النفوس المجردة . ولما كانت أرضية ضعيفة بالنسبة إلى القوى السماوية ، تأثرت بتأثير تلك القوى ، فرجت بتأثيرها عن بلوغ شأوها ، وإدراك مداها من العلوم . ولا ينكر أن تشتمل أجرامها الدخانية بأشعة الكواكب فتحترق وتهلك ، أو تترجر من الارتقاء إلى الأفق السماوي فتتسفل ، فإنها أمور ليست بخارجة عن الإمكان ، وقد أخبر عنها أهل الكشف والعيان ، الصادقون من الأنبياء والأولياء ، خصوصاً أكلهم نبينا محمداً ﷺ . انتهى .

وفي الآية - كما قال القاضي - دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام مارآهم، ولم يقرأ عليهم، وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها ، فأخبر الله به رسوله .
 « فَقَالُوا أ » أى لما رجعوا إلى قومهم « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا » قال المهايى أى كتاباً جامعاً للحقائق الإلهية والكونية ، والأحكام والمواظ ، وجميع ما يحتاج إليه فى أمر الدارين .
 « عَجَبًا » أى غريباً ، لا تناسبه عبارة الخلق ، ولا يدخل تحت قدرتهم .
 « يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ » أى إلى الحق وسبيل الصواب « فَأَمَّا نَّاهِ وَلَن نَّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا » أى من خلقه ، فى العبادة معه .

تنبيهات

الأول - هذا المقام شبيه بقوله تعالى (١) « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ » الآية . وقد روى البخارى (٢) عن ابن عباس قال . انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ! فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم ؟ قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ! قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الأمر الذى حدث ؟ فانطلقوا فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، ينظرون ما هذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء ! قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة ، وهو عامد إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له ، فقالوا : هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا ! إنا سمعنا قرآنًا عجيبًا يهدى إلى الرشd فأما به ولن نشارك ربنا أحدًا . وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ : (قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أُسْمِعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ) وإنما

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧٢ - سورة الجن .

أوحى إليه قول الجن . ورواه مسلم^(١) أيضاً وزاد في أوله : ماقرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ، انطلق . . . إلى آخره .

الثانى - قال الماوردى : ظاهر الآية أنهم آمنوا عند سماع القرآن . قال : والإيمان يقع بأحد أمرين : إما بأن يعلم حقيقة الإعجاز ، وشروط المعجزة ، فيقع له العلم بصدق الرسول . أو يكون عنده علم من الكتب الأولى ، فيها دلائل على أنه النبي المبشر به ، وكلا الأمرين فى الجن محتمل . انتهى .

الثالث - قال الرازى : فى الآية فوائد :

إحداها - أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس ، فقد بعث إلى الجن .
وثانيها - أن يعلم قريش أن الجن ، مع تمردهم ، لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه ، فأمنوا بالرسول .

وثالثها - أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس .
ورابعها - أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ، ويفهمون لغاتنا .
 وخامسها - أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان .
 وفى كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس . انتهى .
 ولما سمعوا القرآن ، ووقفوا للتوحيد والإيمان ، تنبهوا على الخطأ فيما اعتقدوه كفر الجن من تشبيه الله بخلقه ، واتخاذة صاحبة وولداً ، فاستعظموه ، وزهوه عنه ، فقالوا :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا)

« وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا » أى تعالى ملكه وعظمته ، وصدق ربوبيته ، عن اتخاذ صاحبة والولد .

(١) أخرجه فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ١٤٩ (طبعنا) .

قال ابن جرير^(١): الجَدُّ بمعنى الحظ . يقال : فلان ذو جدّ في هذا الأمر إذا كان له حظ فيه ، وهو الذي يقال له بالفارسيّة (البخت) . والمعنى : أن حظوته من الملك والسلطان والقدرة العظيمة عالية ، فلا تكون له صاحبة ولا ولد ، لأنّ صاحبة إنّما تكون للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى اتّخاذها ، وأن الولد إنّما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد . فقال النفر من الجن : علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه ، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتّخاذ صاحبة ، أو وقاع شيء يكون منه ولد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَأَنَّهُوَ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا)

[٥] (وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

[٦] (وَأَنَّهُوَ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

« وَأَنَّهُوَ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا » يعنون به مضلّهم ومغويهم « عَلَى اللَّهِ شَطَطًا » أى قولاً

ذا شطط . صفة لقول مقدر بتقدير مضاف . أو جعل عين الشطط مبالغة فيه . وأصله مجاوزة

الحدّ . والمراد منه نسبة صاحبة والولد إلى الله تعالى . « وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ

وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى فى نسبة ما ليس بحق ، إليه سبحانه . وهو اعتذار عن اتباعهم

السفيه فى ذلك ، لظنهم أن أحداً لا يكذب على الله ، حتى تبين لهم بالقرآن كذب السفيه

وافترأوه . « وَأَنَّهُوَ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا »

روى ابن جرير^(٢) عن ابن عباس قال : كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادى فى الجاهلية

فيقول : أعوذ بعزير هذا الوادى ، فزادهم ذلك إنّما . فى الآية إشارة إلى ما كانوا يعتقدون

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

في الجاهلية من أن الوديان مقر الجن وأن رؤساءها تحميمهم منهم . وهكذا قال إبراهيم : كانوا إذا نزلوا الوادى قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادى من شر ما فيه ، فتقول الجن : ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضرراً ولا نفعاً .

وقال الربيع بن أنس : كانوا يقولون : فلان من الجن رب هذا الوادى ، فكان أحدهم إذا دخل الوادى يعوذ برب الوادى من دون الله . قال : فيزيدهم ذلك رهقاً ، وهو الفرق . وقال ابن زيد : كان الرجل في الجاهلية إذا نزل بواد قبل الإسلام قال : إني أعوذ بكبير هذا الوادى . فلما جاء الإسلام ، عاذوا بالله وتركوهم . انتهى .

أى : لأن ذلك من الشرك ، ولذا نزلت سورتا المعوذتين لتعليم الاستعاذة بالله تعالى وحده والتبرؤ من الاستعاذة بغيره . وكذلك أذكرك الاستعاذات المأثورة ، فإنها للإرشاد لذلك . روى مسلم ^(١) عن خولة بنت حكيم قالت : من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك .

قال بعضهم : في الحديث تفسير آية الجن ، وأن ما فيها من الشرك ، وأن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر ، أو جلب نفع ، لا يدل على أنه ليس من الشرك .

وفي الآية تأويل غريب نقله الرازى . وهو أن المراد كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضاً ، سكن من شر الجن ، مثل أن يقول الرجل : أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادى . وأصحاب هذا التأويل ، إنما ذهبوا إليه لأن الرجل اسم الأنس لا اسم الجن . وهذا ضعيف ، فإنه لم يقم دليل على أن الذكر من الجن لا يسمى رجلاً . انتهى . والضمير المرفوع في (فزادهم) . للجن ، على معنى : فزادهم باستعاذتهم بهم ، غياً وإنما وضلاً . أو للإنس على معنى : فزادوا الجن باستعاذتهم كبراً وعتواً .

و (الرهق) في الأصل غشيان الشيء ، نخس بما يعرض من الكبر أو الضلال .

(١) أخرجه في مسلم : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٥٤ و ٥٥ (طبعنا)

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا)

[٨] (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا مَلَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا)

[٩] (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِيعِ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ وَشِهَابًا رَّصَدًا)

« وَأَنَّهُمْ » أى وأوحى إلى أن الجن « ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ » أى فى جاهلييتكم

« أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا » أى رسولاً إلى خلقه يدعوهم إلى توحيدهم ومافيه سعادتهم .

أو لن ينشر الله أحداً من قبره للحساب والجزاء .

وقيل : الضمير فى (وَأَنَّهُمْ) للإنس ، ذهاباً إلى أن قوله (وَأَنَّهُ وَكَانَ رِجَالٌ) (وَأَنَّهُمْ

ظَنُّوا) من كلام الجن ، والخطاب لهم .

« وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ » أى تطلبتنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها « فَوَجَدْنَا فِيهَا مَلَأَتْ

حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا » أى حَفَظَةً وَرَاجِم . « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِيعِ فَمَنْ

يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ وَشِهَابًا رَّصَدًا » أى كنا نقعد من السماء مقاعد لنستمع ما يحدث ،

وما يكون فيها ، فمن يستمع الآن فيها يجد له شهاب نار قد رصد له .

قال الزمخشري : وفى قوله (مَلَأَتْ) دليل على أن الحادث هو الملاء والكثرة . وكذلك

قوله (نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ) أى كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب .

والآن ملئت المقاعد كلها . وهذا ذكر ما حملهم على الضرب فى البلاد حتى عثروا على

رسول الله ﷺ واستمعوا قراءته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنٍ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)

« وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنٍ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » يعنون

أن ما حدث من منعمهم السمع من السماء ، ورجم من استمع منهم بالشهب ، كان يقولون هو لأمر عظيم أرادته الله بأهل الأرض ، إما عذاب أو رحمة . أى : حتى علموا بعد باستماعهم القرآن ، أنه لخير أريد بهم ، وذلك بعثة نبيّ مصلح يرشد إلى الحق .

قال الناصر : ولقد أحسنوا الأدب في ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل . والمراد بالمريد هو الله عز وجل ، وإبرازهم لاسمه عند إرادة الخير والرشد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَأَنَا مِنَّا الصّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذٰلِكَ ، كُنَّا طَرَآئِقَ قِدْدًا)

[١٢] (وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُمَجِّزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّمَجِّزَهُ وَهَرَبًا)

[١٣] (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ، فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا)

[١٤] (وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ، فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا)

[١٥] (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا)

[١٦] (وَاللّٰوِ اسْتَقِمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَّاءً غَدَقًا)

[١٧] (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)

« وَأَنَا مِنَّا الصّٰلِحُونَ » أى المسلمون العاملون بطاعة الله « وَمِنَّا دُونَ ذٰلِكَ » أى

قوم دون ذلك ، وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه ، أو الكافرون « كُنَّا طَرَآئِقَ قِدْدًا » أى أهواء مختلفة ، وفرقا شتى . وهذا بيان للقسمة قبل . أى كنا مثلها أو ذويها .

و (الطرائق) : جمع طريقة ، وهى طريقة الرجل ومذهبه . و (القدد) الضروب والأجناس المختلفة ، جمع (قدة) كالقطعة .

« وَأَنَا ظَنَنَّا » أى علمنا « أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ » أى إن أراد بنا سوءاً
« وَلَنْ نُعْجِزَهُ وَهَرَبًا » أى إن طلبنا .

قال الزمخشري : هذه صفة أحوال الجن ، وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم ، منهم
أخيار وأشرار ، ومقتصدون ، وأنهم يعتقدون أن الله عز وجل عزيز غالب لا يفوته مطلب ،
ولا يُنْجِي عنه مهرب .

« وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى » أى القرآن الذى يهدى إلى الطريق المستقيم « ءَامَنَّا بِهِ »
أى صدقنا بأنه حق من عند الله ، « فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا » أى أن ينقص
من حسناته فلا يجازى عليها « وَلَا رَهَقًا » أى أن ترهقه ذلّة ، وتلحقه حياة معذبة موجبة
للخسوء والطرود . يعنى : أنه يجزى الجزاء الأوفى ، وتكون له فى العز العاقبة الحسنى .
« وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ » أى الكافرون الجائرون عن طريق الحق ،
« فَمَنْ أَسْلَمَ » أى أذعن وانقاد « فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا » أى ترجّوا وتوخّوا رَشَدًا
عظيماً ، وقصدوا صواباً واستقامة .

وقوله (فَمَنْ أَسْلَمَ ..) الخ من كلام الله أو الجن . قال الزمخشري : وقد زعم من لا يرى
للجن ثواباً ، أن الله تعالى أوعد قاسطهم ، وما وعد مسلميهم ، وكفى به وعداً أن قال (فَأُولَئِكَ
تَحَرَّوْا رَشَدًا) فذكر سبب الثواب وموجبه . والله أعدل من أن يعاقب القاسط ، ولا يثيب
الراشد . « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » أى توقد بهم ، كما توقد بكفار الإنس .
« وَأَلْوِ اسْتَقِمْوْا » أى الجن أو الإنس أو كلاهما « عَلَى الطَّرِيقَةِ » أى طريقة الحق والعدل
« لَا سَفِيْتَهُمْ مَاءً غَدَقًا » أى لوسعنا عليهم الرزق . وإنما تجوز بالماء الغدق ، وهو الكثير ،
عما ذكر ، لأنه أصل المعاش وسعة الرزق ، ولعزة وجوده بين العرب . أو لأن غيره يعلم منه
بالأولى . « لَنَفْتَنِيَهُمْ فِيهِ » أى لنختبرهم فيه كيف يشكرون ماخولوا منه . « وَمَنْ يُعْرِضْ
عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ » أى عبادته أو موعظته « يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا » أى شديداً شاقاً .

قال الزمخشريّ : الصعد : مصدر صعد. يقال : صعد صعداً وصعوداً. فوصف به العذاب لأنه يتصعد المذب ، أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

« وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » أى مختصة به « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » أى فلا تعبدوا فيها غيره . تعريض بما كان عليه المشركون من عبادتهم غيره تعالى بمسجده الحرام ، ونصبهم فيه التمايل والأنصاب ، وبما عليه أهل الكتاب . فإن المساجد لم تُشَدَّ إلا لذكر فيها اسمه تعالى وحده . ومن هنا ذهب الحنابلة إلى أنه لا يجتمع فى دين الله مسجد وقبر ، وأن أيهما طرأ على الآخر وجب هدمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

« وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ » يعنى محمداً ﷺ ، « يَدْعُوهُ » أى يعبد ربه ، « كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » أى جماعات بعضها فوق بعض ، تعجباً مما رأوه من عبادته ، واقتداء أصحابه به ، وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره . فالضمير فى (كَادُوا) للجن . وقد بين ذلك حديث البخارى كما تقدم . وجوز رجوعه للمشركين بمكة . والمعنى : لما قام رسولاً يعبد الله وحده ، خالفاً للمشركين فى عبادتهم الآلهة من دونه ، كاد المشركون لتظاهروا عليهم ، وتعاونهم على عداوته ، يزدحمون عليه متراكمين - حكاه الزمخشريّ - ثم قال : (لِبَدًا) جمع لبدة ، وهو ما تلبد بعضه على بعض ، ومنها لبدة الأسد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا)

[٢١] (قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

« قُلْ » وقرئ (قال) « إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي » أى أعبده ، وأبتهل إليه وحده ، « وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا » أى فليس ذلك بيدع ولا منكر يوجب تعجبكم ، أو إبطاءكم على مقتى . « قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا » أى لأن ذلك لله تعالى وحده ، فلا تستعجلوني بالعذاب .

قال الشهاب في توضيح ما للقاضى هنا : إما أن يراد بالرشد النفع ، تعبيراً باسم السبب عن السبب ، أو يراد بالضرر الغنى ، تعبيراً باسم المسبب عن السبب . ويجوز أن مجرد من كل منهما ما ذكر في الآخر ، فيكون احتباكاً . والتقدير : لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً ، ولا غنيّاً ولا رشداً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قُلْ إِنِّي لَنْ مُبْجِرٍ مِنْ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

[٢٣] (إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا)

[٢٤] (حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا)

« قُلْ إِنِّي لَنْ مُبْجِرٍ مِنْ اللَّهِ أَحَدٌ » أى إن أراد بى سوءاً « وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » أى ملتجئاً إن أهلكنى . وأصله : المدخل من اللحد . وقوله « إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ » استثناء من قوله (لَا أَمْلِكُ) فإن التبليغ إرشاد ونفع . فهو متصل ، وما بينهما اعتراض مؤكد لنفى الاستطاعة . أى لا أملك إلا التبليغ والرسالات ، من معانى

الوحي ، وأحكام الحق . « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فلم يسمع ما جاء به ، ولم يقبل ما يبلغه « فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا * حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ » أى فى الرسالات الإلهية ، من الظهور عليهم والفتح ، أو العذاب الأخرى . « فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا » أى أجند الرحمن أو إخوان الشيطان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا)

[٢٦] (عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا)

[٢٧] (إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا)
« قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا » أى غاية تطول مدتها .
« عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا » أى حرساً من الملائكة يحفظونه من تخليط الشياطين ووساوسهم ، حتى يبلغ ما أمر به من غيبه ووحيه .

قال القاشانى : (رصداً) أى حفظة إمام من جهة الله التى إليها وجهه ، فروح القدس والأنوار الملكوتية والربانية . وإمام من جهة البدن ، فالملكات الفاضلة والهيئات النورية الحاصلة من هياكل الطاعات والعبادات ، يحفظونه من تخييط الجن ، واخلط كلامهم من الوسوس والأوهام والخيالات ، بمعارفها اليقينية ، ومعانيها القدسية ، والواردات الغيبية ، والكشوف الحقيقية . انتهى .

تنبيه .

قال الزمخشري : معنى أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذى هو مصطفى للنبوة خاصة ، لا لكل مرتضى .

قال : وفى هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم ، وإن كانوا أولياء مرتضين ،

فليسوا برسل ، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط . انتهى .

وأجاب أبو السعود بأن معنى الآية : فلا يطلع على غيبه اطلاعاً كاملاً ينكشف به جليلة الحال انكشافاً تاماً موجباً لعين اليقين ، أحداً من خلقه ، إلا من ارتضى من رسول . أى إلا رسولاً ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالاته ، كما يعرب عنه بيان (من ارتضى) بالرسول تعلقاً تاماً ، إما لكونه من مبادئ رسالاته بأن يكون معجزة دالة على صحتها ، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعمامة التكليف الشرعية التي أمر بها المكلفون ، وكميقات أعمالهم ، وأجزيتها المترتبة عليها في الآخرة ، وما تتوقف هي عليه من أحوال الآخرة التي من جملتها قيام الساعة والبعث ، وغير ذلك من الأمور الغيبية التي بيانها من وظائف الرسالة . وأما ما لا يتعلق بها على أحد الوجهين من الغيوب ، التي من جملتها قيام الساعة ، فلا يظهر عليه أحداً أبداً . على أن بيان وقته مُخَلَّ بالحكمة التشريعية التي عليها يدور فلك الرسالة . وليس فيه ما يدل على نفي كرامات الأولياء المتعلقة بالكشف . فإن اختصاص الغاية القاصية من مراتب الكشف بالرسول ، لا يستلزم عدم حصول مرتبة ما من تلك المراتب لغيرهم أصلاً ، ولا يدعى أحد لأحد من الأولياء ما في رتبة الرسل عليهم السلام من الكشف الكامل الحاصل بالوحي الصريح . انتهى وملخصه تقييد الغيب بما هو معجزة أو من وظائف الرسالة . وهكذا نحاً النسق في الجواب ، مع بيان الفارق وعبارته : أى إلا رسولاً قد ارتضاه لعلم بعض الغيب ، ليكون إخباره عن الغيب معجزة له ، فإنه يطلعه على غيبه ما شاء : و (من رسول) بيان (من ارتضى) . والولى إذا أخبر بشيء فظهر ، فهو غير جازم عليه ، ولكنه أخبر ببناء على رؤياه ، أو بالفراسة . على أن كل كرامة للولى فهي معجزة للرسول . انتهى .

وقال الرازي : وعندى أن الآية لا دلالة فيها على شيء مما قالوه - يعنى الزمخشري ومن تابعه - والذي تدل عليه أن قوله (على غيبه) ليس فيه صيغة عموم ، فيكفي في العمل بمقتضاه أن لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه ، فنحمله على وقت وقوع القيامة ،

فمكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد ، فلا يبقى في الآية دلالة على أنه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد .

قال : والذي يؤكد هذا التأويل أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية عقيب قوله : (إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُو رَّبِّي أَمَدًا) يعني : لا أدري وقت وقوع القيامة . ثم قال بعده : (عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا) أى وقت وقوع القيامة من الغيب الذى لا يظهره الله لأحد . وبالجملة فقوله : (على غيبه) لفظ مفرد مضاف ، فيكنى في العمل به عمله على غيب واحد . فأما العموم فليس في اللفظ دلالة عليه .

فإن قيل : فإذا حملتم ذلك على القيامة ، فكيف قال : (إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) مع أنه لا يظهر هذا الغيب لأحد من رسله ؟

قلنا : بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة ، وكيف لا وقد قال ^(١) (وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالسَّعَمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا) ولا شك أن الملائكة يعلمون في ذلك الوقت قيام القيامة . وأيضاً يحتمل أن يكون هذا الاستثناء منقطعاً ، كأنه قال : عالم الغيب فلا يظهر على غيبه الخصوص ، وهو يوم القيامة ، أحداً . ثم قال بعده : لكن من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شر مردة الإنس والجن . لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام جواباً لسؤال من سأله عن وقت وقوع القيامة على سبيل الاستهزاء به ، والاستحقار لدينه ومقاتله . اهـ .

وملخصه تخصيص الغيب بوقت وقوع القيامة بدلالة السياق ، والرسول بالملك . وناقشه في العناية بأن المرضى حمل الرسول على المتعارف لدلالة السباق والسياق عليه . هذا ، ونقل النسفي عن التأويلات ما مثاله :

قال بعضهم : في هذه الآية تكذيب المنجمة ، وليس كذلك ، فإن فيهم من يصدق خبره ، وكذلك المتطبية فإنهم يعرفون طبائع النبات ، وذا لا يعرف بالتأمل ، فلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسولٍ انقطع أثره ، وبقي علمه في الخلق . انتهى .

وهذا الجواب يلجأ إليه التفقه زعماء بأن معرفة مواقيت الكسوف ، وخواص المفردات

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٥] .

مما يشمله علم الغيب . والصواب عدم شموله لمثله ، لأنه مما يتيسر للناس أن يعرفوه بالنظر والاستدلال والتجربة والبحث ، كالعلوم الرياضية والطبيعية والزراعية والصنائع والهيئة الفلسفية . وبالجملة فكل ما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه لا يكون من الغيب في شيء . ولذا قال بعض الحكماء : لو كان من وظيفة النبي أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية ، لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل ، وينزع الاستقلال من الإنسان ، ويلزم بأن يتلقى كل فرد من كل شيء بالتسليم ، ولوجب أن يكون عدد الرسل في كل أمة كافياً لتعليم أفرادها في كل زمن ما يحتاجون إليه من أمور معاشهم ومعادهم . وإن شئت فقل : لوجب أن لا يكون الإنسان هذا النوع الذي نعرفه . نعم ، إن الأنبياء ينهون الناس بالإجمال إلى استعمال حواسهم وعقولهم في كل ما يزيد منافعهم ومعارفهم التي ترتق بها نفوسهم ، ولكن مع وصلها بالتنبيه على ما يقوى الإيمان ويزيد في العبرة . وقد أرشدنا ﷺ إلى وجوب استقلالنا دونه في مسائل ديانا في واقعة تأييد النخل إذ قال ^(١) : (أنتم أعلم بأمور دنياكم) انتهى . فاحفظه فإنه من المضمون به على غير أهله . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ بَلَغُوا رَسُولَنَا رَبَّهُمْ وَأَخَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)

« لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ بَلَغُوا رَسُولَنَا رَبَّهُمْ » متعلق بـ (يَسْأَلُ) غاية له . والضمير إما لـ (الرصد) ، وإما لـ (مَنْ أَرْتَضَى) . والجمع باعتبار معنى (من) . أى ليبلغوا ، فيظهر متعلق علمه . وإيراد علمه تعالى للعناية بأمر الإبلاغ ، والإشعار بترتب الجزاء عليه ، والمبالغة في الحث عليه ، والتحذير عن التفريط فيه . « وَأَخَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ » أى بما عند الرصد ، أو الرسل عليهم السلام . حال من فاعل (يَسْأَلُ) جىء بها لتحقيق استغفائه تعالى في العلم بالإبلاغ عما ذكر من سلك الرصد . « وَأَخَصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا » أى فرداً فرداً لسمعة علمه . تقرير ثان لإحاطته بما عند الرسل من وحيه وكلامه ، ووعد ووعيد كما عرف من نظائره .

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث ١٤١ (طبعنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٣ - سُورَةُ الْمَزْمَلِ

قال المهاجمي : سميت به لدلالته على عظم أمر الوحي ، لأن أقوى الخلائق كان يرتعد عنده فيترمل .

وهي مكية ، قيل : إلا قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ » إلى آخر السورة ، وآيها عشرون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ)

[٢] (قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا)

[٣] (نِصْفَهُ - أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا)

[٤] (أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا)

« يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ » أى المزمّل . من (تزمّل) بثيابه إذا تلفف بها . فأدغم التاء فى الزاى خوطب ﷺ بحكاية حاله وقت نزول الوحي ، ملاطفةً وتأنيساً وتنشيطاً للتشمر لقيام الليل ، وقيل : معناه المتحمل أعباء النبوة ، من تزمّل الزمّل ، إذا تحمل الحمل . ففيه استعارة . شبه إجراء التبليغ بتحمل الحمل الثقيل ، بجامع المشقة . قال الشهاب : وأورد عليه أنه مع صحة المعنى الحقيقي ، واعتضاده بالأحاديث الصحيحة ، لا وجه لادعاء التجوز فيه .

وقد يجاب بأن الأحاديث رويت فى نزول سورة (المدثر) لا فى هذه السورة ، كما سيأتى إن شاء الله ، إلا أن يقال : هما بمعنى واحد .

« قُمْ اللَّيْلَ » أى : فيه للصلاة ، ودع التزمّل للهجوع « إِلَّا قَلِيلًا » أى بحكم الضرورة للاستراحة ، ومصالح البدن ومهماته التى لا يمكن بقاؤه بدونها .

ثم بين تعالى قدر القيام خيراً له بقوله : « نِصْفَهُ - » أى نصف الليل بدل من الليل . « أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ » أى من النصف « قَلِيلًا » أى إلى الثلث .

« أَوْزِدْ عَلَيْهِ » أى النصف إلى الثلثين ، والمقصود التخيير بين قيام النصف وما فوقه وما دونه . ولا يقال : كيف يكون النصف قليلاً وهو مساوٍ للنصف الآخر ؟ لأن القلة بالنسبة إلى السكل ، لا إلى عدله .

« وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ أَنْ تَرْتِيلًا » أى يتنه تنبيهاً ، وترسل فيه رسلاً .

قال الزمخشري : ترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤدة ، بتبيين الحرف ، وإشباع الحركات ، حتى يحى المتلو منه شبيهاً بالشعر المرتل ، وهو المفاج المشبه بنور الأقحوان ، وأن لا يهذه هذا ، ولا يسرده سرداً .

تنبيه :

قال السيوطي : في الآية استحباب ترتيل القراءة ، وأنه أفضل من الهذبه ، وهو واضح . وقد ثبت في السنة أنه ﷺ كان يقطع قراءته آية آية ، وأنها كانت مفسرة حرفاً حرفاً ، وأنه كان يقف على رؤوس الآي .

واستدل بالآية على أن الترتيل والتدبر ، مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها ، لأن المقصود من القرآن فهمه وتدبره ، والفقه فيه ، والعمل به .

قال ابن مسعود : لا تهذؤوا القرآن هذ الشعر ، ولا تنثروه نثر الدقل . قفوا عند عجائبه ، وحرّكوا به القلوب ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)

« إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » أى رصيناً ، لزانة لفظه ، ومتانة معناه ، ورجحانه فيهما على ما عاده . ولما كان الراجح من شأنه ذلك ، تجوز بالثقل عنه . أو ثقيلاً على المتأمل فيه ، لافتقاره إلى مزيد تصفية للسر ، وتجريد للنظر . أو ثقيلاً لتلقيه ، لقول عائشة ^(١) رضى الله عنها : رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً . وعلى كل فالجمل معلقة للأمر بالترتيل ، وأن ثقله مما يستدعيه .

(١) يشير إلى الحديث الذى رواه البخارى في : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٤ - حدثنا

عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٢ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً)

« إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ » أى نشأته وطبيعة خلقه ومظهره « هِيَ أَشَدُّ وَطْأً » أى موافقة لما يراد منها من جمع الهم ، وهدوء البال . « وَأَقْوَمُ قِيلاً » أى أسدّ مقالاً وأصوبه . قال ابن قتيبة : لأن الليل تهدأ فيه الأصوات ، وتنقطع فيه الحركات ، ويخلص القول ، ولا يكون دون تسمعه وتفهمه حائل .

ونقل السيوطي عن الجاحظ قال : ناشئة الليل هى المعانى المستنبطة من القرآن بالليل ، أشد وطأً أبين أثراً . وأقوم قِيلاً ، أصح مما تخرجه الأفكار بالنهار ، خلّو السمع والبصر عن الاشتغال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا)

[٨] (وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً)

[٩] (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا)

« إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا » أى تقلباً فى مهماتك ، واشتغالاً بها ، فلذا أمرت بقيام الليل . « وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ » أى دم على ذكره ليلاً ونهاراً . قال الزمخشري : وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب : تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن ، ودراسة علم ، وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعات ليله ونهاره . « وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً » أى أخلص إليه ، بتجريد النفس عن غيره ، إخلاصاً عظيماً . « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » أى تسكل إليه مهامك ، فإنه سيكفيكها . قال ابن جرير^(١) : أى فيما يأمرك ، وفوض إليه أسبابك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[١٠] (وَأُصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا)

[١١] (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا)

[١٢] (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا)

[١٣] (وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا)

[١٤] (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا)

« وَأُصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » أى من الأذى والقرنى « وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا » أى بالإعراض عن مكافاتهم بالمثل ، كما قال تعالى ^(١) (وَدَعِ أَذْلَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) « وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ » أى دعنى وإياهم ، وكل أمرهم إلى ، فإن بى غنية عنك فى الانتقام منهم . « أُولِيَ النَّعْمَةِ » أى التمتع ، يريد صناديد قريش ومترفيهم . « وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا » أى تهمل عليهم زماناً ، أو إمهلاً قليلاً . « إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا » أى قيوداً « وَجَحِيمًا » أى ناراً شديدة الحرّ والانتقاد « وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ » أى يغص به آكله فلا يسيغه ، « وَعَذَابًا أَلِيمًا » أى ونوعاً آخر من أنواع العذاب مؤلماً لا يعرف كنهه . أى فلا ترى موكولاً إليه أمرهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام . « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ » أى تضطرب وترتج بالزلزال ، « وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا » أى رملاً متفرقاً منشوراً .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا)

[١٦] (فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا)

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] .

« إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ » أى بإجابة من أجب وإباء من أبى
« كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا » أى بدعوه إلى الحق . « فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ
فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا » أى ثقيلاً ، وذلك بإهلاكه ومن معه ، غرقاً فى اليم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا)

[١٨] (السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ، كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا)

[١٩] (إِن هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا)

« فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا » أى كيف تقون أنفُسكم
إن بقيتم على كفركم ، ولم تؤمنوا بالحق ، يوم القيامة ، وحاله فى الهول ما ذكر .

قال ابن أبى الحديد : يقال فى اليوم الشديد : إنه ليشيب نواصى الأطفال ، كلام جار
مجرى المثل . وليس ذلك على حقيقته ، لأن الأمة مجمعة على أن الأطفال لا تتغير حُلَامُهم فى الآخرة
إلى الشيب . والأصل فى هذا أن الهموم والأحزان إذا توالى على الإنسان شاب سريماً .
قال أبو الطيب ^(١) :

والهم يحترم الجسم نحافةً ويشيب ناصية الصبي ويهرم

« السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ » قال الزمخشري : وصف لليوم بالشدة أيضاً . وأن السماء على

عظمتها وإحكامها تنفطر فيه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ؟

قال السمين : وإنما لم تؤنث الصفة لأحد وجوه : منها - تأويله بالمستق . ومنها - أنها
على النسب ، أى ذات انقطاع ، نحو : مريض وحائض . ومنها - أنها تذكر وتؤنث .

(١) من قصيدته التى مطلعها :

لهوى القلوب سريرة لا تعلم عراضاً نظرت وخلت أنى أسلم

الديوان ص ٢١٨ (طبعة لجنة التأليف عام ١٩٤٤) .

ومنها - أنها اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالناء ، فيقال : سماء ، وفي اسم الجنس التذكير والتأنيث . والباء في (به) سببية أو للاستعانة ، أو بمعنى (في) .
« كَانَ وَعْدُهُ مَفْمُولًا » أى لأنه لا يخلف وعده ، فاحذروا ذلك اليوم . « إِنَّ هَٰذِهِ » أى الآيات الناطقة بالوعيد الشديد « تَذَكُّرَةٌ » أى موعظة لمن اعتبر بها واتمط ، « فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » أى بالإيمان به ، والعمل بطاعته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عَلِمَ آلَن تَخْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ، وَمَا تَقْدِمُوا لِنَفْسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ، وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)
« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ » أى تهجد

فيه هذه التارات المختلفة ، وتتشمز للعبادة فيه هذا التشمز امتثالاً لأمره وتبتلاً إليه ، « وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ » أى يعلمهم كذلك ، « وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » أى أن يجعلهما على مقادير يجران عليها ، فتارة يعتدلان ، وتارة يزيد أحدهما في الآخر ، وبالعكس مما يشق لأجله المواظبة على قيامه بما علمه منكم - أشار إليه ابن كثير - . أو المعنى : يقدر فيهما ما شاء من الأوامر . ومنه تقديره في قيام الليل ما قدره ، مما أمر به أول السورة من التخيير ، ترخيصاً وتيسيراً . « عَلِمَ آلَن تَخْصُوهُ » أى قيام الليل ، على النحو الذى

دأبتم عليه ، أو قيام الليل كله ، للخرج والعسر « فَتَابَ عَلَيْكُمْ » أى عاد عليكم باليسر ورفع الحرج . « فَأَقْرَهُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ » أى فى صلاة الليل بلا تقدير . أو المراد : لا تتجاوزوا ما قدره لكم ، رحمة بأنفسكم . وفيه رد من غلوهم فى قيام الليل كله ، أو الحرص عليه ، شوقاً إلى العبادة ، وسبقاً إلى السمكات .

قال مقاتل : كان الرجل يصلى الليل كله ، مخافة أن لا يصيب مما أمر به من قيام ما فرض عليه - نقله الرازى - .

« عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى » أى يضعفهم المرض عن قيام الليل « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ » أى للتجارة وغيرها ، فيعدهم ذلك عن قيام الليل « وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى لنصرة الدين ، فلا يفترون للقيام فيه « فَأَقْرَهُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » أى من القرآن . ولا تحرجوا أنفسكم ، لأنه تعالى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .

تنبيهات :

الأول - ذهب كثير من السلف إلى وجوب قيام الليل المفهوم من الأمر به طليعة السورة ، منسوخ بهذه الآيات .

روى ابن جرير^(١) عن عائشة قالت : كنت أجعل لرسول الله ﷺ وسلم حصيراً يصلى عليه من الليل ، فتسامع به الناس فاجتمعوا ، فخرج كالغضب - وكان بهم رحماً - نفشى أن يكتب عليهم قيام الليل ، فقال : يا أيها الناس ؟ اكفوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يمل من الثواب ، حتى تملاوا من العمل ، وخير الأعمال ما دمتم عليه . ونزل القرآن . (يَسْأَلُهَا الْمُزَّمِّلُ قَمِ الْيَلِ إِلَّا قَلِيلًا ...) الآية ، حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق ، فكتبوا بذلك ثمانية أشهر ، فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم ، فردهم إلى الفريضة ، وترك قيام الليل قال ابن كثير : والحديث فى الصحيح بدون زيادة نزول هذه السورة . وهذا السياق قد يؤم أن نزول هذه السورة بالمدينة ، وليس كذلك ، وإنما هى مكية . انتهى كلامه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أقول : وبمثل هذه الرواية يستدل على أن مراد السلف بقولهم : (ونزلت الآية) الاستشهاد بها في قضية تنطبق عليها - كما بيناه مراراً - .

وأخرج أيضاً ^(١) عن ابن عباس قال : أمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلاً . فشق ذلك على المؤمنين ، ثم خفف عنهم فرحمهم ، وأنزل الله بعد هذا (عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ . . .) الآية . فوسع الله - وله الحمد - ولم يضيق .

وعن أبي عبد الرحمن قال : لما نزلت (يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ) قاموا بها حولا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم ، حتى نزلت (فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ) فاستراح الناس . وهكذا روى عن سعيد والحسن وعكرمة وقتادة .

قال ابن حجر في (شرح البخاري) : ذهب بعضهم إلى أن صلاة الليل كانت مفروضة ، ثم نسخت بقيام بعض الليل مطلقاً ، ثم نسخ بالخمس . وأنكره المروزي . وذهب بعضهم إلى أنه لم يكن قبل الإبراء صلاة مفروضة .

وقال السيوطي في (الإكمال) : قوله تعالى (قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا) هو منسوخ بعد أن كان واجباً ، بآخر السورة . وقيل : محكم ، فاستدل به على ندب قيام الليل . واستدل به طائفة على وجوبه على النبي ﷺ خاصة . وآخرون على وجوبه على الأمة أيضاً ، ولكن ليس الليل كله ، بل صلاة ما فيه . وعليه الحسن وابن سيرين . انتهى .

أقول : من ذهب إلى أن الأمر محكم وأنه للندب ، يرى أن آخر السورة تعليم لهم الرفق بأنفسهم ، لأنه تاب عليهم باليسر ، ورفع عنهم الآصار . وفيه ما يدل على عنايتهم بالندوب ، وحرصهم عليه ، حتى أفضى الحال إلى الرفق بهم فيه . ويدل عليه أثر عائشة في ربطهم الحبل للتعلم به ، استعانة على قراءة القرآن ، وكثرة تلاوته .

الثاني - قال ابن كثير : في قوله تعالى (فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ) تعبير عن

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الصلاة بالقراءة ، كما قال في سورة سبحان ^(١) (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ) أى بقراءتك . وقد استدلل أصحاب الإمام أبى حنيفة رحمه الله ، بهذه الآية ، على أنه لا تتمين قراءة الفاتحة في الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ، ولو بآية ، أجزأه . واعتضدوا بحديث (المسئ صلاته) الذى فى الصحيحين ^(٢) : ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن . وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت ، وهو فى الصحيحين ^(٣) أيضاً ، أن رسول الله ﷺ قال : لا صلاة إلا أن تقرأ بفاتحة الكتاب . انتهى .

الثالث - فى قوله تعالى (وَآخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) علم من أعلام النبوة . قال ابن كثير : هذه الآية ، بل السورة كلها ، مكية . ولم يكن القتال شرع بعد ، فهى من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية .

الرابع - قال ابن الفرس : فى قوله (وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) فضيلة التجارة ، لسوقها فى الآية مع الجهاد .

أخرج سميد بن منصور عن عمر بن الخطاب قال : ما من حال يأتينى عليه الموت بعد الجهاد فى سبيل الله ، أحب إلى أن يأتينى وأنا ألتبس من فضل الله . ثم تلا هذه الآية . وقال السيوطى : هذه الآية أصل فى التجارة .

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ١٠ - كتاب الأذان ، ٩٥ - باب وجوب القراءة للإمام والمأموم ، حديث رقم ٤٦١ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٤٥ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخارى فى : ١٠ - كتاب الأذان ، ٩٥ - باب وجوب القراءة للإمام والمأموم ، حديث رقم ٤٦٠ .

وأخرجه مسلم فى كتاب الصلاة ، حديث ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ (طبعنا) .

« وَأَقْرِضُوا آلَهُ الْقَرْضَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » أى زكاة أموالكم .

قال ابن كثير : وهذا يدل أن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب

والمخرج لم تبين إلا بالمدينة .

« وَأَقْرِضُوا آلَهُ الْقَرْضَ حَسَنًا » يعنى به بذل المال فى سبيل الخيرات على أحسن وجه ،

كأن يكون من أطيب المال ، وإعطاءه للمستحق من غير تأخير ، واتقاء المن والأذى .

وسر الأمر به (الحسن) أن القرض لما كان يعطى بنية الأخذ ، لا يبالى بأى شئ وأى

مقدار يعطى منه ، فأشير إلى إثبات المقام الأرفع . ولكونه محقق الرجوع إليه دل التعبير به

على تحقق العوض هنا . « وَمَا تَقْدِمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ » أى فى الدنيا من صدقة أو نفقة

فى وجوه الخير ، أو عمل بطاعة الله ، أو غير ذلك من أعمال البر « تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ

خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا » أى ثواباً مما عندكم من متاع الدنيا . « وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ » أى سلوه

غفران ذنوبكم ، « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى ذو مغفرة لذنوب من تاب إليه وأناب ،

ورحمة أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٤ - سورة المدثر

مكية . وآياتها ست وخمسون آية .

قال ابن كثير : ثبت في صحيح البخاري عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن (يَسَاءُئُهَا الْمُدْثِرُ) وخالفه الجمهور ، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قوله تعالى (اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) كما سيأتي بيان ذلك هنالك ، إن شاء الله تعالى .

روى البخاري^(١) عن يحيى بن كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : (يَسَاءُئُهَا الْمُدْثِرُ) . قلت : يقولون (اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لي ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطت ، ففوديت فنظرت عن يميني ، فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرت خافئ فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً . فأتيت خديجة فقلت : دثروني وصبوا علي ماء بارداً . قال ، فدثروني وصبوا علي ماء بارداً . فنزلت (يَسَاءُئُهَا الْمُدْثِرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ » .

وروى الشيخان أيضاً^(١) عن الزهري قال : أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧٤ - سورة المدثر ، ١ - حديث يحيى

حديث رقم ٤ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٥٥ (طبعتنا) .

ابن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فجئْتُ منه رعباً ، فرجعت فقلت : زملوني زملوني . فدثروني ، فأنزل الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . . . » الآيات .

قال ابن كثير : وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله (فإذا الملك الذي جاءني بحراء) وهو جبريل حين أتاه بقوله (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعد . هذا وجه الجمع : أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة .

وروى الطبراني عن ابن عباس ؛ أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً ، فلما أكلوا منه قال : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : ليس بساحر ، وقال بعضهم كاهن ، وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم : شاعر ، وقال بعضهم : ليس بشاعر . وقال بعضهم : سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن وفتح رأسه وتدثر ، فأنزل الله تعالى (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . . .) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)

[٢] (قُمْ فَأَنْذِرْ)

[٣] (وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ)

[٤] (وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ)

[٥] (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)

[٦] (وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ)

[٧] (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » أى المتلفف بثيابه لغوم أو استدفاء ، من الدثار ، وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعار . والشعار الثوب الذى يلى الجسد . وأصله (المتدثر) فأدغم . خوطب بذلك لحالته التى كان عليها وقت نزول الوحي . أو لقوله : دثرونى - كما تقدم - . وقيل : معناه المدثر بدثار النبوة والرسالة ، من قولهم : ألبسه الله لباس التقوى ، وزينه برداء العلم . ويقال : تلبس فلان بأمر كذا . فجعل النبوة كالللباس مجازاً .

قال الشهاب : إما أن يراد المتحلى بها والمتزين ، كما أن اللباس الذى فوق الشعار يكون حلية لصاحبه وزينة . وكذا يسمى (خلة) . والتشبيه بالدثار فى ظهورها ، أوفى الإحاطة . الأول أنتم .

« قُمْ » أى من مضجعتك ودثارك . أو قيام عزم وجدّ « فَأَنْذِرْ » أى فحذر قومك من العذاب إن لم يؤمنوا .

قال الشهاب : لم يقل (وَبَشِّرْ) لأن كان في ابتداء النبوة ، والإنذار هو الغالب ، لأن البشارة لمن آمن ، ولم يكن إذا ذاك . أو هو اكتفاء لأن الإنذار يلزمه التبشير .
« وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » قال ابن جرير^(١) أى فمعظم بعبادته ، والرغبة إليه في حاجتك ، دون غيره من الآلهة والأنداد .

وقال القاشاني : أى إن كنت تكبر شيئاً وتعظم قدره ، فخصص ربك بالتعظيم والتكبير ، لا يعظم في عينك غيره ، ويصغر في قلبك كل ما سواه ، بمشاهدة كبريائه .
« وَرَبَّكَ فَطَهِّرْ » أى : بالماء من الأنجاس . قال ابن زيد ، كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره أن يتطهر ويطهر ثيابه . وقيل هو أمر بتطهير القلب مما يستفقد من الآثام .
قال قتادة : العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بمهد أنه دنس الثياب . وإذا وفى وأصلح ، قالوا : مطهر الثياب .

وعن ابن عباس : أى لا تلبسها على معصية ، ولا على غدره . ثم أنشد لغيلان بن سلمة^(٢) الثقي :

وإني ، بحمد الله ، لا ثوبَ فاجر لبستُ ، ولا منْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ
وفي الوجه الأول بقاء لفظي الثياب والتطهير على حقيقتهما ، وفي الثاني تجوز بهما . وبقي وجه ثالث ، وهو حمل الثياب على حقيقتها ، والتطهير على مجازه ، وهو التبصير . لأن العرب كانوا يطيلون ثيابهم ، ويجرون أذيالهم خيلاء وكبراً ، فأمر بمخالفتهم . ورابع وهو عكس

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) البيت لغيلان بن سلمة الثقي .

قال في اللسان (ث و ب) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يقول : لا تلبس ثيابك على معصية ، ولا على فجورٍ كفرٍ . واحتج بقول الشاعر :

إني بحمد الله ، لا ثوبَ غادر لبستُ ولا عنْ حَزِيَّةٍ أَتَقَنَّعُ

هذا ، وذلك ، بحمل الثياب على الجسد أو النفس كناية ، كما قال عنتره ^(١) :

* فشككتُ بالرمح الأصمُّ ثيابهُ *

أى : نفسه . ولذا قال :

* ليس الكريم على القنا بمجرَّم *

واستصوب ابن الأثير في (المثل السائر) الوجه الأول . قال في الفصل الثالث من فصول مقدمته : اعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل ، كقوله تعالى (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) . فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس . ومن تأول ، ذهب إلى أن المراد هو القلب ، لا اللبوس . وهذا لا بد له من دليل ، لأنه عدول عن ظاهر اللفظ .

ثم قال : المعنى المحمول على ظاهره لا يقع في تفسيره خلاف . والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف ، إذ باب التأويل غير محصور ، والعلماء متفاوتون في هذا ، فإنه قد يأخذ بعضهم وجهاً ضعيفاً من التأويل ، فيكسوه بمبارته قوة تميزه عن غيره من الوجوه القوية ، فإن السيف بضاربه ^(٢) :

إن السيوف مع الذين قلوبهم
كقلوبهن ، إذا التقى الجمعان
تلقى الحسام على جراءة حدّه
مثل الجبان بكفّ كل جبان . انتهى
ويكفي دليلاً ما للعرب من الشواهد والأمثال . والاستعمال لا ينحصر في الحقيقة . نعم ، المتبادر أولى وأجدر ، وهو عنوان الحقيقة .

(١) من معلقته التي أولها :

هل غادر الشعراء من متردّم
أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟
التردّم : الموضع الذي يستقرق ويستصلح ، لما اعتراه من الوهن والوهى .

(٢) قائله أبو الطيّب المتنبي ، من قصيدته التي مطلعها :

الرأى قبل شجاعة الشجعان
هو أولّ ، وهى المحل الثاني

الديوان (ص ٤١٢) طبعة لجنة التأليف عام ١٩٤٤ .

وقوله تعالى : « وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » أى اتركه . و (الرجز) بكسر الراء كالرجس والسين والزاى يتبادلان ، لأنهما من حروف الصفير .

و (الرجز) اسم للقبیح المستقدر . كفى به عن عبادة الأوثان خاصة ، لقوله (١) : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) أو عن كل ما يستكره من الأفعال والأخلاق . والجملة من جوامع الكلم فى مكارم الأخلاق ، كأنه قيل : اهرج الجفا والسفه وكل قبیح ، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز .

وقيل : المراد بالرجز العذاب ، وهجره كناية عن هجر ما يؤدى إليه من الشرك والمعاصى . فالرجز مجاز ، وقد أقيم مقام سبيه . أو هو بتقدير مضاف ، أى أسباب الرجز . أو التجوز بالتشبيه .

وقرى بضم الراء ، وهو لغة فى المكسور ، وما معنى ، وهو العذاب .

وعن مجاهد أنه بالضم بمعنى الصنم ، وبالكسر العذاب .

وأمره ﷺ بذلك ، وهو برىء منه ، إما أمر لغيره تعريضاً ، أو المراد الدوام على هجره . « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » أى لا تعط عطية تلمس بها أفضل منها ، بمعنى : لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه . يقال : مننت فلاناً كذا ، أى أعطيته . كما قال (٢) : (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ) أى فأعط أو أمسك . وأصله أن من أعطى فقد منّ ، فسميت العطية بالمنّ على سبيل الاستعارة . وجوز القفال أن يكون الاستكثار عبارة عن طلب العوض كيف كان زائداً أو مساوياً . قال : وإنما حسنت هذه الاستعارة ، لأن الغالب أن الثواب يكون زائداً على العطاء . فسمى طلب الثواب استكثاراً حملاً للشيء على أغلب أحواله . وهذا كما أن الأغلب أن المرأة إنما تزوج ، ولها ولد ، للحاجة إلى من يربى ولدها ، فسمى الولد ربيباً ، ثم اتسع الأمر ، فسمى ربيباً ، وإن كان ، حين تزوج أمه ، كبيراً .

(١) [٢٢ / الحج / ٣٠] . (٢) [٣٨ / ص / ٣٩] .

وسر النهي أن يكون العطاء خالياً عن انتظار العوض ، والتفات النفس إليه تعففاً وكلاً
وعلوّ همة .

وقيل : معنى الآية لا تعط عطاءً مستكثراً له ، فإن مكارم الأخلاق استقلال العطاء ،
وإن كان كثيراً ، فالسين للمد والوجدان . وسبق في سورة الروم في قوله تعالى ^(١) :
(وَمَا أَتَيْتُم مِّن رَّبٍّ لَّيْرُبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُوا عِنْدَ اللَّهِ) كلام في هذه
الآية أيضاً فارجع إليه .
« وَارْبِكَ فَاصْبِرْ » أى على أذى المشركين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ)

[٩] (فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَمْ عَسِيرٌ)

[١٠] (عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٌ)

« فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ » أى نفخ في الصور . و (الناقور) من النقر ، بمعنى التصويت .
وأصله القرع الذي هو سبب الصوت . ومنه مفقار الطائر لأنه يقرع به أى : لما كان الصوت
يحدث بالقرع . تجوز به عنه ، وأريد به النفخ لأنه نوع من الصوت .
« فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَمْ عَسِيرٌ » أى شديد .

« عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٌ » أى هين ، لما يحيق بهم من صنوف الردى . وفي قوله
(غَيْرُ يَسِيرٌ) تأكيد يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه ، ويشعر بيسره
على المؤمنين . ففيه جمع بين وعيد الكافرين وبشارة المؤمنين .

(١) [٣٠ / الروم / ٣٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا)

[١٢] (وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا)

[١٣] (وَبَيْنَ شُهُودًا)

[١٤] (وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا)

[١٥] (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ)

[١٦] (كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِتْنَانَا غَنِيدًا)

[١٧] (سَارُهُقَّةً وَسَعُودًا)

« ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا » أى لا مال له ولا ولد .

« وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا » أى مبسوطًا كثيرًا ، أو ممدودًا بالنماء .

« وَبَيْنَ شُهُودًا » أى رجالًا يشهدون معه المحافل والجامع ، أو حضوراً معه يأنس بهم ،

لا يحوجه سفرهم وركوبهم الأخطار ، لاستغنائهم عن التكسب والمدح .

« وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » أى بسطت له فى العيش والجاه والرياسة .

« ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ » . أى من المال والولد والجاه . أو من النعيم الأخرى .

وهذا أظهر لقوله « كَلَّا » أى لا يكون ما يأمل ويرجو ، لأن الجدير بالزيادة من نعيم الآخرة

هم المتقون ، لا هو ، « إِنَّهُوَ كَانَ لِإِتْنَانَا غَنِيدًا » أى معانداً للحجج المنزلة والمرسلة .

« سَارُهُقَّةً وَسَعُودًا » أى ساعشييه عقبة شاقة المصعد . وهو مثل لما يلقى من العذاب

الشاق الصعب الذى لا يطاق - قاله الزخشرى - .

قال الشهاب : ومعنى كونه مثلاً ، أنه شبه ما يسوقه الله له من المصائب ، بتكليف الصعود

في الجبال الوعرة الشاهقة ، وأطلق لفظه عليه . فهو استعارة تمثيلية .
ثم علل إرهابه ذلك بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّهُ وَفَكَرَ وَقَدَّرَ)

[١٩] (فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

[٢٠] (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

« إِنَّهُ وَفَكَرَ » أى ماذا يقول في هذه الآيات الكريمة والذكر الحكيم « وَقَدَّرَ »
أى في نفسه ما يقوله وهياه .

« فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ » أى لعن ، كيف قدر ذلك الافتراء الباطل ، واختلق ما يكذبه
وجدانه فيه .

« ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » تكرر للمبالغة في التعجب منه ، وقد اعتيد فيمن عجب
غاية التعجب أنه يكثر من التعجب ويكرره .

و (ثُمَّ) للدلالة على الثانية أبلغ في التعجب من الأولى للعطف بـ (ثُمَّ) الدالة على
تفاوت الرتبة . فكانه قيل : قتل بنوع ما من القتل ، لا بل قتل بأشده وأشدّه . ولذا ساغ
العطف فيه ، مع أنه تأكيد .

وقد جوز الزمخشري في هذه الجملة ثلاثة أوجه : أن تكون تعجبيا من تقديره وإصابته
فيه المحزّ ورميه الغرض الذى كان تنجيحه قريش . أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به ،
أو حكاية لما ذكره من قولهم (قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) تهكّا بهم وبإعجابهم بتقديره ،
واستعظامهم لقوله .

ثم قال : ومعنى قول القائل : قتله الله ، ما أشجعه ، وأخزاه الله ، ما أشعره ، الإشعار
بأنه قد بلغ البالغ الذى هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (ثُمَّ نَظَرَ)

[٢٢] (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ)

[٢٣] (ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ)

[٢٤] (فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ)

[٢٥] (إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ)

«ثُمَّ نَظَرَ» أى فى ذلك المقدّر . أى تروى فيه . قال الرازى : وهذه المرتبة الثالثة من أحوال قلبه . فالنظر الأول للاستخراج ، واللاحق للتقدير ، وهذا هو الاحتياط .

وقال غيره : (ثُمَّ نَظَرَ) أى فى وجوه القوم .

«ثُمَّ عَبَسَ» أى قطب وجهه كبراً وتهيمواً لقذف تلك الكبيرة «وَبَسَرَ» أى كالج وجهه . شأن اللئيم فى مراوغته ومخالطته ، والحسود فى آثار حقه على صفحات وجهه . «ثُمَّ أَدْبَرَ» أى عن الحق «وَاسْتَكْبَرَ» «أى عن الإيمان به . «فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ» أى ما هذا القرآن إلا سحر يروى ويتعلم . أى يأتريه عن غيره . «إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» أى ليس بكلام الله ، كما يقوله .

تنبيه :

اتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة المخزومى ، أحد رؤساء قريش ، لعنه الله . وكان من خبره مارواه ابن إسحاق ؛ أن الوليد بن المغيرة ، اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذاسن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش ! إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا رأياً واحداً ولا تختلفوا ، فيكذب بعضهم بعضاً ، ويردّ قولكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنت ، يا أبا عبد شمس !

فقل ، وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا ، والله ما هو بكاهن ! لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجمه . قالوا : فنقول : مجنون ! قال : ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ! قال : ما هو بشاعر . لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر ! قالوا : ما هو بساحر . لقد رأينا السحار وسحرم ، فما هو بنفهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله ! إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجنة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه ، لأن تقولوا : هو ساحر جاء بقول ، هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا المومنين . لا يمر بهم أحد إلا حذرّوه إياه ، وذكروا لهم أمره . فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة ، وفي ذلك ، من قوله (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ...) الآيات .

وعن قتادة : قال الوليد : لقد نظرت فيما قال هذا الرجل ، فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لميلو وما يعلو ، وما أشك أنه سحر . فأنزل الله الآيات - رواه بن جرير ^(١) - .

ونتم روايات بنحو ما ذكر .

وقد روى عن مجاهد أن الوليد كان بنوه عشرة . وحكي الشعبي عن مقاتل أنه أسلم منهم ثلاثة : خالد وعمار وهشام . قال ابن حجر في (الإصابة) : والصواب خالد وهشام واليد . فأما عمار ، فإنه مات كافراً ، لأن قريشاً بعثوه للنجاشي ، فجرت له معه قصة ، فأصيب بعقله . وقد ثبت أنه ممن دعا النبي ﷺ عليهم من قريش ، لما وضع عقبة بن أبي معيط سلى الجزور على ظهره ، وهو يصلي .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٧ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)

[٢٧] (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ)

[٢٨] (لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ)

[٢٩] (لَوْ آخَ لِلْبَشَرِ)

[٣٠] (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ)

« سَأُصْلِيهِ سَقَرَ » أى جهنم . وهو بدل من (سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا) بدل اشتغال ، لاشتغال (سَقَرَ) على الشدائد . « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ » قال الزمخشري : أى لا تبقى شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته ، وإذا هلك لم تذر هالكاً حتى يعاد . أو لا تبقى على شيء ، ولا تدعه من الهلاك ، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة . « لَوْ آخَ لِلْبَشَرِ » أى محرقه للجلود ، من (لو حته الشمس) إذا سوّدت ظاهره وأطرافه . و (البشَر) جمع بشرة ، وهى ظاهر الجلد . أو اسم جنس بمعنى الناس . وجوز أن يكون المعنى : لا نعمة للناس ، من (لاح) بمعنى ظهر ، والبشَر بمعنى الناس . « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » أى من الخزنة المتولين أمرها ، والتسلط على أهلها ، وفيه إشارة إلى أن زبانية العذاب الأخرى ، تفوق زبانية الجبارة فى الدنيا أضعافاً مضاعفة ، تنبيهاً على هول العذاب ، وكبر مكانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً

لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

إِيْمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَا ذَا آرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ)

« وَمَا جَعَلْنَاهُ أَصْحَابَ النَّارِ » أى خزنها « إِلَّا مَلَأْمِيكَةً » أى وهم أقوى الخلق بأسًا ، وأشدّهم غضبًا لله ، ليباينوا جنس المعبدين ، فلا يستروحون لهم . « وَمَا جَعَلْنَاهُ عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى من مشركى قريش . أى إلا عدة من شأنها أن يفتتن بها الكافرون ، فيجعلوها موضع البحث والهزء .

قال الجبائى : المراد من الفتنة تشديد التعبد ليستدلوا ويعرفوا أنه تعالى قادر على أن يقوى هؤلاء التسعة عشر على ما لا يقوى عليه مائة ألف ملك أقوياء .

وقال الكعبى : المراد من الفتنة الامتحان حتى يفوتض المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعين إلى علم الخالق سبحانه . قال : وهذا من التشابه الذى أمروا بالإيمان به . « لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أى رسالة النبى صلوات الله عليه لإنبائه من وعيد الجاحدين الفسدين ما لديهم مصداقه . واللام متعلقة بـ (جَعَلْنَا) الثانية .

فإن قيل : كيف يصح جعلهم فى نفس الأمر على هذا العدد ، معللاً باستيقان أهل الكتاب ، وازدياد المؤمنين ، واستبعاد أهل الشك والنفاق ، وليس بإيجادهم تسعة عشر سبباً لشيء من ذلك ، وإنما السبب لما ذكر ، هو الإخبار عن عددهم بأنه تسعة عشر ؟

والجواب : أن الجعل يطلق على معنيين :

أحدها - جعل الشيء متصفاً بصفة فى نفس الأمر .

وثانيهما - الإخبار باتصافه بها ، ويقال له : الجعل بالقول . أى وما جعلنا عدتهم بالإخبار عنها إلا عدداً يقضى فتنتهم ، لاستيقان أهل الكتاب ... الخ . أى وقلنا ذلك

وأخبرنا به لاستيقان... الخ. وعبر عن الإخبار بالجعل ، لمساكلة قوله (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ... الخ - هذا ما قرره شراح القاضى - .

«وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا» أى تصديقاً إلى تصديقهم بالله ورسوله . «وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا» أى حتى يخوفنا بهؤلاء التسعة عشر .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف ذكر الذين فى قلوبهم مرض ، وهم المنافقون ، والسورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما نجم بالمدينة ؟

قلت : معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون فى مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة ، والكافرون بمكة ، ماذا أراد الله بهذا مثلاً . وليس فى ذلك إلا إخبار بما سيكون ، كسائر الإخبارات بالغيوب . وذلك لا يخالف كون السورة مكية . ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتياب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين ، وبعضهم قاطعين بالكذب . انتهى .

وقال الرازى : إن قيل : لم سموه مثلاً ؟

فالجواب : أنه لما كان هذا عدداً عجبياً ، ظن القوم أنه ربما لم يكن مراد الله منه ما شعر به ظاهره ، بل جعله مثلاً لشيء آخر ، وتنبيهاً على مقصود آخر ، لا جرم سموه مثلاً .

«كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ» أى إضلاله لصرفه اختياره إلى جانب الضلال : عند مشاهدته آيات الله الناطقة بالحق . «وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» أى هدايته لصرف اختياره عند مشاهدته لتلك الآيات إلى جانب الهدى «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ» قال الزمخشري : أى وما يعلم ما عليه كل جند من العدد الخاص ، من كون بعضها على عقد كامل ، وبعضها على عدد ناقص ، وما فى اختصاص كل جند بعمده ، من الحكمة إلا هو . ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك ، كما لا يعرف الحكمة فى أعداد السموات والأرضين وأمثالها . أو وما يعلم جنود ربك لفرد كثرتها إلا هو ، فلا يمز عليه الزيادة على عدد الخزنة المذكور ، ولكن له فى هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها . انتهى .

ويجوز أن تكون الجملة تأييداً لكون ما تقدم مثلاً . أى أن المؤمنين يستيقنون بأن عدتهم ضربت مثلاً للكثرة غير المعتاد سماعها للكافرين . ومن سنته تعالى ضرب الأمثال في تنزيله ، وإلا فلا يعلم جنوده التي يسلطها على تعذيب من يشاء إلا هو . وهذا معنى آخر ، لم أقف الآن على من نبه عليه . ويؤيده قوله :

« وَمَا هِيَ » أى عدتهم المذكورة « إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ » أى عظة يرهبون منها عذاب الفار ، وهول أصحابها .

وقيل الضمير لـ (سقر) . وقيل : للآيات . والأقرب عندي هو الأول لسلامته من دعوى كون ما قبله معترضاً ، إذا أعيد الضمير لغيره ، ولتأنيده لما قبله بالمعنى الذي ذكرناه . القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (كَلَّا وَالْقَمَرَ)

[٣٣] (وَاللَّيْلَ إِذَا دَبَّرَ)

[٣٤] (وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ)

[٣٥] (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ)

[٣٦] (نَذِيرًا لِلْبَشَرِ)

[٣٧] (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ)

« كَلَّا » ردع لمن أنكر العدة أو سقر أو الآيات . أو إنكار لأن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون ، « وَالْقَمَرَ * وَاللَّيْلَ إِذَا دَبَّرَ » أى ولى ذاهباً بطلوع الفجر . « وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ » أى أضاء . ومن فوائد القسم بها الاعتبار بفوائدها ، والاستدلال بآياتها ، كما تقوم فى سورة (الصافات) :

« إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ » أى الأمور العظام .

« نَذِيرًا لِلْبَشَرِ » أى إنذاراً لهم ، فنصبه على أنه تمييز عن (إحدى) لما تضمنه من معنى التعظيم ، كأنه قيل : أعظم الكبر إنذاراً . فـ (نذيراً) بمعنى الإنذار ، كنفكير بمعنى الإنكار . أو على أنه حال عما دلت عليه الجملة . أى كبرت منذرة ، فـ (نذيراً) مصدر مؤول بالوصف ، أو وصف بمعنى منذرة .

« لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ » أى يسبق إلى الإيمان والطاعة « أَوْ يَتَأَخَّرَ » أى يتخلف . و (لمن) بدل من (للبشر) أى منذرة لمن شاء والتقدم والفوز ، أو التأخر والهلاك . أو خبر مقدم ، و (أَنْ يَتَقَدَّمَ) مبتدأ مؤخر ، كقولك لمن توضع أن يصلى ، كآية^(١) (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) وفى الثانى بُعد . وزعم أبو حيان أن اللفظ لا يحتمله ، ولم يسلم له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

[٣٩] (إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ)

[٤٠] (فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ)

[٤١] (عَنِ الْمُجْرِمِينَ)

[٤٢] (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ)

[٤٣] (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ)

[٤٤] (وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ)

[٤٥] (وَكُنَّا نَحْضُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)

(١) [١٨ / الكهف / ٣٩] .

[٤٦] (وَكُنَّا نُكَذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ)

[٤٧] (حَتَّىٰ أَتَمَّنَّا الْيَقِينَ)

[٤٨] (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ)

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » أى مرهونة ومحبوسة به عند الله تعالى . « إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » أى فإنهم فكوا رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الرهن رهنه بأداء الحق . « فِي جَنَّاتٍ » أى هم فى جنات لا يدرك وصفها « يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ » أى يسألون عنهم . وإيثار صيغة التفاعل للتكثير . ومنه (دعوته وتداعيناه) .

وقال القاشانى : أى يسأل بعضهم بعضاً عن حال المجرمين ، لاطلاعهم عليها ، وما أوجب تعذيبهم وبقاءهم فى سقر ، فأجاب المسؤولون بأننا سألناهم عن حالهم بقولنا :

« مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا » أى بلسان الحال أو المقال « لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ » أى كنا موصوفين بهذه الرذائل من اختيار الراحة البدنية ، ومحبة المال ، وترك العبادات البدنية ، والخوض فى الباطل ، والهزل والهذيان ، والتكذيب بالجزاء ، وإنكار المعاد . « حَتَّىٰ أَتَمَّنَّا الْيَقِينَ » أى الموت ، فرأينا به ما كنا ننكره عياناً . « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » أى من نبي أو ملك ، لو قدر على سبيل فرض الحال ، لأنهم غير قابلين لها . فلا إذن فى الشفاعة لذلك . فلا شفاعاة ، فلا تنفع .

قال ابن جرير^(١) : أى فإيشفع لهم الذين شفعمهم الله فى أهل الذنوب من أهل التوحيد ، فتشفعمهم شفاعتهم . وفى هذه الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى ذكره ، مشفع بعض خلقه فى بعض .

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٦ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ)

[٥٠] (كَأَنَّهُمْ مُحَرَّمُونَ مُسْتَنْفِرَةٌ)

[٥١] (فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)

[٥٢] (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّثَشَّرَةٌ)

[٥٣] (كَذَٰلِكَ بَلَّ لَا يُخَافُونَ الْآخِرَةَ)

[٥٤] (كَذَٰلِكَ إِنَّهُ وَ تَذْكَرَةٌ)

[٥٥] (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ)

[٥٦] (وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْغَفِرَةِ)

« فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ » أى فإلهؤلاء المشركين عن تذكرة الله إياهم بهذا القرآن معرضين ، لا يستمعون لها ، فيتعطوا ويعتبروا . « كَأَنَّهُمْ مُحَرَّمُونَ مُسْتَنْفِرَةٌ » أى كأنهم فى الإعراض عن الذكرى ، وبلادة قلوبهم ، حمر شديدة الغفار . « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » أى أسد ، أو عصابة قنص من الرماة . « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّثَشَّرَةٌ » أى ينزل عليه كتاب كما أنزل على النبي ﷺ . ونحوه آية (١) (وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ) وآية (٢) (وَلَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ) وآية (٣) (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ . . .) الآية .

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٤] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٩٣] .

(٣) [٦ / الأنعام / ٧] .

« كَلَّا » أى لا يكون مرادهم ، ولا يتبع الحق أهواءهم . أو ليس إرادتهم تلك
للرغبة فى الإيمان ، فقد جاءهم ما يكفيهم عن اقتراح غيره ، وإنما هم مردة الداء ، ولذا قال :
« بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ » أى لا يؤمنون بالبعث والجزاء ، ولا يخشون العقاب ،
لإيثارهم العاجلة . أى فذلك الذى دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة الله ، والإباء عن الإيمان
بتنزيله . « كَلَّا » ردع عن إعراضهم « إِنَّهُ وَتَذَكُّرُهُ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ » أى فاعظ
وعمل بما فيه من أمر الله ونهيهِ . « وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » أى ذكرهم
واتعاضهم ، لأنه لا حول ولا قوة إلا به سبحانه . وفيه ترويح لقلبه صلوات الله عليه ،
مما كان يخامرهم من إعراضهم ، ويحرص عليه من إيمانهم . « هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى » أى حقيق
بأن يتقى عقابه ، ويؤمن به ويطاع . « وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ » أى حقيق بأن يغفر لمن آمن به
وأطاعه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٥ - سُورَةُ الْقِيَامَةِ

قال المهايي : سميت به لتضمنها غاية تعظيم ذلك اليوم ، من لا يتناهى ثوابه وعقابه ،
بحيث تنحصر فيه كل نفس من تقصيرها ، وإن عملت ما عملت .
وهي مكية . وآيها أربعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ)

[٢] (وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

« لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ * وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » قال القاشاني : جمع بين القيامة والنفس اللوامة ، في القسم بهما ، تعظيماً لشأنهما ، وتناسباً بينهما . إذ النفس اللوامة ، هي المصدقة بها ، المقررة بوقوعها ، المهيئة لأسبابها ، لأنها تلوم نفسها أبدأً في التقصير ، والتقاعد عن الخيرات ، وإن أحسنت ، لحرصها على الزيادة في الخير ، وأعمال البر ، تيقناً بالجزاء ، فكيف بها إن أخطأت وفرطت وبدرت منها بادرة غفلة ونسيانا .
ومر الكلام على (لَا أَقْسِمُ) في مواقفه قبل هذا فتذكر . وحذف جواب القسم لدلالة قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ وَ)

[٤] (بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ وَ)

« أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ وَ » عليه ، وهو لتبعثن . قال القاشاني : المراد بالقيامة ، ههنا ، الصغرى ، لهذه الدلالة بعينها .
« بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ وَ » أى بلى ! نجتمع عظامه ، قادرين تسوية بنانه التي هي أطراف خلقته وتماها ، على صفرها ولطاقها ، وضم بعضها إلى بعض ، فكيف بكبار العظام ؟ !

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ)

« بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ » أى ليدوم على الفجور، فيما يستقبله من الزمان، ولا يثنيه عنه شيء، ولا يتوب منه أبداً .

قال الشهاب : (أَمَامَهُ) ظرف مكان ، استعير هنا للزمان المستقبل ، فيفيد الاستمرار . والضمير للإنسان ، أو ليوم القيامة . وقيل الدوام والاستمرار ، لأنه خبر عن حال الفاجر ، بأنه يريد ليفجر في المستقبل . على أن إرادته وحسابه هما عين الفجور . وفي إعادة المظهر مالا يخفى من التهديد ونمى قبيح ما ارتكبه، وأن الإنسانية تأباه . وقيل : حمله على الاستمرار ليصح الإضراب ، ويصير المعنى : بل يريد الإنسان أن يستمر على فجوره ، ولا يتوب ، فلذا أنكر البعث .

وقال القاشاني : أى ليدوم على الفجور باليل إلى اللذات البدنية ، والشهوات البهيمية ، غارزا رأسه فيها ، فيما بين يديه من الزمان الحاضر والمستقبل ، فيغفل عن القيامة لقصور نظره عنها ، وكونه مقصوراً على اللذات العاجلة ، وفرط تهالكه عليها ، واحتجابه بها عن الآجلة ، سائلاً عنها ، متمتناً مستبعداً إياها ، كما قال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ)

[٧] (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ)

[٨] (وَخَسَفَ الْقَمَرُ)

[٩] (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[١٠] (يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ)

[١١] (كَلَّا لَا وَزَرَ)

[١٢] (إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ)

[١٣] (يُنَبِّئُ الْإِنسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)

« يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ » أى متى يكون ؟ استبعاداً وهزواً . والجملة استئناف أو حال أو تفسير لقوله (يفجر) ، أو بدل منه والاستئناف بياني ، كأنه قيل : لم يريد الدوام على الفجور ؟ قيل : لأنه أنكر البعث واستهزأ به « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ » أى تحير ودهش . أى لما أتى من أمر الله . قال مجاهد : أى عند الموت . « وَخَسَفَ الْقَمَرُ » أى ذهب ضوؤه « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » أى جمع بينهما فى ذهاب الضوء ، فلا ضوء لواحد منهما . وقيل : إنها يجتمعان ثم يكوران ، كما قال جل ثناؤه ^(١) (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) قال ابن زيد : جمعا فرمى بهما فى الأرض . « يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ » أى الفرار . أى يطلب مهرباً ومحيصاً لدهشته ، أو يقوله قول الآيس لعلمه بأنه لا قرار حينئذ . « كَلَّا » ردع له عن طلب المفر ، « لَا وَزَرَ » أى لا ملجأ . « إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ » أى مستقر العباد ، من نار أو جنة . أى مفوض إليه لا إلى غيره مستقرهم ، أو استقرار أمرهم ، والحكم فيهم « يُنَبِّئُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ » أى من عمله الذى يوجب نجاته وثوابه ، من الخيرات والصالحات ، « وَأَخَّرَ » أى منه ففرط وقصر فيه ولم يعمل .

قال الشهاب : (مَا قَدَّمَ) كناية عما عمل ، و (مَا أَخَّرَ) ما تركه ولم يعمل . وهو مجاز مشهور فيما ذكر . أو ما قدمه ، ما عمله ، وما أخره ، عمل من اقتدى به بعده عملاً له ، كأنه وقع منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

[١٥] (وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ)

« بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ » قال القاشاني : أى حجة بينة ، يشهد بعمله ، لبقاء هيئات أعماله المكتوبة عليه في نفسه ، ورسوخها في ذاته ، وصيرورة صفاته صوراً لأعضائه ، فلا حاجة إلى أن ينبأ من خارج .

قال الشهاب : (بَصِيرَةٌ) مجاز عن الحجة الظاهرة . أو (بَصِيرَةٌ) بمعنى بينة ، وهى صفة لحجة مقدرة . وجعل الحجة بصيرة لأن صاحبها يبصر بها ، فالإسناد مجازى . أو هى بمعنى دالة مجازاً . أو هو استعمارة مكنية وتخييلية . و (الْإِنْسَانُ) مبتدأ ، و (بَصِيرَةٌ) خبره ، و (عَلَىٰ) متعلق به . والتأنيث للمبالغة ، أو لكونه صفة (حجة) .

« وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ » أى ولو ألقى أعذاره مجادلاً عن نفسه بكل معذرة . وفيه إشارة إلى أن ما عليه المشركون من الشرك وعبادة الأوثان ، وإنكار البعث ، منكر باطل ، تفكره قلوبهم ، وأنهم في دفاعهم يجادلون بالباطل . ولا غرو أن يفكر القلب ما تدفعه الفطرة السليمة ، والدين دين الفطرة .

قال الشهاب : شبه المجيء بالعذر بإلقاء الدلو في البئر للاستقاء به ، فيكون فيه تشبيه لذلك بالماء المروى للعطش .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ)

[١٧] (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ)

[١٨] (فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَبِيعْ قُرْءَانَهُ وَ)

[١٩] (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ وَ)

« لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمْجُلَ بِهِ » أى لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي ، لتأخذه على عجلة ، مخافة أن يتفلس منك . « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ » أى فى صدرك ، وإثبات حفظه فى قلبك ، بحيث لا يذهب عليك منه شىء . « وَقُرْءَانَهُ وَ » أى أن تقرأه بعد فلا تنسى « فَإِذَا قَرَأْتَهُ » أى أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام ، « فَاسْتَبِيعْ قُرْءَانَهُ وَ » أى كن مقفياً له ولا ترأسه . « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ وَ » أى بيان ما فيه ، إذا أشكل عليك شىء من معانيه ، أو أن نبيئنه على لسانك .

تنبيهات :

الأول - ما ذكرناه فى تأويل الآية هو المأثور فى الصحيحين وغيرها . ولفظ البخارى ^(١)

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يحرك شفثيه إذا أنزل عليه ، فقيل له (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) يخشى أن يتفلس منه (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ) أن نجمله فى صدرك (وَقُرْءَانَهُ وَ) أن تقرأه (فَإِذَا قَرَأْتَهُ) يقول أنزل عليه (فَاسْتَبِيعْ قُرْءَانَهُ وَ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ وَ) أن نبيئنه على لسانك . زاد فى رواية : فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك ، إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل ، قرأه النبي ﷺ كما قرأه .

قال ابن زيد : أى لا تسكلم بالذى أوحينا إليك ، حتى يقضى إليك وحيه ، فإذا قضينا إليك وحيه ، فتسكلم به . يعنى : أن هذه الآية نظير قوله تعالى ^(٢) (وَلَا تَمْجُلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) .

(١) أخرجه البخارى فى : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٤ - حدثنا موسى بن إسماعيل ،

(٢) [٢٠ / طه / ١١٤] .

حديث رقم ٥ .

قال ابن كثير : وهكذا قال الشعبي والحسن البصري وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد؛ أن هذه الآية نزلت في ذلك، وأنها تعلیم من الله عز وجل لرسوله، كيفية تلقيه الوحي.

الثاني - ذكروا في مناسبة وقوع الآية معترضة في أحوال القيامة - على تأويلهم المتقدم - وجوهاً :

منها - تأكيد التوبيخ على ما جبل عليه الإنسان - والمرء مفتون بحب العاجل - حتى جعل مخلوقاً من عجل . ومن محبة العاجل ، وإثارة على الآجل ، تقديم الدنيا الحاضرة على الآخرة، الذي هو منشأ الكفر والعناد، المؤدى إلى إنكار الحشر والمعاد. فاللهي عن العجلة في هذا يقتضي النهي فيما عداه، على آكد وجه. وهذه مناسبة تامة بين ما اعترض فيه وبينه. قاله الشهاب .

ومنها - أن عادة القرآن ، إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد ، حيث يعرض يوم القيامة ، أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً ، كما قال في السكف^(١) (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ) إلى أن قال^(٢) (وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ) الآية . وقال في طه^(٣) (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) إلى أن قال^(٤) (فَتَعْلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) .

ومنها - أن أول السورة لما نزل إلى قوله (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) صادف أنه ﷺ في تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذي نزل، وحرك به لسانه من عجلته خشية من تقلته، فنزلت (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) إلى قوله (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) ثم عاد الكلام إلى تسكلة ما ابتدأ به .

قال الفخر الرازي : ونحوه ما لو أتى المدرس على الطالب مثلاً مسألة ، فتشغل الطالب بشيء عرض له فقال له : ألقى إلى بالك ، وتفهم ما أقول . ثم كمل المسألة . فمن لا يعرف

(١) [١٨ / السكف / ٤٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٨٩] .

(٣) [٢٠ / طه / ١٠٢] . (٤) [٢٠ / طه / ١١٤] .

السبب يقول : ليس هذا الكلام مفاسباً للمسألة ، بخلاف من عرف ذلك - قاله الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) - .

الثالث - استدلووا على التأويل السابق بقوله تعالى (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب ، كما هو مذهب الجمهور لما تقتضيه (ثم) من التراخي . وأول من استدلل لذلك بهذه الآية القاضي أبو بكر بن الطيب ، وتبعوه . وهذا لا يتم إلا على تأويل البيان بتبيين المعنى ، وإلا فإذا حمل على أن المراد استمرار حفظه له ، وظهوره على لسان ، فلا . قال الآمدي : يجوز أن يراد بالبيان الإظهار ، لا بيان الجمل . يقال (بان السكوك إذا ظهر) قال : ويؤيد ذلك أن المراد جميع القرآن ، والجمل إنما هو بعضه ، ولا اختصاص بالأمور المذكور دون بعض .

وقال أبو الحسين البصري : يجوز أن يراد البيان التفصيلي ، ولا يلزم منه جواز تأخير البيان الإجمالي ، فلا يتم الاستدلال . وتعقب باحتمال إرادة المعنيين : الإظهار والتفصيل وغير ذلك ، لأن قوله (بيانه) جنس مضاف ، فيعم جميع أصنافه من إظهاره وتبيين أحكامه ، وما يتعلق بها من تخصيص و تقييد ونسخ وغير ذلك - قاله الحافظ في (الفتح) - .

وجوز الفقهاء أن تكون (ثم) للترتيب في الإخبار . أي ثم إننا نخبرك بأن علينا بيانه ، فلا تدل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب . وضعفه الرازي بأنه ترك للظاهر من غير دليل . الرابع - ما قدمناه من معنى قوله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) الخ ، وما استفيد منه ، وما قيل في مناسبته لما قبله ، كله إذا جرى على المأثور فيها . وحاول الفقهاء معنى فقال كما نقله عنه الرازي - : إن قوله تعالى (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) ليس خطاباً مع الرسول ﷺ بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله ^(١) (يُذَبِّهُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) فكان ذلك حال ما ينبأ بقبائح أفعاله ، وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له ^(٢) (أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) . فإذا أخذ في القراءة تلجأ لسانه من شدة الخوف ،

(١) [٧٥ / القيامة / ١٣] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٤] .

وسرعة القراءة ، فيقال له (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمْجُلَ بِهِ) فإنه يجب علينا بحكم الوعد ، أو بحكم الحكمة ، أن نجمع أعمالك عليك ، وأن نقرأها عليك ، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه ، بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال . ثم إن علينا بيان أمره ، وشرح مراتب عقوبته . وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية : أن المراد منه ؛ أنه تعالى يقرأ على الكافر جميع أعماله ، على سبيل التفصيل . وفيه أشد الوعيد في الدنيا ، وأشد التهويل في الآخرة . ثم قال القفال : فهذا وجه حسن ، ليس في العقل ما يدفعه ، وإن كانت الآثار غير واردة به . انتهى .

ونقل الشهاب أن بعضهم ارتضى هذا الوجه ، وقدمه على الوجه السابق . وزعم الحافظ ابن حجر أن الحامل على هذا الوجه الأخير هو عسر بيان المناسبة بين هذه الآية وما قبلها من أحوال القيامة . أى ولما بين الأئمة المناسبة التي أقرناها عنهم ، لم يبق وجه للذهاب إلى هذا الوجه الأخير ، مع أن هذا الوجه - هو فيما يظهر - فيه غاية القوة والارتباط بما قبله وما بعده ، مما يؤثره على المأثور ، الذي قد يكون مدركة الاجتهاد ، والوقوف مع ظاهر ألفاظ الآية . ومما يؤيده ما أورد عليه أن ابن عباس لم ير النبي ﷺ في تلك الحال ، لأن الظاهر أن ذلك كان في مبدأ البعث النبوي ، ولم يكن ابن عباس وُلد حينئذ . ولا مانع - كما قال ابن حجر - أن يخبر النبي ﷺ بذلك بعد ، فيراه ابن عباس ، أو يخبر به ، فيكون من مراسيل الصحابة - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)

[٢١] (وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ)

[٢٢] (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ)

[٢٣] (إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[٢٤] (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ)

[٢٥] (تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ)

« كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ » أى الدنيا العاجلة ، بإشار شهوراتها . « وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ » أى بالإعراض عن الأعمال التى تورث منازلها ، أو تنسون الآخرة ووعيدها ، وهول حسابها وجزائها . « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ » أى حسنة جميلة من النعيم « إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » أى مشاهدة إياه ، ترى جمال ذاته العلية ، ونور وجهه الكريم ، كما وردت بذلك الأخبار والآثار عن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه . « وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ » أى كالخلة ، لجهامة هيأتها ، وهول ما تراه هناك من الأهوال ، وأنواع العذاب والخسران . « تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » أى داهية تفصم فقار الظهر ، لشدها وسوء حالها ووبالها . وشتان ما بين المرتبتين ! ويظهر أن فى عود الضمير من (بها) إلى الوجوه - مراداً بها الدوات - شبه استخدام . ولم أر من نبه عليه .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٢٦] (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ)

[٢٧] (وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ)

[٢٨] (وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ)

[٢٩] (وَأُتِفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ)

[٣٠] (إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)

« كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أى بلغت النفس أعلى الصدر . وإضمـارها ، وإن لم يجر لها ذكر ، لدلالة السياق عليها ، كقول حاتم :

أماوى مَا يُغْنِي الثَّرَاهُ عَنْ الْفَتَى إِذَا حُشِرَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ
قال الرازى : يكفى ببلوغ النفس التراقى ، عن القرب من الموت ، ومنه قول دريد
ابن الصمة :

ورب عظيمة دافعتُ عنها وقد بلغتْ نفوسُهُمُ الرَّاقِ
ونظيره قوله تعالى ^(١) : (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُمُومَ) . « وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ » قال ^(٢)
ابن جرير : أى وقال أهله : مَنْ ذا يرقيه ليشفيه مما قد نزل به ، وطلبوا له الأطباء والمداوين ،
فلم يغنوا عنه من أمر الله الذى قد نزل به شيئاً . أى فلا استفهام بمعنى الطلب لراقٍ أو طبيب .
وجوز كونه بمعنى الإنكار ، بأساً من أن يقدر أحد على نفعه برقية أو عوذة .
لطيفة .

قال الواحدى : إن إظهار النون عند حروف الفم الحن . فلا يجوز إظهار نون (مَنْ) فى
قوله (مَنْ رَاقٍ) . وروى حفص عن عاصم إظهار النون فى قوله (مَنْ رَاقٍ) و (بَلْ رَانَ)
قال أبو على الفارسى : ولا أعرف وجه ذلك . قال الواحدى : والوجه أن يقال قصد الوقف
على (مَنْ) و (بَلْ) فأظهرهما . ثم ابتدأ بما بعدها . وهذا غير مرضى من القراءة . انتهى
نقله الرازى .

« وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ » أى وأيقن الذى قد نزل ذلك به ، أنه فراق الدنيا والأهل والمال .
« وَالتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ » أى التوت ساقه بساقه ، فلا يقدر على تحريكها . وقيل : هما
ساقاه ، إذا التفتا فى الكفن . وقيل : الساق عبارة عن الشدة ، كما مر فى سورة (القلم) .
والتعريف للعهد أيضاً .

قال الشهاب : فإن قلت : ما مرّ هو الكشف عن الساق ، ووجهه ظاهر ، لأن المصاب
يكشف عن ساقه ، فكيف ينزل هذا عليه ؟

قلت : الأمر كما ذكرت ، لكنه شاع فيه ، ففهم ذلك من الساق وحده ، حتى صار

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٩٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

عبارة عن كل أمر فظيع - كما أشار إليه الراغب - انتهى .
«إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ» أى سوقه إلى حكمه تعالى .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ)

[٣٢] (وَلَا كَانَ كَذِبًا وَتَوَلَّىٰ)

[٣٣] (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ)

[٣٤] (أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ)

[٣٥] (ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ)

[٣٦] (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[٣٧] (أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَىٰ)

[٣٨] (ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ)

[٣٩] (فَجَعَلَ مِنْهُ الْزَوْجَيْنِ الْأُنثَىٰ)

[٤٠] (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ)

«فَلَا صَدَقَ» أى بالدين والكتاب . أو صدق ماله ، أى ما زكاه «وَلَا صَلَّىٰ» أى الصلاة التى هى رأس العبادات ، التى سها عنها . «وَلَا كَانَ كَذِبًا» أى بدل التصديق «وَتَوَلَّىٰ» أى بدل الصلاة التى بها كمال التوجه إلى الله تعالى «ثُمَّ» أى مع هذه التقصيرات فى جنب الله تعالى «ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ» أى يتبختر فى مشيته . وأصله (يتمطط) أى يتمدد ، لأن المتبختر يمد خطاه .

تنبيهات

الأول - الضمير فى الآيات للإنسان المتقدم فى قوله تعالى (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ) .

الثاني - قال الرازي : إنه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وفروعه ، وفيما يتعلق بديناه . أما ما يتعلق بأصول الدين فهو أنه ماصدق بالدين ، ولكن كذب به . وأما ما يتعلق بفروع الدين فهو أنه ما صلي ، ولكنه تولى ، وأعرض . وأما ما يتعلق بديناه ، فهو أنه ذهب إلى أهله يتمطى ويختال في مشيته .

الثالث - دلت الآية على أن الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة ، كما يستحقهما بترك الإيمان .

الرابع - قال الرازي : قال أهل العربية : (لا) ههنا في موضع (لم) فقلوه : (فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى) أى لم يصدق ولم يصل ، وهو كقلوه ^(١) (فَلَا أُفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) أى لم يفتحتم . وكذلك ما روى ^(٢) : أرايت من لا أكل ولا شرب ولا استهل . قال الكسائي : لم أر العرب قالت في مثل هذا كلمة وحدها ، حتى تتبعها بأخرى ، إما مصرحاً بها ، أو مقدرأ . أما المصرح ، فلا يقولون لا عبد الله خارج ، حتى يقولوا ولا فلان ، ولا يقولون صررت برجل لا يحسن ، حتى يقولوا ولا يجمل . وأما المقدرفهو كقلوه (فَلَا أُفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) ثم اعترض الكلام فقال (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُ رَقَبَةً أَوْ إِطْعَمٌ) وكان التقدير : لافك رقبة ولا أطعم مسكيناً ، فاكتمني به مرة واحدة . ومنهم من قال : التقدير في قوله (فَلَا أُفْتَحَمَ) أى أفلا افتحتم ، وهلا افتحتم . انتهى « أَوْلَىٰ لَّكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَّكَ فَأَوْلَىٰ » أى ويل

(١) [٩٠ / البلد / ١١] . (٢) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخارى في صحيحه في :

٧٦ - كتاب الطب ، ٤٦ - باب الكهانة ، حديث رقم ٢٢٦٩ ، عن أبى هريرة ، نصه : أن رسول الله ﷺ قضى في امرأتين من هذيل افتتلتا ، فرمت إحداها الأخرى بحجر فأصاب بطنها وهى حامل ، ففتمت ولدها الذى فى بطنها . فاختمصوا إلى النبي ﷺ ففضى أن دية ما فى بطنها غرة : عبد أو أمة . فقال ولّى المرأة التى غرمت : كيف أغرم بارسول الله من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ، ومثل ذلك بطل ؟ فقال النبي ﷺ : إنما هذا من إخوان الكهّان .

لك مرة بعد مرة . دعاء عليه بأن يليه ما يكرهه ولاء متكرراً متضاعفاً .

وقيل : المعنى بُعداً لك . فبعداً في أمر دنياك ، وبعداً لك فبعداً في أمر أخراك - حكاية الرازي عن القاضي - ثم قال : قال الففال : هذا يحتمل وجوهاً :
أحدها - أنه وعيد مبتدأ من الله للكافر .

والثاني - أنه شيء قاله النبي ﷺ لعدوه - يعني أبا جهل - فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه ، فأنزل الله تعالى مثل ذلك .

والثالث - أن يكون ذلك أمراً من الله لنبيه بأن يقولها لعدو الله ، فيكون المعنى : ثم ذهب إلى أهله يتمطى ، فقل له يا محمد : أولى لك فأولى ، أى احذر ، فقد قرب منك ما لا قبل لك به من المكروه . انتهى والأظهر هو الأول - .
لطيفة :

تفسير (أَوْلَى لَكَ) بـ (ويل لك) قال الشهاب : هو محصل معناه المراد منه ، فإنه مثله ، فيرد للدعاء عليه ، أو للتهديد والوعيد .

وعن الأصمى أنها تكون للتحسر على أمر فات .

هذا هو المعنى المراد بها . وأما الكلام في لفظها ففيل : هو فعل ماض دعائي من (الولى) واللام مزيدة . أى أولاك الله ما تكرهه . أو غير مزيدة ، أى أدنى الهلاك لك . وقريب منه قول الأصمى : إن معناه قاربه ما يهلكه أن ينزل به . واستحسنه ثعلب .

وقيل : إنه اسم وزنه (أفعل) من الويل ، فقلب . وقيل فعلى ، ولذا لم ينون . ومعناه ما ذكر ، وألفه للإلحاق لا للتأنيث . وعلى الاسمية هو مبتدأ ، و (لك) الخبر . وقيل : إنه اسم فعل مبني ، ومعناه وليك شر بعد شر .

ونقل الزمخشري عن أبي علي أنه علم لمعنى الويل ، وهو غير منصرف للعلمية ووزن الفعل . وقيل عليه : إن الويل غير متصرف ، ومثل (يوم أيوم) غير منقاس ، ولا يفرد عن الموصوف . وادعاء القلب من غير دليل ، لا يسمع ، وعلم الجنس خارج عن القياس . فذا ذكر بعيد من وجوه عدة . وقيل : الأحسن أنه أفعل تفضيل خبر لمبتدأ يقدر كإيايق بمقامه . فالتقدير هنا :

النار أولى لك . يعنى : أنت أحق بها ، وأهل لها . انتهى .
 « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى » أى : هملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يجازى ،
 مع أنه الإنسان الذى أودع العقل وعلم البيان ، وغرز فى طبعه أن يعيش مجتمعاً ، وخص من
 المواهب ما فضل على غيره . فمن تمام الإحسان إليه إنقاذه من حيرته ، وإعلامه بسبيل هدايته ،
 وأن لا يترك خابطاً فى متائمه جهالته ، وقد كان ذلك بفضل الله ونعمته ، كما أشار لذلك بقوله :
 « أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى » أى يصب فى الرحم .
 « ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً » أى دماً « فَخَلَقَ » أى قدّر أعضائه « فَسَوَّى » أى سوى تلك
 الأعضاء لأعمالها وعدلها .

« فَجَعَلْ مِنْهُ زَوْجَيْنِ » أى الصنفين « الذَّكَرَ وَالْأُنثَى » أى لبقاء نوعه ، يعمّر
 الدنيا إلى الأجل الذى كتبه وقدره .
 « أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى » أى فيوجدهم بعد مماتهم لعمارة الآخرة .
 وقد روى أن النبي ﷺ كان إذا قرأها قال : سبحانك ، فىلى - رواه أبو داود عن رجل
 من الصحابة . ورواه أيضاً عن أبي هريرة بلفظ : من قرأ (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ) فانتهى إلى
 (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) فليقل : فىلى . ورواه الإمام أحمد
 والترمذى أيضاً - والله أعلم - .

بحمده تعالى وعونه ، كل هذا الجزء فى أوائل محرم سنة ١٣٢٧

بمزلنا فى زقاق السكتي ، فى خط قصر حجاج

ظاهر باب الجابية . على يد جامعه وكاتبه

الحقير محمد جمال الدين القاسمي

الدمشقي

تم الجزء السادس عشر ، ويليه إن شاء الله ، الجزء السابع عشر ،

وفيه تفسير ما بقى من سور الكتاب الكريم

فهرس السور المفسرة فى هذا الجزء

رقم الصفحة	رقم السورة واسمها	رقم الصفحة	رقم السورة واسمها
٥٨٥١	٦٦ - سورة التجرىم	٥٦٤٥	٥٦ - سورة الواقعة
٥٨٧٤	٦٧ - سورة الملك	٥٦٧٠	٥٧ - سورة الحديد
٥٨٩١	٦٨ - سورة نـ	٥٧٠٤	٥٨ - سورة المجادلة
٥٩١٠	٦٩ - سورة الحاقة	٥٧٣٣	٥٩ - سورة الحشر
٥٩٢٣	٧٠ - سورة المعارج	٥٧٥٧	٦٠ - سورة الممتحنة
٥٩٣٢	٧١ - سورة نوح	٥٧٨٠	٦١ - سورة الصف
٥٩٤٢	٧٢ - سورة الجن	٥٧٩٦	٦٢ - سورة الجمعة
٥٩٥٧	٧٣ - سورة المزمل	٥٨٠٦	٦٣ - سورة المنافقون
٥٩٦٩	٧٤ - سورة المدثر	٥٨١٧	٦٤ - سورة التغابن
٥٩٨٧	٧٥ - سورة القيامة	٥٨٢٨	٦٥ - سورة الطلاق

